فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ. (الأعراف : 176)

قصص القرآن الكريم

اثنتا عشْرة قصَّة في ثوب جديد وأسلوب سائغ ولفظ رائع

بأمر وإشراف

سماحة الشيخ غلام محمد الوستانوي

-حفظه الله ورعاه-

تأليف

الأستاذ ألطاف حسين الإشاعتي الكشميري

النشر والتوزيع

الجامعة الإسلامية إشاعة العلوم بأكل كوا – الهند
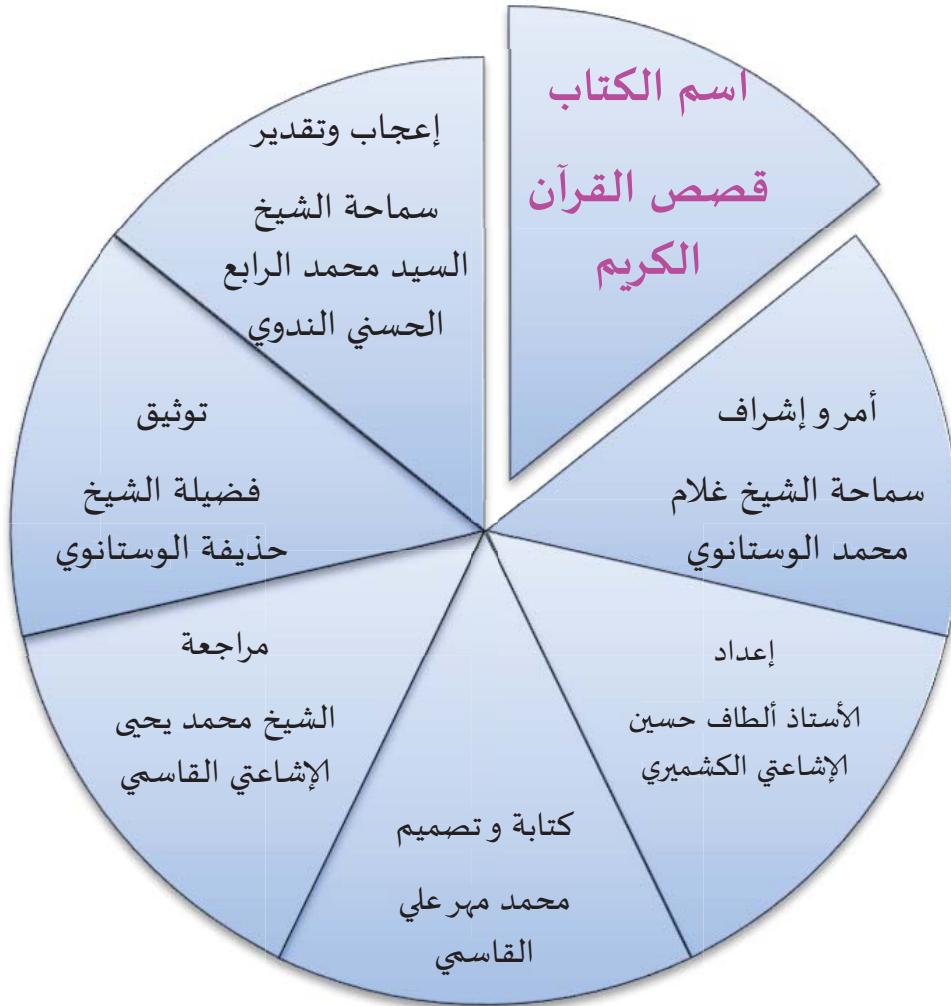
الطبعة الأولى : 1443هـ - 2022 م   عدد الصفحات: 260

اتصل بنا

الجامعة الإسلامية إشاعة العلوم بأكل كوا الهند - 425415

JAMIA ISLAMIA ISHA'ATUL ULOOM

At & Po.   Akkalkuwa, Dist. Nandurbar (MS)

www.jamiaakkalkuwa.com

وبِالمؤلف عبر الجوال و الواتساب : 6006039478

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِيْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. (سورة يوسف :111)

❁❁❁❁❁❁❁

يَا أُمَّةَ القُــرْآنِ إِنَّ كِتَابَكُمْ
لَهُوَ الشِّفَاءُ وَصِحَّةُ الأَبْـدَانِ
وَهُوَ الدَّوَاءُ لِكُلِّ جُرْحٍ غَائِــرٍ
وَهُوَ المُحَارِبُ نَزْغَةَ الشَّيْطَانِ
وَهُوَ البَلاَغَةُ وَالفَصَاحَةُ كُلُّهَا
وَهُوَ الحَضَارَةُ فِي عُلُــوِّ مَكَانِ
فَهُوَ الخِطَابُ لِكُلِّ عَقْلٍ نَابِهٍ
وَهُـوَ الضِّيَاءُ بِنُــورِهِ الرَّبَّانِي
يَهْدِي إِلَى الخَيْرِ العَمِيمِ وَإِنَّهُ
أَمْنُ القُلُوبِ وَرَاحَةُ الأَبْـدَانِ

❁❁❁❁❁❁❁

بسم الله الرحمن الرحيم

العالم الرباني الكبير والأديب العربي القدير سماحة الشيخ

محمد الرابع الحسني الندوي

-حفظه الله ورعاه-

الرئيس العام لندوة العلماء بلكناؤ - الهند

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسان ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين، وبعد!.

فإن أدب الأطفال قد أصبح اليوم أكثر انتشارا ورواجا من أدب الكبار، ويحمل أدب الأطفال تأثيرا خالدا ، لا تمحو آثاره، وحتى بعد النشأة والارتقاء في العلم والثقافة، ولهذه الأهمية كان من حق أدب الأطفال أن يولى به الاهتمام اللائق، لأنه خير وسيلة لغرس الأفكار والعقائد في الذهن الصافي قبل أن تعكره الفلسفات والأفكار العالية.

وكانت الحاجة إلى أن يختار هذا النوع الأساسي من الأدب لتربية النشء المسلم الجديد تربية صالحة، فقام الكتاب والأدباء الإسلاميون بتحقيق هذا الهدف، واختيار القصة كوسيلة ناجحة للتعليم والتربية الإسلامية، وكان في مقدمتهم سماحة شيخنا العلامة

الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي الذي يعد في طليعة الأدباء الذين قاموا بتوسيع نطاق الأدب الإسلامي، وغاصوا في الكتب والمؤلفات التي ألفت حول الموضوعات المختلفة، والتقطوا منها الدرر النفيسة، وقد اختار سماحة شيخنا الندوي القصة بصورة مستقلة للتربية والتعليم، ونقل الأفكار الصالحة، وألف في هذا المجال عدة كتب، من أهمها "قصص النبيين للأطفال" (خمسة أجزاء) و"القراءة الراشدة" (ثلاثة أجزاء) و"قصص من التاريخ الإسلامي" و"إذا هبت ريح الإيمان"، واختار في كتابة هذه القصص الأسلوب الشيق، الذي فيه تكرار للألفاظ، ورعاية لمعرفة الطفل للألفاظ التدريجية، وفي كل قصة تصوير للواقع، وتشخيص للمعاني، ومواد للتربية الإسلامية.

وقد نالت سلسلته "قصص النبيين" قبولا عاما ورواجا كبيراً، وأدرجت في المناهج الدراسية المتبعة في المدارس والكليات والجامعات في مختلف أنحاء العالم، كتب الأستاذ سيد قطب رحمه الله في كلمة تقديمه لكتاب "قصص النبيين" : "لقد قرأت الكثير من كتب الأطفال -بما في ذلك قصص النبيين عليهم الصلاة والسلام-، وشاركت في تأليف مجموعة "القصص الديني للأطفال" في مصر مأخوذًا كذلك من القرآن الكريم، ولكني أشهد في غير مجاملة-، أن عمل السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي في هذه القصة التي بين يدي جاء أكمل من هذا كله ، وذلك بما احتوى من توجيهات دقيقة، وإيضاحات كاشفة لمرامي القصة، وحوادثها ومواقفها، ومن تعليقات داخلة في ثنايا القصة، ولكنها توحي بحقائق إيمانية ذات خطر، حين تستقر في قلوب الصغار أو الكبار".

وأخيرًا نشرت سلسلة "قصص النبيين" بلون جديد وبطبعة ممتازة مع التمرينات والأسئلة المفيدة للطلاب، وحاول بعض أهل العلم أن ينسجوا على منوال الشيخ الندوي، وأن يكتبوا على طرازه في قصص النبيين، وحاولوا محاكاته، ومنهم الأستاذ ألطاف حسين الإشاعتي الكشميري الذي اختار اثنتي عشرة قصة من القصص القرآنية التي لم يذكرها الشيخ الندوي ، وذلك بأمر وإشراف الشيخ غلام محمد الوستانوي رئيس جامعة إشاعة العلوم بأكل كوا، واستفاد من الكتب المؤلفة حول قصص القرآن الكريم، وتفاسير الطبري، والآلوسي، وأبي السعود، والشوكاني، وابن عاشور، والصابوني وغيرهم، وهو الآن يقدم هذه القصص المختارة من القرآن الكريم في كتاب مستقل لتعم الفائدة.

فأبدي تقديري لهذا الجهد العلمي وأرجو الله تعالى أن يكون هذا الكتاب نافعا في مجال التعليم والتربية الإسلامية وغرس الأفكار الصالحة والعقيدة الصحيحة في ذهن النشء المسلم الجديد، وندعو له القبول، والله ولي التوفيق.

(محمد الرابع الحسني الندوي)

الرئيس العام لندوة العلماء بلكناؤ، الهند

٢٠/رجب ١٤٤٣هـ ٢٢/ فبراير ٢٠٢٢م

فضيلة الشيخ حذيفة غلام محمد الوستانوي

-حفظه الله و رعاه-

مدير التنفيذ للجامعة الإسلامية إشاعة العلوم بأكل كوا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق الإنسان وشرّفه و كرّمه، وأرسل لهدايته الرسل والأنبياء، والصلاة والسلام على أشرف الخلائق محمد بن عبدالله وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين.

أما بعد! فالقصة والقصص من أهم وسائل الترشيد للإنسان؛ فلذا بيّن الله قصصا كثيرة في محكم كتابه القرآن الكريم، وقد قام كثير من العلماء الأجلّاء بصياغة قصص القرآن الكريم صياغة سهلة ميسرة للأطفال والناشئة الصغار، ومن أهم كتب هذا الطراز كتاب سماحة العلامة الأديب الأريب المفكر الإسلامي الكبير الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي -رحمه الله رحمة واسعة- وتلقته الأمة بالقبول، فقد جمع الشيخ قصص الأنبياء في حلة أدب الأطفال، ولكن في القرآن قصص أخرى للصالحين وغيرهم، وقد ألهم الله -تبارك وتعالى- في قلب والدي

فضيلة الشيخ غلام محمد الوستانوي بأن ينجز هذا العمل الجليل، وكلف سماحة والدي الكريم خريج جامعتنا -الجامعة الإسلامية إشاعة العلوم بأكل كوا الهند- الأخ الفاضل ألطاف حسين الكشميري بأن يقوم بصياغة ما بقيت من قصص القرآن من كتاب "قصص النبيين للأطفال"، فاجتهد هذا الشاب الموفق، وهذب ورتب من هذه القصص اثنتي عشرة قصة على أسلوب الشيخ الندوي -رحمه الله-.

ولما طالعت هذا الكتاب وجدته مفيدًا جدًا ومثالًا رائعًا، فتقبل الله جهوده ونفع بهذا الكتاب العباد والبلاد، وجزاه الله خير الجزاء، ويرضى عنه وعنا جميعًا. والسلام.

(سماحة أستاذي الكريم الشيخ)
حذيفة الوستانوي (حفظه الله ورعاه)
16 يناير 2022ء (يوم الأحد)

تقريظ الأديب العربي الألمعي

الشيخ محمد يحي الإشاعتي القاسمي

-حفظه الله ورعاه-

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أفصح الرسل وأبلغ المرسلين، محمد بن عبد الله خاتم النبيين وإمام المرسلين، وعلى آله وصحبه الغر الميامين.

أما بعد! فهذا سِفْرٌ دَبَّجه يَرَاعُ فضيلة الأخ الشيخ ألطاف حسين الإشاعتي الكشميري بأمر من فضيلة رئيس الجامعة الشيخ غلام محمد الوستانوي - حفظه الله ورعاه- وإشرافه، وأسماه "قصص القرآن"، وجمع فيه اثنتي عشرة قصة قرآنية بأسلوب سهل ماتع ولفظ سائغ أنيق، فوُفِّقْتُ لأن أتصفح هذا السفر المستنير سطرا سطرا، وأن أستمتع به جملةً جملةً؛ فوقفت عليه وقوف طالب مستفيد، وأمعنت فيه النظر مُصعدا ومتسفلا، فألفيته كتابا فائق الأسلوب، سامق البيان، محبَّرا بجواهر الأدب ويواقيت البيان، متجاوبا مع الذوق الأدبي السليم، لا لغو فيه ولا تأثيم، فهنأتُ صاحبه قائلا: لو كان الشيخ أبو الحسن الندوي - رحمه الله- حيًّا لَلَبِثَ أمام عملك هذا مستحسنا مَلِيًّا، وقرَّبك نجيا، ورفعك مكانا عليا.

حقا إنه لكتاب ينفخ في الطلاب الناشئين روح لغة كتاب الله العزيز، ويأخذ بأيديهم إلى حقل أدب القرآن، فيكسبهم ملكة التمتع بعبير أسلوبه وأريج بيانه.

كتاب رأيتُ الحسن فيه مفصَّــلا

كما فصّل الياقوتَ بالدر ناظمُــه

فكان له نشــــرٌ يــفــوح وبهجــةٌ

كما افترّ عن زهر الرياض كمائمُه

ولا غرو؛ فلقد وفق الله العلي القدير أخانا الفاضل المؤلف لإنجاز هذا العمل الأدبي النير، والخدمة القرآنية المباركة، على حين أن الأوضاع التعليمية في مدارسنا و جامعاتنا تشكو الحضيض العلمي، والنضوب الأدبي، والضمور القلمي، فظهور مثل هذا العمل الأدبي والخدمة القرآنية المشرقة يبدو إرهاصا لتلكم المدارس والجامعات بمستقبل زاهر حافل بالعطاء والنهضة العلمية الصاخبة بجلبة الحركة التأليفية المتدفقة في العلوم الإسلامية والفنون الأدبية.

فالله أسأل أن يبارك للمؤلف في عمله وقلمه، وأن يتقبل خدمته هذه بمنه وكرمه، وأن يجعل هذا السفر العظيم سُلَّمًا نحو الصلة بالقرآن والحياة معه، وأن يوفقنا جميعا لما يحبه ويرضاه!.

وكتبه: محمد يحيى الإشاعتي القاسمي

20 رجب 1443هـ الموافق 22 فبراير 2022م

بين يدي الكتاب

الحمد لله الذي بعث إلينا أفضل رسله، وأنزل عليه أعظم كتبه، وجعله هداية وبركة ورحمة لأجمع خلقه، فصلوات الله وتسليماته وبركاته على هذا النبي الكريم وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد! فإني أحمد اللهَ -عزوجل- وأشكره شكرًا كثيرًا؛ إذ جعلني ممن يَنْتَمون إلى هذا الدين العظيم، ورزقني حظًا من إرث خاتم النبيين -عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم-، عرّفني بطريقِ المسجد ودُوْر العلم حتَّى التحقت -بفضله وكرمه- بمنهل من مناهل العلم والعرفان، وحَظِيْتُ بالتتلمذ على أيدي العلماء الربانِيين. قضيت سنوات عديدة من عمري تلميذا في رحاب هذا المنهل العلمي العرفاني أعني به الجامعة الإسلامية العربية العملاقة المعطاء إشاعة العلوم بأكل كوا -أبقاها الله قلعة شامخة للإسلام ومنهلا رقراقا للعلوم الإسلامية إلى آخر الدهر، وصانها من شرِّ الحاسدين وكيد الكائدين ووفق القائمين بها لما يحب ويرضى-.

ظَلَتُ قابعا في جَنَبات هذه الجامعة المباركة، وتلقيت من العلم ماشاء الله أن أتلقى، وقرأت فيها المقررات الدراسية كلها على أساتيذها الأجِلّاء -فجزاهم الله خير الجزاء، وبارك في حياتهم وأعمالهم-، قرأت من ضمن تلكم الكتب كتابًا قيما مباركا سَمَّاه صاحبُه -الشيخ العلامة أبوالحسن علي الحسني الندوي -رحمه الله رحمة واسعة- "قصص النبيين"، هو كتاب ذاعَ صِيْتُه في أرجاء المعمورة، وتُرجِمَ إلى كثير من

لغات العالم، ووضع الله له القبول فمكث في الأرض، و نفع الله به البلاد والعباد، وهذا الكتاب من الكتب المحسنة إلي أيما إحسان، فأنا مدين لهذا الكتاب القيم، ولا أنسى فضله طيلة حياتي، كنت قرأت هذا الكتاب القيم في زمن الدراسة، ثم صرت معلما في نفس الجامعة الميمونة -بفضل الله و مَنّه ثم بإحسان من يتولاها ويرعاها-، و عشت رَدْحًا من الزمن أُدَرِّسُ الطلابَ هذا الكتاب القيم، فانتفعت به في هذه المرحلة أكثر من ذي قبل، وكان شيخنا المفضال خادم الكتاب والسنة رئيس الجامعة الشيخ غلام محمد الوستانوي -حفظه الله ورعاه وبارك في حياته وأعماله الجليلة- كان يُشِيد بهذا الكتاب وينوِّه به كثيرًا، وهو يُعْنَى به شخصيّا عناية فائقة، ويحث الطلاب على اقتنائه وقراءته، وفهمِ مقاصد القصص القرآنية وتعلم اللغة العربية من خلال دراسته، فأصبح هذا الكتاب من أحسن الكتب وأحبها وأقربها إلى قلبي، وقرّبني هذا الكتاب المبارك وكثيرا من أمثالي إلى كتاب الله -عزوجل- وعرّفني بشخصياته وأعلامه وقدواته، لأن قصصه كلها مستفادة من القرآن الكريم، ويتجلى فيه تعلق صاحبه بالقرآن الكريم، وفهمُه العميق عن مقاصد قصصه ومراميه.

تمر بنا الأيام سِراعا فإذا يوما دعاني سماحة الرئيس المحترم -حفظه الله ورعاه- وأمرني أن أؤلف كتابًا باسم "قصص القرآن الكريم" وأتلو فيه تلوَ صاحب "قصص النبيين" -رحمه الله رحمة واسعة- وأحذو حذوَه، فقلت له : إن كتابه "قصص النبيين" ما هو إلا زُبْدة القصص القرآنية، سقاه صاحبه العالم الرباني القرآني بماء القرآن الكريم، وأنى لمثلي أن يدانيه! وشتان ما بين الثَّرَى والثُّرَيَّا !، فقال سماحة الشيخ - حفظه الله ورعاه- بلى، أعرف هذا جيدا، ولكن دار

بخَلَدي هذا الخيال، وأحب أن يُعمل على طِرازه، وأن يُنْسَج على منواله، وأن يكون في مُتناول طلبة العلم كتاب يعرض عليهم قصص القرآن ويقربهم إلى كتاب الله -عز وجل- لغة وأدبًا وفهمًا عن مقاصده، وأصر علي شديدًا، ولم يترك لي مجالًا للاعتذار وقال: استعن بالله وحاول أن تقوم به، الله يوفقك ويعينك، ويستعملك في أمر جَلَل، فقلت في نفسي : إذا كان لا بد من امتثال أمره السامي، فسأخطط خُطة لهذا العمل المبارك، ثم أعرض عليه ، وأستشيره فيه.

فعدت إلى التخطيط فوجدت -وكما ذكره أهل العلم-

أن قصص القرآن تشتمل على ثلاثة أنواع :

1 - قصص الأنبياء والمرسلين السابقين -عليهم وعلى نبينا الصلاة والتسليم.

2 - قصص الأمم والأشخاص الصالحين وغيرهم والأحداث الغابرة.

3 - قصص السيرة النبوية ومغازيه -على صاحبها الصلاة والسلام-.

ورأيت أن العلامة الشيخ أبا الحسن الندوي -رحمه الله- ذكر في سلسلة "قصص النبيين" جزءً لا يُستهان به من قصص الأنبياء السابقين وأقوامهم، ومقدارًا لا بأس به من قصص السيرة المحمدية -على صاحبها الصلاة والسلام- للناشئة الصغار، ولذا لا أتصدى لذكر هذه القصص وإعادتها، وليس في طوق مثلي أن أجاريه وأنافسه، فينبغي أن أختار قصصا أخرى من قصص القرآن الكريم التي لم يذكرها صاحب "قصص النبيين" -رحمه الله رحمة واسعة-. فاخترت اثنتي عشْرة قصَّة من القصص القرآنية التي لم يذكرها ما خلا قصَّة موسى مع الخضر -عليهما السلام- ذكرها إجمالًا، وأنا أذكرها بشيء من التفصيل، وحاولت محاكاة أسلوبه - رحمه الله - في بعض المواضع، لأنه قد قيل "إن التشبه بالكرام فلاح"، لكن لم يتأتَّ لي في كل الكتاب.

ثم أتيت سماحة الرئيس المؤقر - حفظه الله ورعاه - وعرضت عليه الخطة، ففرح جدا ووافقني تمام الموافقة ودعا لي بالخير والبركة وقال : ابدأ بـ"باسم الله".

فاستخرت الله وسألت العون منه -تبارك وتعالى- وسرت في العمل وَفْقَ الخطة المرسومة، واستفدت بتوفيق الله -عز وجل- لإنجاز هذه الخطة من الكتب الكثيرة منها:

قصص القرآن لمولانا حفظ الرحمن سيوهاروي -رحمه الله تعالى- (بالأردي).

وقصص القرآن الكريم للأستاذ الدكتور فضل حسن عباس -رحمه الله-، وكثير من المقالات في هذا الموضوع المهم الرائع، وتصفحت مواضع هذه القصص من تفاسير الطبري، والآلوسي، وأبي السعود، والتهانوي، والعثماني، والسعدي، والشوكاني، وابن عاشور، والصابوني، والجزائري، والزحيلي -رحمهم الله جميعًا وجازاهم عني وعن الإسلام والمسلمين خيرًا- حتَّى استطعت ببركتهم وإفاداتهم أن أؤلف هذا الكتاب.

ولم آلُ جهدي وبذلت مابوسعي، وحاولت كل المحاولة في إنجاز هذا المشروع طلبا لمرضاة الله، ورجاءً منه ثوابه وامتثالا لأمر رئيس الجامعة المؤقر -حفظه الله ورعاه-، حتَّى أنجزت -بتوفيق الله وعونه- ما وعدت، وأكملت هذه القصص في غُضُون بِضْعةِ أشهر، وتوسطت في لغته ومفرداته وجمله، واخترت أسلوبا يستسيغه طلاب الثانوية ومَن على مستواهم الثقافي اللغوي بكل يسر وسهولة، وقد زوّدته بشكل الكلمات وشرح المفردات الغريبة التي تفوق مستوى القراء الصغار، وسيكون هذا الكتاب -بإذن الله عزوجل- خيرَ زاد للطلاب والخطباء وعامة أهل العلم على حد سواء.

وهذه القصص الاثنتا عشرة مبثوثة في تسع سور ومأة وأربع وأربعين آية من القرآن الكريم كَبَثِّ الرَّبيعِ أفانينَ الزَّهر، وهي مليئة بالتوجيهات والإرشادات، مشحونة بالعبر والعظات، محتوية على أنواع القدوات، تنير سبل الهدى، وتقي مَتاهَات الرَّدَى، ويعلم كل دارس وقارئ للقرآن الكريم أن القرآن الكريم عني عناية كبيرة بالقصص، وأورد الكثير منها إجمالًا وتفصيلًا، وتشغل القصص القرآنية مساحة كبيرة منه، حتَّى تقارب ثلثه، والقصص في القرآن لها شأن غير شأن القصص في دنيا الناس، امتازت قصص القرآن بسمو غاياته وشريف مقاصده وعلو مراميه، وقصص القرآن كلها في أسلوب حكيم، ولفظ رائع، ونسق متسق، وليست القصص في القرآن للتفكه والتمتّع والتسلية بل هي لمقاصد عُليا وأغراض سامية.

فينبغي لكل قارئ أن يقرأها ويتدبرها، فما أحلى العيش مع القرآن! وما أسعد الأوقات التي بُذلت في دراسة القرآن وفهم معانيه ومراميه! وقد أمر الله نبيه - صلى الله عليه وسلم- أن يتلو القصص على الناس ويذكّرهم بها، فماذا علينا وعلى طلابنا وعلمائنا وخطبائنا ولكل من له منبر وصوت مسموع لو رَكّزْنَا جُلّ عناياتنا على القصص القرآنية، وَذكرنَا بها الناس؟! وضَرَبْنَا القصص التي ليس لها أساس ولا أصل ولا سند معتبر عُرُضَ الحائط!؟ كي يَلْتَفَّ المسلمون أجمعون حول كتاب ربهم، ومصدر هدايتم، ومنبع صلاحهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة، إن فعلنا هكذا فقد فعلنا كبيرًا وحققنا عظيمًا، والله المستعان.

ولا يفوتني في هذا المقام أن أشكر كل من ساعدني وساهمني في هذا العمل المبارك ولو بكلمة واحدة، وشكر الله سعي طلاب المعهد العربي الذين ساعدوني في التسويد والتبييض وإخراجه إلى المرحلة

الطباعة أيما مساعدة، فجزاهم الله خير الجزاء، وبارك لهم في حياتهم وأعمارهم وأعمالهم.

هذا وقد أوردت -بحمد الله- في هذه القصص القرآنية ما أردت إيراده حَسَبَ معرفتي وثقافتي وفهمي، وجعلت لها عناوين شتى باعتبار إيحاءات القصص وتعريضاتها ومحتوياتها، والحقيقة التي لا يمكن إنكارها أنها قصص القرآن الذي لا تنقضي عجائبه، فليس لأحد أن يبلغ غورها وعمقها، ولا لأحد أن يستقصي مضامينَها وفَحاوِيَها، فإن كنت في إيرادي إياها مصيبا فمن الله وحدَه وإن كنت غير ذلك فمني أو الشيطان، والكمال لله وحده، وهو في البشر محال.

وهنا أرفع أكُفَّ الضَّراعة إلى الرب الرحيم -سبحانه وتعالى-، بجهد المُقِلّ، وببضاعة مزجاة سائلا الإخلاص والقبول، لعل الكريم يتقبل مني ويضع فيه الخير والنفع لعباده الصالحين ويجعله صدقة جارية إلى يوم الدين، ويجزي خير الجزاء وأحسنه وأكمله شيخنا المفضال ورئيسنا المحترم -حفظه الله ورعاه وأبقاه لنا مع الصحة والعافية- على ما كلّفني بما فيه نفعي ونفع كثير من الطلاب وأهل العلم، ورغّبني وشجّعني وأشرف على هذا العمل حتَّى استطاع أن يرى ضوء النهار.

والله من وراء القصد، وهو وحده يعلم السِّرّ والنَّجْوى، وهو حسبنا ومولانا، فنعم المولى ونعم النصير.

ألطاف حسين الإشاعتي الكشميري -عفا الله عنه-

أكل كوا - مهاراشترا - الهند

13 /جمادى الأولى 1443هـ

الموافق 17 / ديسمبر 2021م

وصايا لقمان حَرِيَّة بالعناية والاهتمام، و هي جَمَعَتْ أمهات الحِكَم، وما حُكِيَتْ في محكم القرآن إلا لشرفها ومكانتها.

قصَّة لقمان -رحمه الله-

1 - رجل حكيم

قبل قُرونٍ كثيرة، ودُهورٍ مديدةٍ، كان في قرية رجل حكيم، وكان اسم هذا الرجل لقمان، وكان لقمان رجلًا عابدًا، وكان رجلًا زاهدًا، وعبدًا صالحًا. وكان يعبد الله كثيرًا، وكان يذكر الله دائمًا، وكان يطيع الله ليلًا ونهارًا، وكان رجلًا ناصحًا لله، وكان كثيرَ التَّفكرِ، وحَسَنَ اليقينِ، وكان عبدًا شكورًا، أمره الله أن يشكر له على نِعَمِه، فكان يشكر الله ولا يكفر أبدًا؛ لأَنَّ من كفر لم يشكرِ الله أصلًا، أعلى الله شأنه وأثنى عليه في كتابه وسمّى سورة كاملة باسمه.

2 - حكمة لقمان

وكان لقمان له قلبٌ سليمٌ، وكان له عينٌ دامعةٌ، وأُذُنٌ واعِية.

قد آتاه الله الحكمةَ، ورزقه من العلم حظًّا وافِرًا، فجَّرَالله في قلبه أنهارَ الحكمةِ، وأجرى اللهُ على لسانه ينبوعَ

الحكمةِ، وكان يُحبُّ اللهَ فأحبَّه، ومنَّ عليه بالحكمة، وكان إن تكلَّم تكلَّم بحكمة، وكان إن تفكر تفكر بحكمة، وكان إن تحرَّك تحرَّك بحكمة، وكان يطيل الجلوسَ وحدَه، ويفكر كثيرًا، فصارت حكمتُه في الناس مثلاً، فما يُذكر لقمانُ إلّا ويُذكر معه الحكمةُ ولا تُذكر الحكمة إلّا ويُذكر معه لقمانُ. قال تعالى: {وَ لَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلّٰهِ، وَ مَنْ يَّشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِه، وَ مَنْ كفَرَ فَإِنَّ اللّٰهَ غَنِيٌّ حَمِيْدٌ}.

(سورة لقمان:12)

3 - نصيحة لقمان

وكان لقمان له ولد يحبُّه ويعظُه، وكان ينصحُ له نصيحة غالية، وكان ينصح له نصيحة بَليغة، وكان يَنصح له نصيحة مُحكمة جامعة، وكان يُرشده ويُوصيه، لأنّ الأبَ الصالحَ ينصح لولده ويعظُه، والأبَ الصالحَ يرشد ابنَه ويُوصيه، والأبَ الصالحَ يُربِّي أولاده على الخير والفضيلة، والابن الصالح يَسمع نُصحَ أبيه ويعمل به، والابن الرشيد يَستمعُ إلى موعظةِ أبيه ويتَّعظ بها.

وكان لقمان ناصحًا لله ولأهل بيته وقومه، وكان يُحبُّ النُّصحَ والخيرَ لنفسه والناس أجمعين. لقد جمع لقمانُ في نصائِحه خيرَيِ الدنيا والآخرةِ.

4 - ظُلمٌ عظيمٌ

وَعَظَ لقمانُ ابنَه، وابتدأ في وعظه بحقِّ الله على عَبيده، بدأ بموعظة التوحيد ومنعه من الشرك، ورغَّبه في التَّوحيد وصدَّه عن ضِدِّه، وعظَّم أمرَ الشّرك وجعله ظلمًا عظيمًا، وعظه فقال له: "يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عظيمٌ": لأنه يعلم من أشرك بالله ظلم ظلمًا عظيمًا، ومن أشرك بالله، فقد سوّى المخلوقَ بالخالقِ، وَمن عبد لغيره فقد أشرك بالله وظلم نفسه، ومن سجد لِصَنَم أو قَبْر أو ضريح، فقد أشرك بالله وظَلَم كثيرًا. الموحّد لا يصرِف عبادتَه إلا للإله الواحد.

نَهْنَه لقمانُ ابنَه عن الإشراك بالله، ووعظه أن يَدِيْنَ بالتوحيدِ ويدعَ الشرك، وبيّن له أعظمَ حقِّ الله على العبيد، ووضّح له أكبرَ الكَبائِرِ وأَقْبَحَ الجرائِمِ.

هل يجوز أن يُنعمَ اللهُ على العبد وهو يُشرك به غيره؟! هل يصحُّ أن يَخلُقَ اللهُ الإنسانَ وهو يُسَوِّيْ به غيرَه؟! أيُعقل أن يَرزقَ الله الإنسانَ وهو نَسبَه إلى غيره؟! أليس من الحُمْق أن يَمُنّ اللهُ على الإنسان بالإحسانِ وهو يكفُرُه بالشرك والعصيانِ؟! كيف يَذِلُّ المخلوق لمخلوق مثله لا يملك لنفسه نفعًا وَلا ضرا! كيف يخضعُ الإنسان للإنسان، وهو لا يَجلِبُ له نفعًا ولا يدفعُ عنه ضرًّا! قال تعالى : {وَ إِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ

وَهُوَ يَعِظُهُ يَابُنَيَّ لَا تُشْرِك بِاللّٰهِ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيْمٌ}.

(سورة لقمان:13)

5 - برُّ الوَالِدين

لمّا بيّنَ اللهُ حقَّه الأعظمَ على لسانِ لقمانَ، ثنّى ببيانِ حقِ الوالدينِ؛ لأنَّ أعظمَ الحقِّ على الإنسان بعد حق الله سبحانه حقُّ الوالدين، قال -تعالى-: {وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْه، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَّ فِصَالُهُ فِيْ عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْلِيْ وَلِوَالِدَيْك، إِلَيَّ الْمَصِيْرُ (14) وَإِنْ جَاهَدَاك عَلَى أَنْ تُشْرِك بِيْ مَا لَيْسَ لَك بِهٖ عِلْمٌ، فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوْفًا، وَّاتَّبِعْ سَبِيْلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُوْنَ}. (سورة لقمان: 14،15)

تأمل كيف يَقرِن الله -سبحانه- حقَّهُما بحقِّه وشُكرهما بشُكره! تأمَّل كيف أوجَبَ الله على الإنسان حقَّ الوالدين وخصَّ حقَّ الأُمِّ بالذكر والتعظيمِ!

ووصَّى اللهُ الإنسانَ أن يُحسنَ إلى والديه، ووصَّى الإنسان أن يقول لهما قولًا ليّنًا. ووصَّاه أن يقول لهما كلامًا لطيفًا، وأوصاه أن يَتواضَعَ لهما ويُكرمَهما ويُجلّهما. كلَّف اللهُ العبدَ أن يبرَّهُمَا وَ كلَّفه أن يشكرَ مَعْرُوفَهُما، وأَنْ يَرُدَّ جَمِيْلَهُمَا، وألزم اللهُ الولدَ أن يجتنِبَ الإساءةَ إليهما من كلِّ وجهٍ.

خَصَّ اللهُ الأمَّ بمزيد من الحق والإحسانِ، لأنَّ حق الأم أعظمُ وأكبرُ، إنها من حين حملتْه جنينًا في بطنها تحمَّلت مشقةً على مشقةٍ وتَعَبًا في إثر تعبٍ، إنها تحمَّلَتْ ضعفًا على ضُعفٍ لأجلِ الولد، إنها حملتْك ثم وَلدتْك فأرضَعَتْك وأحسنَتْ إليك كلَّ الإحسانِ، إنها كانت تَغسلُ عنك الأذى، وتسهر لتنامَ، وتجوعُ لتشبعَ، وتعطشُ لِتَرْوَى، كانَ حِجرُها لك سريرًا، وثَدْيُها لك شُربًا نميرًا.

يجب على الإنسان برُّ الوالدين وإن كانا مُشركينِ، يجب عليه أن يُحسنَ إليهما وإن كانا كافِرَين: لأنهما سبب وُجودِه في هذه الدنيا، إن لم يكونا هما لم يكن هو.

ولكنْ حقُّ الله أعظم وأكبر من حقهما، فإن بَذَلَا جُهْدَهُما لَيحْمِلَاك على الكفر والإشراك بالله فلا تُطعهُما: إذ لا طاعةَ لِمَخلوقٍ في معصية الخالق، فصاحِبْهُما في الدُّنيا بالمعروف والإحسان، ومن أعظم الإحسان إليهما أن تُحاوِلَ لإسلامهما إن كانا مُشركين.

ومن وصَّاك بهذه الوصيَّةِ ستَرجِعُ إليه فيسأَلُك، ومن كلَّفك بهذه الحقوق ستعود إليه فيُحاسبك، إن قُمت بهَا، فَيُثِيْبك الثوابَ الجميل، وإن ضيّعتَها فيعاقبك العقاب الوبيل. اللّهُم ارزقنا برَّ الوالدين.

6 - مراقبة الله

ما زال لقمان يعظُ ابنه لفِعل الصالحات وترك المنكرات، ما فتِئَ لقمانُ يحثُّ ابنَه على مُراقبةِ الله والعمل بطاعته، وما انفَك لقمانُ يُرهِّبُهُ من عملٍ قبيح قلَّ أو كثر.

ناداه بنداء الحُبِّ واللُّطفِ والشفقةِ والأُبوَّة، فقال:

{يَا بُنَيَّ إِنَّهَآ إِنْ تَك مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِيْ صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللّٰهُ، إِنَّ اللّٰهَ لَطِيْفٌ خَبِيْرٌ}.

(سورة لقمان: 16)

"يا بُنيَّ" يا لها من كلمة عذبة! ويا لها من نَفحِ العَبيرِ وعبقِ الأَرِيجِ!.

يا بُنَيَّ راقبِ الله في الأعمال كلها. يا بنيَّ! أيةُ خصلةٍ من الإحسان والإساءة وإنْ كانت خفيفةً وخفيَّة يعلمْها الله ويحاسبْ عليها؛ لأنَّ اللّهَ لا يخفى عليه شيء، لا يخفَى عليه زِنةُ حبَّةٍ من خردلٍ، لا يخفى عليه أصغرُ الحُبوبِ التي لا يُدرَك بالحِسِّ ثِقلُها ولا يرجح الميزانَ وزنُها، لا يعزُبُ عنه شيءٌ وإن كان في أخفى مكانٍ وأحرزِه؛ لأن اللّهَ لطيفٌ لا تخفى عليه خافيةٌ، بل يصلُ علمُه إلى كلِّ خفيٍّ، حتَّى اطَّلع على البواطنِ والأسرار، وخفايا القفار والبحار؛ لإن الله خبير بكل شيء، لا يغيب عنه شيء، لاتخفى عليه أي جهةٍ من جِهات الأرض؛ فراقبِ الله، لأنك بأعينه يُحضرُ جميع أعمالك يوم القيامة ويحاسبُك عليها.

7 - مِنْ عَزمِ الأُمور

لا يزالُ الأب الحَاني لقمانُ يعظ ابنه، ويُحَرِّضُهُ على الخير، ويأمره بإقام الصلاة بفروضها وأركانها وآدابها، ويحثُّه عليها ويخصُّها تأكيدًا من بين العبادات الأخرى؛ لأنها أكبر العبادات البدنيَّة، ويأمره بشَعيرةِ الأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، ويأمره بتحمُّل أعباء الدعوة إلى الله وبمُكابَدة مشاقِّ هذا الطريق.

إن إقام الصلاة على وجهها يُحْتَاجُ فيه إلى الصبر والمجاهدة؛ فإنها لكبيرة ثقيلة إلا على الخاشعين.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أيضًا يُحتاجُ فيه إلى الصبر وتحمُّل الأذى؛ لذا نرى لقمان يُوْصِيْهِ بالصبر على ما أصابه من الشدائد والمعاداة من الناس؛ فإنه إذا لم يصبر على ما يُصيبُه من جَرَّاءِ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أوشك أن يتركها.

وبيَّنَ لقمان لابنه أنَّ إقام الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من "الأمور المعزومة" التي عزَمَها الله وأوجبها، ومن الأمور التي لا يعزِم عليها ويَهتَمّ بها ولا يُوفَّق لها إلا أهلُ العزائم والإرادة القويَّة.

والصبر على الأذى في ذات الله من الأمور الواجبة التي هي عزائم وليست برُخَص. قال تعالى حكايةً عنه: {يَا بُنَيَّ أَقِمِ

الصَّلَاةَ وَ أْمُرْ بِالْمَعْرُوْفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَآ أَصَابَك، إِنَّ ذَلِك مِنْ عَزْمِ الْأُمُوْرِ}. (سورة لقمان: 17)

8 - شَنَاعةُ التكبر

لا تزال تفوحُ شَذَا النصائح اللُّقمانيّة وهي تُعطِّر عقولنا وأرواحنا.

يعظُ لقمان ابنه وينهاه عن خِصال ذميمة محرّمة، ينهاه عن التكبر على الناس وعن الإعراض عنهم بِوَجهِه وعُنقه متكبرًا، وينهاه عن اللقاء بوجهٍ عَبوسٍ،ويأمره أن يَلقاهُم بوجهٍ ضاحك بَشوشٍ، وينهاه عن أن يُولِّيَ صَفحةَ وجهه كما يفعل المتكبرون، ويمنعه عن مِشْية المرح والاِختيالِ، ويمنعه عن الفَخرِ بالنِّعَم مع عَدَم شُكرِها، ويمنعه عن هَيئةٍ وحالةٍ يُبغضها الله ولا يُحبها، ويُجنّب ابنه عن سَخَط الله وعدم مرضاته، ويبيّن له أنّ الله لا يرضى عن أحدٍ من المُختالين والفَخورين، ويبين له أن الله لا يحبّ من يُباهي بالمال والجاه ونحو ذلك، وأنّ الله لا يُحبّ من مشى خُيَلاَءَ، واحتقرَ الناسَ.

فَحَفِظ القرآنُ الكريمُ نُصحَه، وبلّغه إلينا بأفصح اللِّسَان وأبلغِ البيان: قال تعالى: {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّك لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا، إِنَّ اللّٰهَ لَا يُحِبُّ كلَّ مُخْتَالٍ فَخُوْرٍ}.

(سورة لقمان: 18)

9 - القصد في المشي والتكلم

لا يزال لقمانُ الحكيم -رحمه الله- ينبِّه ابنه على محاسن الأخلاق والقِيَمِ، وينصح له أن يتحلّى بالآداب، ويُكملَ شَخصيَّتَه، قال الله تعالى وتقدَّس حكايةً عنه: {وَاقْصِدْ فِيْ مَشْيِك وَ اغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ، إِنَّ أَنْكرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيْرِ }. (سورة لقمان: 19)

ما أحسنَ هذه النصيحةَ! وما أعلاها وأغلاها! وأجمِل بهذه الوصية النورانية!

ينصح له أن يتوسّط في المشي، لا يدِبُّ دبيبَ المُتَمَاوِت، ولا يَثِبُ وُثُوبَ الشيطان، لمّا كان أكثرُ ما يدلُّ على تواضعِ الإنسان ووقاره ومروءته المشيُ والتكلم؛ وطريقة المشي لها دلالةٌ على ما في قلب صاحبها؛ ولما كان القصد في المشي أَسلمَ لِبَدَنِ الإنسان وأبقى لمُرُوْءتِه وأحفظ لحياته وَماله، أدَّب لقمان ابنه فيهما أحسنَ تأديب ورغَّبه أن يقصد في مَشيه مُتوسِّطًا: ليس بالبطيء المثبّط ولا السريع المُفرطِ.

ونفَّره من رفع الصوت بغير حاجة، وذكر له أنّ أقبحَ الأصوات لصوتُ الحمير؛ لأنه عالٍ مرتفع، أوَّله زفير وآخره شَهيق، ونصح له أن يخفِضَ من صوته، لأنّ رَفْعه من غير حاجة قبيح منكر، وكفى به قُبحًا أن مُثِّل بنهيق الحمير.

وبيّن له أن العزة ليست في جَهارةِ الصوت ولو كان

كذلك لكان الحمارُ أعز شيء، ولو أن المرء يُهابُ بصوته لكان الحمار أهيَبَ.

قال : "وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ": اجعل بينَ الجهر المُؤذِي والإسرار الذي لا يُسمع، ولا تتكلّف رفع الصوت، فتؤذي السامع، ويُنالَ من وقارك وعزتك، وأمره بالسكون والهُدوء في الحركات والسكنات، ونهاه عن ضدِّ ذلك كله.

هذا آخرُ ما قصّ الله تعالى من قصَّة لقمانَ العبد الصالحِ -رحمه الله- وهذا من منّة الله علينا أن قصّ علينا من حكمته ما يكون لنا به أسوةٌ حسنةٌ وقدوةٌ صالحةٌ.

وقصَّة لقمان تدلُّ على أنّ خير ما أُوتي المرءُ في الدنيا "الحكمةُ"، يقوله تعالى: {يُّؤْتِى الْحِكمَةَ مَنْ يَّشَآءُ، وَ مَنْ يُّؤْتَ الْحِكمَةَ فَقَدْ أُوْتِيَ خَيْرًا كثِيْرًا، وَمَا يَذَّكرُ إِلَّآ أُولُوا الْأَلْبَابِ}.

(سورة البقرة: 269)

فسبحان من هذا كلامه وهذا بيانه! ورحم الله لقمانَ الحكيمَ، ووفّقَنا أَن نتأسّى به ونقتديَ بهُداه.

أصحاب الكهف قدوة صالحة للشباب في الثبات على الحق، والصراع بين الإيمان والمادية، و مواجهة الفتن.

قصَّة أصحاب الكهف

1 - فتية آمنوا

قديمًا في الماضي السحيق كان هناك شُبَّانٌ مُتَقاربي السنّ، كانوا آمنوا بربهم، وثبتوا على دين الحق في وقت شيوع الكفر والباطل، كانوا أصحاب اليقين والتوكل على ربهم، كانوا غيورين على دينهم وعقيدتهم، عرفوا الحق فلم يترددوا في قبوله والتضحية في سبيله، قالوا: "ربنا الله" ثم استقاموا به وما حادوا عنه قِيْدَ أُنمُلَةٍ، نبذوا ما وجدوا عليه آباءهم من عبادة الأوثان والإشراك بالرحمن، وتركوا بِيْئةً فاسدةً تعُجُّ بالشرك والمشركين، وخرجوا من أرض قومهم إلى كهف قريبٍ من مدينتهم، ولجأوا إلى الكهف فرارًا بدينهم من الفتن، اتخذوا الأسباب وعوَّلوا على مسبِّبِ الأسباب، كانوا يحملون كل ما لِلَفْظ "الفتيةِ" من معناه.

قصَّ الله قصتهم في سورة الكهف من الآية التاسعة إلى الآية السادسة والعشرين، أحبّهم الله وجعلهم قدوة

صالحة لعباده المؤمنين، وسمَّى الله سورة كاملة باسمهم، ولنا في هذه القصّة عبرٌ وعظاتٌ، فهل نتدبرها ونتعظُ بها؟!

2 - لله في خلقه عجائب

ربما تسمع قصَّة وتحسَب أنها أعجب وأغرب القصص، ولكن سُرعَانَ ما ينقضي العجب حين تسمع أعجب وأغرب منها بكثير.

ولله في خلقه عجائب، وله في ملكوته تعاجيب، فقصة أصحاب الكهف عجيبة، ولكن ليست هي أعجب على الإطلاق، إن أصحاب الكهف ليسوا هم العجب من بين الآيات الأخرى، بل عجائب صنع الله تعالى كثيرة، منها ما هو أعجب من حال أصحاب الكهف، ومنها ما يساويها، إن خلق السماوات والأرض أعجب من هذه القصّة، إن تزيين الأرض أبدعُ من هذه القصّة، إن خلق الإنسان من عدمٍ، وتسوية أعضائه وبَنَانه أعجب بكثير من هذه القصّة، إن إماتة الأحياء بعد حياتهم وإحيائهم بعد مماتهم أعظم من إنامة أهل الكهف.

نعم! كانت قصَّة أصحاب الكهف عجيبة وخارقة للعادة، ولكن الله الذي يقدر على خلق الإنسان من طين، قادر على أن يحفظ طائفة من الناس دون طعام وشراب زمنًا معلومًا، فوظيفة المؤمن ليست الوقوف في مقام العجب

والاستغراب؛ بل وظيفته التفكر بجميع آيات الله التي دعا الله العباد إلى التفكير فيها؛ فإنه مفتاح الإيمان وطريق العلم والإيقان، قال تعالى: {أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيْمِ كَانُوْا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا}. (سورة الكهف: 9)

3 - إلى الكهف

نظروا إلى قومهم فأنكروا؛ ونظروا إلى شركهم فاستنكروا؛ وخافوا على أنفسهم إن استمروا بين قومهم؛ إما يردونهم عن دينهم وإما يعذبونهم؛ لذلك فارقوا الأهل والجيران والوطن؛ واعتزلوا فرارًا بدينهم ورأس مالهم، وأصبحوا جميعًا يحملون زادهم، مفارقين أوطانهم، مهاجرين بدينهم، يستبدلون لأجل مرضاة الله ضِيق الكهف بسعة العيش الرغيد، وما زالوا في سيرهم حتَّى انتهوا إلى الكهف.

ما أجمل الكهف إذا كان الصاحب فيها الرب الكريم!

وما أوسع الكهف إذا كان الرفيق فيها الإيمان واليقين! رحلوا إلى الكهف، ودعوا الله بدعاء خالص جامع لخيري الدنيا والآخرة: سألوا الرب الرحيم رحمة خاصة تعمّهم وتُحالفهم طيلة حياتهم وبعد مماتهم، وسألوا "رَشَدًا" ينير لهم الدربَ ويهديهم إلى السداد، سألوه أن يصلح لهم أمرهم كله ليكونوا من الراشدين المهتدين؛ فاستجاب الله لهم دعاءهم، وعَمَّهم برحمته، وحَفَّهم بلطفه وكرمه، وسهَّل لهم أمرهم.

وصلوا إلى الكهف وتناولوا ما لديهم من طعام وزاد، ثم اضطجعوا قليلًا ليستريحوا، ولكن ناموا نومًا هَادئًا، ناموا نومًا عميقًا، ما ناموا بل أنامهم الله بحفظه ورعايته، وجعل على آذانهم حجابا مانعًا من السَّماع؛ لأن الأصوات من أعظم وسائل تكدير النوم.

تعاقب ليلٌ إِثرَ نهار؛ ومضى عامٌ وراءَ عامٍ؛ وانتهى قرنٌ تلوَ قرنٍ؛ والفتية راقدون، حتَّى دخلت سنة تسع وثلاث مئة منذ نومهم، انتبهوا بعدها صحيحةً أبدانهم وأشعارهم وأبشارهم، لم يفقدوا من هيئاتهم وأحوالهم شيئًا، وبدءوا يتحدثون عن مدة لبثهم في الكهف والنوم.

إن الله -عزوجل- أيقظهم من بعد نومهم الطويل ليجعلهم آية على قدرته الكاملة وعلامةً على البعث بعد الموت.

حكى القرآن الكريم بأسلوبه المعهود قِصَّتَهُمْ فقال: {إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوْا رَبَّنَآ آتِنَا مِنْ لَّدُنْك رَحْمَةً وَّ هَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (10) فَضَرَبْنَا عَلَّى أَذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِيْنَ عَدَدًا (11) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوْا أَمَدًا}. (سورة الكهف: 10-12)

4 - مِيْزَتانِ للقصص القرآنية

هناك خصوصيتان فريدتان، وميزتان منفردتان تمتاز بهما قصص القرآن الكريم، إحداهما: صدق الحديث وبيان

الحق وسُمُوُّ الهدف؛ وثانيهما: جمال التعبير، ودقة التصوير.

لا يقص القرآن الكريم من القصص إلا ما تنفع في التذكير والموعظة، ولم يَسْرُدِ القصصَ بتمامها بجميع خصوصيّاتها، والقرآن الكريم مقياس ومعيار للغة العربية أيضًا، يُعرض عليه "الكلام العربي" لتمييز الحسن من الرديء، والصواب من الغلط.

وقصص القرآن كلّها مبنية على الصدق والحق واليقين الذي لا شك فيه، وأنباؤها كلها حق وصدق لا مرية فيها، والقرآن الكريم ميزان ومعيار لمعرفة صدق الأخبار المتداولة بين الناس عن الأنبياء والشخصيات القرآنية.

يقول عز وجل: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ، إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوْا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْنَاهُمْ هُدًى}. (سورة الكهف:13) تأمل في كلتا المزيتين في هذه الآية؛ يقص علينا منزل هذا الكتاب -سبحانه- بالحق الناصع والصدق التام الذي لا مجال فيه للتخَرُّص والكذب، "إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوْا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْنَاهُمْ هُدًى"، ست كلمات فقط، ولكن جمعت بفصيح البيان وصفَ أبطال القصّة الشُجعَان، وأجملت القصّة أيّما إجمال، ولم يذكر الله في قصتهم أسماءً ولا أماكن ولا زمنًا؛ وإنما ذكر "إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ"، لأن العبرة كل العبرة في العمل والإقدام والإنجاز، لا في الأنساب والأشخاص والأزمان.

5 - التفصيل بعد الإجمال

لقد قص الله عزوجل قصَّة أصحاب الكهف أوّلًا بالإجمال، ثم فصله بشيء من التفصيل.

وهذا أسلوب قرآني لطيف مُطَّرد، وفي كل من الإجمال والتفصيل اختار سبحانه أسلوبًا لا يمكن لبشر أن يأتي بمثله، إنه أسلوب ربّاني معجزٌ، إنه أسلوب بديعٌ أعجز البلغاء، وأفحم الفُصحاء عن الإتيان بمثله، أسلوب تحدَّى ولا يزال يتحدَّى العالم أجمع، ولكن هيهات هيهات أن يقبل أحدٌ تَحَدِّيَهُ، أسلوب يدل دلالةً واضحةً على كونه كلامَ الله - عزوجل-.

وفي الإجمال والتفصيل كليهما ركز القرآن على أهم ما في قصتهم للتأسِّي والاقتداء: ركز على قوتهم وجرأتهم، وركز على قوتهم ونشاطهم وطُمُوْحِهم، وركز على تعلقهم بالله والدعاء منه، وركز على رشدهم وهدايتهم ووعيهم، وركز على أهمية الإيمان بالله والتضحية في سبيله، وركز على دور الشباب في نهضة الأمم، وركز تركيزًا خاصًا على الفتية والشباب؛ لأنهم أكثرُ الناس جرأة إذا اقتنعوا، وأقبلُ للحق إذا صدّقُوا، وأهدى للسبيل إذا تيقنوا، وأذْكَى في النَّظَرِ في حقائق الأمور إذا تدبّروا وتفكّرُوا.

6 - إعلان التوحيد

إنما يكون الجزاء من جنس العمل، لما ثبتَ أصحاب الكهف ثبَّتهم الله وربط على قلوبهم، ولما دعوا الله جعل قلوبهم مطمئنة في تلك الحالة المزعجةِ، ولما أووا إلى الله آواهم وما ضيَّعهم.

قاموا أمام الملك وصدعوا بالحق وأعلنوا بالتوحيد، ما رَضُوْا بالشرك والأصنام التي تُعبدُ من دون الله، قاموا بين يديه وأدُّوا ما وجب عليهم من بيان الحق، قاموا بجرأة من مقامهم وهربوا من مُجْتمعهم، قاموا وقد بينوا أمامهم التوحيد الخالص. يقول -تعالى-: {وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوْبِهِمْ إِذْ قَامُوْا فَقَالُوْا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَّدْعُوَ مِنْ دُوْنِهِ اِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا}. (سورة الكهف:14)

ربنا الذي خلقنا ورزقنا؛ وربنا الذي دبَّرنا وربَّانا؛ وهو الذي خلقنا وخلق هذه المخلوقات العظيمة، وهو وحده يستحق العبادة والتعظيم لا الأوثان والأصنام التي لم تخلق ولا ترزق ولا تملك شيئا، وهو يستحق العبادة وحده، لأن العبادة لا تكون إلا للخالق المنعم، وهو المستحق للعبادة، لأنه هو الرزاق وهو مالك الدار وسُكَّانها، لا يستحق للعبادة إلّا من له غاية الإنعام والإفضال، وهو الله -تعالى- وحده لا غيره.

واستدل أصحاب الكهف على توحيد الله واستحقاقه

للعبادة بصــفاته الكاملة، وأعلنوا أنهم لا يعبدون إلا الله، ولا يخضـعون إلا له، ولا يخشـون أحدا إلا الله، أعلنوا التوحيد، وثبتوا عليه ثبوت الجبال الرواســي، وقالوا بعزم وجرأة: "لن ندعوَ من دون الله إلهًا".

جاءوا بجملة مؤكدة بتاكيد بليغ "لَنْ نَّدْعُوَاْ مِنْ دُوْنِهِ اِلَٰهًا"، لا نعبد ولا ندعو أبدًا سوى الواحد الأحد الرب العظيم: فلتيئســوا منّا ولتقْطعوا آمالكم فينا، نحن نعلم يقينًا: إن عبدْنا أحدًا من المخلوقات، أو قلنا بما تقولون وتزعمون، لقد قلنا إذا شــططًا، ومِلْنا عن الحق ميلًا عظيمًا، وَ حِدْنَا عن الصراط المستقيم، ووقعنا في الضلال المبين.

لو دعونا غير الله لقد قلنا باطلا وكذبًا وبهتانًا عظيمًا، لن نعبد معبودا غير الله: لا اشتراكًا ولا استقلالًا.

لو قلنـا غير هـذا لقلنـا قولًا جـائرًا بعيـدًا عن الحق والصواب. "هذا لا يقع منا أبدًا، هذا لا يقع منا أبدًا".

7 - البراءة من الشرك

لما أعلنوا بالتوحيد على رؤوس الأشــهاد بكل عزم وجرأة، تَبَرَّءُوْا من ضـده ونقيضـه، وتبرءوا من أصـنامهم وأوثانهم، وتبرءوا عن آلهتهم الباطلة، ونددوا بالشرك وعبادة الأصنام.

التفتوا إلى قومهم وبيّنوا جهلهم وضلالتهم، وبيّنوا أنهم ليسوا على الحق واليقين: {هَٰؤُلَآءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوْا مِنْ دُوْنِهِ اٰلِهَةً،

لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا}. (سورة الكهف:15)

هلَّا يأتون بحجة بينة على صحة ما يفعلون من عبادة تلك الآلهة المزعومة؟! هلا أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلا واضحًا صحيحًا؟! إن لم يأتوا بسلطان ودليل على دعواهم، فقد أقاموا اعتقادهم على الكذب والخطأ.

من أين يأتون بسلطان والحق أن لاإله إلا الله؟! كيف يأتون بدليل وقد أمر الله بالتوحيد الخالص ونهى عن الشرك؟! لا يستطيعون إلى ذلك سبيلا.

من ينسب إلى الله ما لم يأذن به الله، فقد افترى عليه كذبًا وزورًا، ومن يزعم أن له شريكًا في العبادة، فقد اختلق على الله أكذوبة.

ومن يصرف أي نوع من الدعاء والعبادة إلى غير الله، فقد افترى على الله وكذب عليه، وهذا أعظم الظلم؛ فلا نقول به أبدًا، وليس هناك أظلم ممن افترى على الله كذبا، وليس هناك أظلم ممن يتخذ آلهة يعبد معه، وليس هنا أظلم ممن يجعل بينه وبين خلقه وسائط يتقرب إليها.

هؤلاء أصحاب الكهف، وهذا موقفهم وثباتهم وبراءتهم من الشرك والمشركين، أفلا يجب علينا أن نجعلهم قدوة لنا في التوحيد ونبذ الشرك وبيان الحق؟! ألا ينبغي لنا أن

نجعلهم نِبْرَاسًا نسير على هديه ونستضيء بنوره؟! بلى! يجب علينا جميعًا؛ لأن القرآن الكريم ما قصَّ علينا قصتهم بهذا الاهتمام إلا لأجل هذا.

8 - كرامة الله لهم

لما فارق أصحاب الكهف المشركين، وتنحَّوْا عن العابدي الأصنام، وجعلوا الكهف مأواهم، أكرمهم الله، وجازاهم ربهم حسن جزائهم في الدنيا، ولهم في الآخرة خير وأبقى ، بسط لهم من رحمته وسهَّل لهم أمرهم، وحفظ دينهم وأبدانهم، وجعلهم من آياته، ونشر لهم من الثناء الحسن، ويسَّر لهم كل سبب، وأكرمهم أيَّمَا إكرام؛ لأنهم من أولياء الله حقًّا وصدقًا، وإن الله عزوجل يكرم أوليائه ويحفظهم ويرعاهم.

ظهرت عناية الله بهم ورعايته وكرامته لهم في أمور كثيرة، حَفِظَهم الله بنومهم من الاضطراب والخوف، وحفظهم من حرارة الشمس: إذا طلعت الشمس تميل عنهم يمينا، وإذا غربت تميل عنهم شمالًا، فلا يؤذيهم حرُّها، وآواهم من الكهف في مكان مُتَّسَعٍ؛ ليَهُبَّ عليهم الهواء والنسيم، حفظ أبدانهم من الأرض؛ لأن الأرض بطبيعتها تأكل الأجسام المتصلة بها، فكان الله يقلّبهم على جنوبهم يمينًا وشمالًا كرامة لهم، وصيانة لأجسامهم، وحفظهم من الآدميين، وألقى عليهم

المهابة ونصـــرهم بـالرعـب بحيث لا يقع نظر أحـد عليهم إلا هابهم؛ لئلا يدنو منهم أحد، ولا تمسهم يَدُ لامس.

صانهم الله؛ فلم يزعجهم الحر، ولم يؤلمهم البرد، ما جاعوا، وما عطشوا، وما ملُّوا من النوم، فهذه "كرامة" ولا شك.

هكذا بَقُوْا بحفظ الله وكَلَئِه، حتَّى بعثهم الله وقد زال الشرك عن هذه القرية؛ فسَلِمُوا منه، قال -عز اسمه-: {وَ إِذِا عْتَزَلْتُمُوْهُمْ وَمَا يَعْبُدُوْنَ إِلَّا اللّٰهَ فَأْوُوْا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُـــرْلَكمْ رَبُّكمْ مِّنْ رَّحْمَتِـهِ وَ يُهَيِّئْ لَكمْ مِّنْ أَمْرِكمْ مِّرْفَقًـا(16) وَ تَرَى الشَّـمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَّزَاوَرُ عَنْ كهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِيْنِ وَ إِذَا غَرَبَتْ تَّقْرِضُــهُمْ ذَاتَ الشِّــمَالِ وَ هُمْ فِيْ فَجْوَةٍ مِّنْهُ، ذَلِك مِنْ آيَاتِ اللّٰهِ، مَنْ يَّهْدِ اللّٰهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ، وَمَنْ يُّضْـلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِـــدًا (17) وَ تَحْسَــبُهُمْ أَيْقَاظًا وَّهُمْ رُقُوْدٌ وَّ نُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِيْنِ وَذَاتَ الشِّـمَالِ، وَ كَلْبُهُمْ بَاسِـطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِـيْدِ، لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَّ لَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا}.

(سورة الكهف: 16-18)

9 - باسط ذراعيه بالوصيد

كان جالسًـــا يُمْسِـــك عليهم باب الكهف، وكان يمدُّ ذراعيه على عَتَبَة الباب، وكان جالسًـــا بفناء الكهف كأنه يَحْرُسُـــهُم، لمن هذا الذكر؟ ولماذا بهذا الاهتمام يا تُرَى؟! هذا ذكر كلب أصحاب الكهف؛ وبهذا الاهتمام لأنه صَاحَبَ أولِيَاء

اللَّه، ولازَمَ مجاورتَهُم، صاحبهم فجاء ذكره في القرآن،وصار له شأن، ذكر في القرآن بل ذُكرت جِلْسَته. وهذه فائدة صحبة الأخيار، كان كلبهم باسطا ذراعيه بفناء الكهف، وكان ماكثًا معهم طول مكثهم في الكهف.

وجلوس الكلب على هذه الهيئةأيضا من أسباب حفظ الله لهؤلاء الأخيار؛ لأن من يراه على هذه الهيئة يحسبه يقظًا حارسا فلا يدنو من الكهف.

صَحِبَ كَلْبٌ أهلَ الإيمان والتوحيد فنال من بركتهم ما نال، وهكذا من يصاحب أهل الصلاح والتقوى، فإنه ينال من بركتهم وخيرهم؛ فمجالسة الصالحين غنيمة، وإن اختلف الجنس، ومجاورتهم لا تخلو عن فائدة وإن كان المجاوِر ليس بإنسان، إنما من يحمل المسك ينفعك وإن لم يعطك ولم تَبْتَعْ منه شيئًا؛ ومن ينفخ الكيرَ إما يحرق ثيابَك، وإما أن تجد منه ريحًا مُنْتِنة؛ فجَالِسِ الصالحين، وصاحبِ المتقين، ولازِمِ الأخيار الطيبين. أعِيْدُوا قِراءة قوله -تعالى-: "وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيْدِ". وَ قِفُوْا وقفة متأمل.

10 - كم لبثتم؟

كما أنام الله قرونًا كذلك بعثهم؛ ليعلموا إكرام الله بهم، وليعلموا كيف حفظهم الله حتَّى لم تنلهم أيدي أعدائهم بإهانة، وليتحاوروا فيما بينهم عن مدة مكثهم في الكهف،

وهكذا كان. فلما استيقظوا وقع التساؤل بينهم، واختلفوا في مدَّة اللبث، كل أحد أدلى برأيه عن مدة المكث والنوم؛ ولكن عرفوا قريبًا أنهم لم يعلموا مدة لبثهم بالقطع واليقين، فردُّوا علمه إلى الله تعالى، رَدوا العلم إلى المحيط علمُه بكل شيء جملة وتفصيلًا. يقول -تعالى في علياءه- حكاية عنهم: {وَ كَذَلِك بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَآئَلُوْا بَيْنَهُمْ، قَالَ قَآئِلٌ مِّنهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ، قَالُوْا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، قَالُوْا رَبُّكم أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ، فَابْعَثُوْٓا أَحَدَكمْ بِوَرِقِكمْ هَـذِهٖٓ إِلَى الْمَدِيْنَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكمْ أَحَدًا}.

(سورة الكهف:19)

ردوا علمه إلى الله، وقالوا: والله أعلم بمقدار لبثكم؛ فأعرضوا عن التحاور في مدة اللبث، واتركوا ما أنتم فيه من التساؤل والبحث، وخذوا في شيء آخر مما يهمُّكم. وهذا ديدن العقلاء والفطناء، وهذا دأب الأخيار والصلحاء: إذا لم يعلموا حقيقة الشيء تركوا الخوض فيه والتساؤل عنه، إذا لم يعرف أحدهم جوابًا صوابًا عما سئل، رد علمه إلى الله، وقال بكل بساطة وصراحة "لا أدري"، "والله أعلم". وقوله "لا أدري" لا يَضَعُ مِن قَدره بل يرفعه.

أما الفُضُولِيون فهم يُكْثِرون من القيل والقال، والتساؤل عما ليس لهم به علم؛ فلا تكن منهم، ألا ترى كيف

ترك أصحاب الكهف التساؤل عن مدة لبثهم في الكهف! واشتغلوا بما يهمهم من أمر الجوع وتحصيل الطعام، فما أجمل أن يدع الشباب المراء والجدال فيما ليس عندهم به من علم! وما أحسن أن يردوا العلم إلى الله تعالى عَما لا يعلمون عنه شيئًا! وما أحسن أن لا يشتغلوا بالأشياء التي لا يعلمون عنها أو التي لا فائدة من معرفتها! وما أحسن أن يَشغلوا أنفسهم بما ينفعهم من أمر دينهم ودنياهم!

11 - أيها أزكى طعامًا؟

تركوا الخوض في ما لا يهمهم، وأخذوا فيما يهُمُّهم، تشاوروا فيما بينهم، ثم أرسلوا أحدهم بالدراهم التي كانت معهم إلى المدينة التي خرجوا منها، كانت معهم دراهم تزودوا بها؛ لأنهم شباب مؤمنون حقًّا، يعرفون حقيقة التوكل، أرسلوه ليجلِب لهم طعامًا يأكلونه، وأمره أن يّتَخَير من الطعام حلاله وأطيبه وألذه، وأمروه أن يكون لطيفا رفيقًا في الطلب، وفي خروجه ودخوله إلى المدينة، وأمروه أن يَتَلَطَّف في ذَهابه وشِرائه وإيابه، وأمروه أن يدقِّق النظر في الأمور كلها، وأن يختفي ويُخْفِي حالة إخوانه، كانوا يقِظين فطِنين حذِرين. وكذلك يكون كل مؤمن صادق، وبينوا علة هذا الأمر والنهي فقالوا: {إِنَّهُمْ إِنْ يَّظْهَرُوْا عَلَيْكم يَرْجُمُوْكم أَوْ يُعِيْدُوْكم فِيْ مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوْٓا إِذًا أَبَدًا}. (سورة الكهف: 20)

إن يطلعوا عليكم ويعلموا بمكانكم، يقتلوكم بالرجم أو يردوكم إلى ملتهم، وإن وافقتموهم على العود إلى ملتهم، فلا فلاح لكم أبدًا في الدنيا والآخرة، وإن ينجحوا فيه -لا سمح الله بذلك- فلن تفلحوا أبدًا.

أَمروه كل ذلك وهم يظنون أن الزمن لَم يَمْضِ بهم، وأنهم خرجوا يوم أمس من مدينتهم، فخرج صاحبهم إلى المدينة يلتمس الطعام وفق أمرهم، فلما انتهى إلي المدينة، فإذا كل شيء قد تغير وتنكر، هذه الطرق ليست التي كانوا يسلكونها بالأمس! وهذه المباني ليست التي يسكنونها من قبل! وهذه الوجوه غير تلكم الوجوه التي يعرفونها جيدًا! فالتفت يمينًا وشمالًا وتحير كثيرًا، حتَّى توجَّه الناس إليه، قال أحدهم: أغريب أنت في هذا البلد؟ من أين جئت؟ عمَّا تبحث؟ أي شيء تلتمس؟ قال: لست غريبًا ولكني أبحث عن طعام أشتريه، فلا أرى مكان بيعه، فأخذ رجل بيده حتَّى انتهى به إلى صاحب طعام، فأخرج صاحب الكهف دراهم، ونَقَدَهَا التاجر، فوجد أن نقودًا ضُرِبت من نحو أكثر من ثلاث مئة عام، فحسب أنه عَثَرَ على كنز، وإن من وراء دراهمه دراهم كثيرة، وأموالًا عظيمة، فكان ما أراده الله -عز وجل-، انتشر الخبر في المدينة انتشارَ النار في الهشيم؛ فاطلع عليهم الناس والملك.

12 - البعث حق

إذا أراد الله شـيئًا، هيَّأ له أسـبابه، أراد الله أمرا فيه صـلاح للناس وزيادة أجر لأصـحاب الكهف، فجعلهم سـببا لذلك. في الزمن الذي أيقظ الله أصـحاب الكهف من نومهم الطويل كان أهل مدينتهم مختلفين في البعث، فكانوا يتنازعون بينهم في هذه القضـية، فمنهم من يصـدق وعد الله والبعث والجزاء، ومنهم من ينكر لذلك، فجعلهم الله حجة واضـحة ودلالة قاطعة على البعث والنُّشـور، وجعل قصـتهم زيادةَ بصـيرةٍ ويقين للمؤمنين وحجة على الجاحدين، أَطْلَعَ الله أهل بلدهم عليهم: ليعلموا أن البعث وإحياء الموتى حق، وأعثرهم عليهم: ليعلموا أن وعد الله حق لا ريب فيه، أعثرهم عليهم: لأنهم يتناقلون الحديث عنهم ويريدون العثور عليهم، فَاتَّضَـحَ لهم أن الله قادر على أن يبعث الناس أجسـامًا وأرواحًا، كما بعث أصحاب الكهف.

وقضية البعث بعد الموت من القضايا الكبرى التي من صـميم عقائد الإسـلام: لذلك تجد هذه القضـية حاضـرة في القرآن أتم الحضور، بيَّنَها الله -عزوجل- في هذه القصّة مرارا، وكرَّرَهَا في مواضع أخرى من القرآن، وضرب لها الأمثال، وأقام عليها البراهين.

ولما اطلع الناس على أصحاب الكهف وشاهدوا آية البعث بالعِيَان، وتَمَّ ما أراد الله، توفَّاهم الله، وقبض أرواحهم الطاهرة، ثم بعد ذلك تنازع الناس في أمرهم، قال بعضهم: ابنوا على باب الكهف بُنيانًا ليكون عَلَمًا عليهم، وقال الفريق الآخر: وهم الأكثرية الغالبة لَنَتَّخذن على باب الكهف مسجدًا نصلي ونعبد الله فيه، ونذكر أحوالهم ونتعظ بهم، فكان ما كان، وعلمه عند الله.

وقد كان اتخاذ المساجد على قبور الصالحين من سنة النصارى، وهذا مَنْهِيٌّ عنه في شرعنا المطهَّر، لأنه ذريعة إلى الشرك، وإلى عبادة صاحب القبر، يقول الحق -جَلَّ مجدُه-: {وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوْٓا أَنَّ وَعْدَ اللّٰهِ حَقٌّ وَّأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيْهَا، إِذْ يَتَنَازَعُوْنَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوْا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا، رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ، قَالَ الَّذِيْنَ غَلَبُوْا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَّسْجِدًا}. (سورة الكهف:21)

13 - رَبِّي أعلم بعدتهم

لما شاعت قصَّة أصحاب الكهف حين نزل بها القرآن، صارت حديثَ النوادي، وبدأ كثير من الناس يتَخَرَّصُون في بيان عددهم، فقال فريق منهم: هم ثلاثة رابعهم كلبهم، وقال فريق آخر: هم خمسة سادسهم كلبهم، وكلام كلا الفريقين قول بالظن من غير دليل، وكلام كليهما رجما بالغيب من غير

علمٍ ولا يقين، وكلام كليهما كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه فإنه لا يكاد يصيب، وإن أصاب فَبِلَا قَصد.

حكى الله -عزوجل- أوَّلًا هذين القولين وأبطلهما، ثم حكى القول الثالث وسكت عليه ولم يُبْطِله، وهو قولهم سبعة وثامنهم كلبهم، ما أبطل الله هذا القول، ولعل هذا هو الصواب، ثم أرشدنا الله عزوجل إلى الأحسن في مثل هذا المقام، فقال: "قُلْ رَّبِّيْٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ".

إذ لا احتياج إلى الخوض في مثل هذا بلا علم، وليس المهم في قصتهم معرفة العدد، وإنما المهم الاعتبار بها والانتفاع بما دلت عليه هذه القصّة من إثبات قدرة الله على البعث والإعادة، لذلك أرشد الله نبِيَّه -صلى الله عليه وسلم- والمسلمين إلى أن لا يجادلوا في شأن أصحاب الكهف، ولا يمارُوا فيهم إلا مِراء ظاهرًا بمقدار العلم، وإذا سئلوا عنهم فليقصُّوا على من يسألهم ما أوحى الله في القرآن فَحَسْبُ، ولا يسألوا أحدًا منهم في شأنهم لأن مَبْنَى كلامهم على التخمين والظن، وليس لهم بذلك من علم، بل كلامهم فيهم من تلقاء أنفسهم رجما بالغيب، ولا يستفتوا أحدًا منهم عن قصتهم وقصص الماضين، ولا يستفتوا الخائضين الخرَّاصِين؛ لأنهم يجعلون الحدث الصغير أو الخبر الكاذب نبأ الساعة، ولا يَسْتَفْتُوا القَصَّاصين؛ فإنهم يجعلون قصَّة صغيرة أعجوبة الدهر.

و فَذْلَكة القول أنه لما لم يَتَرَتَّب كَبير فائدة على معرفة عددهم، أبهم القرآن على عموم الناس الإعلام بذلك، وأدَّبهم أدبا رفيعًا، بأين يردوا العلم إلى علّام الغُيوب، وأرشــدهم إلى مَغْزَى القصـــص القرآنية قال -جلّ وعلا-: {سَــيَقُوْلُوْنَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ، وَ يَقُوْلُوْنَ خَمْسَــةٌ سَــادِسُــهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا، بِـالْغَيْـبِ، وَ يَقُوْلُوْنَ سَــبْعَـةٌ وَّثَـامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ، قُـل رَّبِّيْٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ، فَلَا تُمَارِ فِيْهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَاهِرًا، وَّلَا تَسْتَفْتِ فِيْهِمْ مِّنْهُمْ أَحَدًا}. (سورة الكهف:22)

14 - إلاّ أن يشاء الله

ذكر العلماء ـرحمهم اللهـ في كتب التفســير أن الكفار ســألوا رســولَ الله -صـلى الله عليه وسـلم- عن الروح والفتية وذي القرنين، فقال لهم ـعليه الســلامـ: غدا أخبركم بجواب أســئلتكم، ولم يَسْــتَثْنِ في ذلك، فـاحتبس الوحي عنه أيامًا، حتَّى شــق ذلك عليه، وأرجف الكفار، ثم نزلت عليه هذه الســورة، وعـاتب الله فيها نبيَّه ـعليه الســلامـ عِتَابًا رَمْزِيًا رَفِيْقًا، وأدَّبه أدبًا رفيعًا، وعلمه في هذا الباب عِلمًا عَظيمًا. يقول تعالى: {وَلَا تَقُوْلَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّيْ فَاعِلٌ ذَلِك غَدًا (23) إِلَّآ أَنْ يَّشَـآءَ اللّٰهُ، وَاذْكُرْ رَّبَّك إِذَا نَسِـيْتَ وَ قُلْ عَسَّى أَنْ يَّهْدِيَنِ رَبِّيْ لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا}. (سورة الكهف:23، 24)

أمره أن لا يقول في أمر من الأمور "إني أفعل غدا كذا وكذا" إلا أن يُّعَلِّق ذلك بمشيئة الله، أمره إذا عزم على أمر أن يقرنه بمشيئة الله، ونهاه عن أن يَعِدَ بفعل دون التقييد بمشيئة الله، وهذا خطاب عام لجميع المكلفين أيضًا؛ فعلى كل مكلف إذا أراد فعلا في المستقبل فليقل "سأفعل غدًا كَذا وكذا إن شاء الله"، وعلى كل مسلم إذا باشر الأسباب التي شرعها الله فليقل "سأفعل هذا إن شاء الله"، وإذ عزم لإنجاز خطة أو تمنى لإتمام مشروع فليربط خُطَطَه وأمنياته بمشيئة الله؛ لأن الحياة والأعمال كلها مردُّها إلى مشيئة الله.

وكل عمل يسعى المسلم لتحقيقه فليعلقه بمشيئته -سبحانه-؛ لأنه لا يدري هل يفعله أم لا؟، وهل تكون ذلك الفعل، أم لا؟ وبذكر مشيئة الله يتيسَّر الأمر، وتتسهَّل الخُطَّة، وتحصل البرَكة، ويُحَالف العبدَ عونُ الله ونصره.

15 - أَحْسِنْ بهذه الجملة!

لم يمنع القرآن من الإرادات والعزائم؛ بل يَحُثُّ عليها ويشجِّع أهلها، ولكن يجعل الإنسان في أُطُرِه وحدوده؛ كيلا يرى نفسه عاجزًا ولا مستقلًا، ولايكون مُفَرِّطًا ولا مُفْرِطًا، يعزم العزائم ولكن يعلقها بمشيئة الله. فما أحسَن هذه الجملة "إِنِّيْ فَاعِلٌ ذَلِك غَدًا"! ما أحسنه من قول وقائل، وفعل وفاعل إذا كان معلقًا بمشيئة الله -عز وجل-، ويكون في

ميادين الخير والبر والإحسان! ويكون في حقل الدعوة إلى الله والإصلاح بين الناس ونفعهم مااستطاع. "إِنِّيْ فَاعِلٌ ذَلِك غَدًا" ما أجملها من مقولة حين علّقها صاحبها بمشيئة الله وجعلها برنامج عمل ومشروع خيرا؛ فرددوا هذه الجملة، وكونوا ذوي عزائم وإرادات قويّة وعلّقوا عزائمكم بمشيئة الله، تفُوزُوا وتُفلحوا في الدنيا والآخرة.

16 - وإذا نسيت

ولمّا كان العبد بَشَرًا يسهو ويعتري عليه النسيان، فإن نسي في وقت، أمره اللهُ أن يَسْتَثْني ذلك إذا ذكر، وإذا فرط منه نسيان لذلك ثم تنبّه فليتداركها بالذكر -سواءً طال الفصل أو قَصُر-، إذا نسي وترك أن يقول: "إن شاء الله" فليقل إذا ذكره؛ لِيحصل له المطلوب ويجتنب المحذور. وإذا علّق العبد خُططه وأعماله بالله وعلى مشيئته، كان موفقًا مسددًا رشيدًا، وحَرِيّ بالعبد أن يكون ذا عزم وهمة وعمل جادّ، ولا يرضى عن أن يكون على هَامِش الحياة بَطّالًا؛ ولكن لابد أن يقرن عزائمه وأعماله بمشيئة الله ولا يرى نفسه مستقلًا.

17 - ثلاث مئة سنة

لما نهى الله -عز وجل- نبيه -صلى الله عليه وسلم- عن استفتاء أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف لعدم علمهم بذلك، أخبره بمدة لُبثهم؛ لأن الله عالم الغيب والشهادة،

والعالم بكل شـيء، وإن علم ذلك عنده وحده؛ لأنه من غيب السـماوات والأرض، وغيبُهما مختصٌّ به دون سـواه؛ لأن الله تعالى كان موجودًا يسـمع ويرى وقت خروجهم ودخولهم إلى الكهف، ولبثهم فيها ثم اسـتيقاظهم، فما أخبر به عنهم على لسان رسوله –صلى الله عليه وسلم-، فهو حق ويقين لا يُشَك فيه، وما لم يُطلع الرسـولَ -صـلى الله عليه وسـلم- عليه فلا يعلم أحدٌ من الخلق، قال تعالى: {وَ لَبِثُوْا فِيْ كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِيْنَ وَازْدَادُوْا تِسْعًا}. (سورة الكهف:25)

أخبر الله -عزوجـل- أن الفتيـة لبثوا في كهفهم رقودًا من سـاعـة دخولهم إلى أن أعثر الله عليهم قومهم، ثلاث مئة وتسع سنين، فمدة لبثهم بالحساب الشمسي ثلاث مئة سنة، وبالحسـاب القمري ثلاث مئة وتسع سنين، والتفاوت بينهما في كل مئة سـنة ثلاث سـنين، لأن السـنة الميلادية تزيد عن الهجرية بأحد عشر يومًا تقريبًا في كل عام.

وذكر الله مدة لبثهم بالتقويمين معًا إيجازًا وإعجازًا، وهكذا قد بيّن مدة لبثهم حتما وقطعًا، ولم يَدَعِ المجالَ للشـك فيه، فإن نازعك أحدٌ فيه بعد ذلك بالظن والتخمين فقل له: "والله أعلم بما لبثوا"، وبيّن الله -عزوجل- بعلمه الكامل الشامل الواسع من قصتهم ما يهمنا، ففيه لنا كفاية وغُنْيَة؛ وما أبهمه عنها بحكمته البالغة، فليس لنا أن نتبع فيها التخْمِيْنات والإسرائيليات.

18 - كمال علم الله -تعالى-

قصَّ الله -عز وجل- قصَّة أصحاب الكهف بالحق واليقين، وهذا يدل على كمال علمه، وسِعة إدراكه، وإحاطته بكل شيء؛ لذا بين في نهاية القصّة بعض صفاته الكاملة الدالة على كمال علمه وقدرته، يقول -جل جلاله-: {قُلِ اللّٰهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا، لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ، مَا لَهُمْ مِّنْ دُوْنِهِ مِنْ وَّلِيٍّ، وَّلَا يُشْرِك فِيْ حُكْمِهِ أَحَدًا}.

(سورة الكهف:26)

هو العالم بكل شيء، وهو أعلم من الذين اختلفوا في مقدار لبثهم في الكهف، وهو وحده يعلم ما غاب في السماوات والأرض، وما خفي من أحوال أهلهما، وإن جميع الخلائق لا يعلمون إلّا ما علّمهم الله من علمه، ما غاب عنه شيء من شؤون السموات والأرض، يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف سيكون.

سبحانه! ما أوسع علمه! أحاط كمالُ عِلمه وبصره بالمصنوعات والمبصرات، والخفيات والجليات، يستوي في كمال علمه الغائبُ والحاضر، والخفي والظاهر، واللطيف والكثيف. كمال علمه وسمعه وبصره عَجَبٌ عُجاب، يسمع ويرى دبيب النملة السَّوْدَاء على الصَّخْرَة الصَّمَّاء في الليلة الظلماء.

فما أبصره لكل موجود! وما أسمعه لكل مسموع! فلا أحد أبصر من الله، ولا أسمع منه -تبارك وتعالى-، وهو منفرد بالولاية التامة الكاملة للخلق أجمع، وهو الولي يتولى تدبير جميع خلقه، وهو الذي تولَّى أصحاب الكهف بلطفه وكرمه، ولم يَكِلْهُمْ إلى أحد من خلقه، يُدبِّر الأكوان وحده، وليس له وزير ولا نصير، لا يشاركه في حكمه وقضائه من الناس أحد، فليس له شريك ولا مشير. سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم.

سبحانه متفرد بجلاله

وكماله متفرد بعُلاه

هذه القصة ترسم نموذجين واضحين للنفس المغترة بزينة الدنيا، والنفس المعتزة بالإيمان والقيم ، وكلاهما نموذج إنساني متكرر في كل عصر و مصر .

قصَّة صاحب الجنتين

1 - واضرب لهم مثلا

تعالوا نقرأ قصَّة أخرى من قصص القرآن الكريم، هذه القصّة في سورة الكهف بعد قصَّة أصحاب الكهف بقليل، قص الله تعالى علينا هذه القصّة بصورة مثالية، هذه القصّة قصَّة رجلين مؤمن وكافر، وموحّد ومشرك، قصَّة مليئة بالعبر والعظات؛ قصَّة صراع بين الماديَّة والإيمان؛ قصَّة تكشف لنا عن عاقبة وَخِيْمة للكبر والغرور؛ قصَّة تبين لنا مآل الكفر والعصيان.

ولما كانت هذه القصّة في صورة مثالية، ينبغي لنا أن نعرّج قليلًا على أمثال القرآن؛ فقد جاء في القرآن ثلاثة وأربعون مثلا، هذه الأمثال تسترعي انتباهنا للتدبر والاتعاظ، وهذه الأمثال تَلْفِت أنظارنا إلى التفكر والاعتبار، وهذه الأمثال باب عظيم من معارف القرآن، وهذه الأمثال تكشف عن الحقائق، وتعرض الغائب في مَعْرِض الحاضر، وهذه الأمثال

تَظهر شيئًا مَعقولًا في صورة شيء محسوس لسهولة فهم الناس، وهذه الأمثال ضربها الله للناس لعلهم يتذكرون ويتفكرون ويعتبرون، وهذه الأمثال تجمع المعاني الرائعة في عبارات مُوْجَزَة، ولما كانت الأمثال أوقع في النفس، وأبلغ في الوعظ، وأقوى في الزجر، وأقوم في الإقناع، وبالأمثال تصل المعاني الخفية إلى الأذهان بكل سهولة ويسر، أكثر الله -عزوجل- من ضرب الأمثال في القرآن الكريم للتذكرة والعبرة. فللّه ما أعظم هذه الأمثال! وما أعظم ما تَحْوِيْه من العِظات والعبر!

وهذا المثل الذي نحن بِصَدَدِه ضربه الله سبحانه لمن يتعزز بالدنيا، ويَسْتَنْكف عن مُجَالسة الفقراء، ويؤثر الدنيا على الآخرة، ويحب الفانية ويذر الباقية.

2 - قصَّة صاحب الجنتين

هذه القصّة لرجلين: أحدهما كافر غنيٌ؛ وثانيهما مؤمن فقيرٌ. كان الغني مغترًا بماله، والفقير معتزًا بدينه، كان الغني مغرورًا ببستانيه وزرعه وماله، وكان الفقير متمسكا بدينه وعقيدته ونصحه، ذكر الله جنتي كافر وزرعه ومالَه في صورة مثالية بليغة ومؤثرة جدًا، قال -تعالى-: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَّ حَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَّ جَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (32) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَ لَمْ تَظْلِمْ مِّنْهُ شَيْئًا،

وَّ فَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (33) وَّ كَانَ لَهُ ثَمَرٌ، فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهٗۤ أَنَا أَكْثَرُ مِنْك مَالًا وَّ أَعَزُّ نَفَرًا}. (سورة الكهف:32-34)

كانت له جنتان من كُرُوْم مُتنوّعة، وكانت أشجار النخل مُطِيفةً بالجنتين من جميع جوانبها، وكان بين الجنتين زرع ليكون كل واحد منهما جامعا للأقوات والفواكه، وكلتا الجنتين على الشكل الحَسَن، والترتيب الأنيق، وكانت كل واحدة من الجنتين تؤدّي ثمارها وأجناءها بدون نقصان وخسران. وقد أجْرَى الله وسط الْجنتين نهرًا؛ ليسقيهما دائمًا من غير انقطاع؛ ولِيدوم الانتفاع بهما؛ لأن الماء هو سر الحياة وأصل المعاش وسبيل الرزق. فياله من جمال المنظر، وروعة المشهد!.

وكان لصاحب الجنتين مال كثير غير الجنتين أيضًا، وكان عنده من النقدين والأنعام الشيءُ الكثير، فَحُقَّ له أن يشكر الله على هذه النعم ويؤمن به، ولكن أدّى به هذا الغِنَى وهذه الثروة إلى الزهو والكبرياء والاغترار بالمال شأنَ كل غني مغرور.

3 - إظهار الكبر والغَطْرَسَة

إذا كان في قلب الرجل كبر، يظهر على لسانه، ويترشّح من فِعَالِه، وقديمًا قيل: "الإِنَاءُ يَنْضَحُ بِمَا فِيْهِ". قال صاحب الجنتين الكافر لصاحبه المؤمن أثناء حواره وكلامه: "أَنَا أَكْثَرُ مِنْك مَالًا وَّ أَعَزُّ نَفَرًا"، أنا أكثر منك ثروة، وخدمي وحشمي

وولدي وعشيرتي أكثر وأقوى منك، أنا فخور بهؤلاء، هم يدافعون عني ويَنصرونني.

أخذ ذلك الكافر الغِطْرِيْس يومًا بيد صاحبه المؤمن، وأدخله بُستانه يطوف به فيها ويُرِيْه عجائبها، وهو ظالم لنفسه بكفره وعجبه وتمرّده وإنكاره بالآخرة. فقال لِفَرْط غَفلته وطول أَمله: ما أظن أن تفنَى هذه الجنة التي تشاهدها، وما أظن أن يوم القيامة لآتٍ كما تقول يا صاحبي! كان يجب عليه أن يشكر تلك النعم ويتفكر في دار الآخرة، ولكن لشدة حرصه على المال وشدة اغتراره بالدنيا أنكر لفناء جنته، وأنكر للبعث والنشور.

ثم أقسم بكل جَسَارة ووَقَاحة وقال: إن رُدِدْتُّ إلى ربي فرضًا وتقديرًا -كما تزعم يا صاحبي- لأجدن في الآخرة عند ربي خيرًا وأحسن من هذا الحظ في الدنيا؛ لأنه لولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا، ولولا استحقاقي وَاسْتِئْهَالِيْ، ما أغناني الله في الدنيا.

ما علِم هذا الجاهل المغرور أن بسط الرزق والمال في الدنيا ليس بدليل على كرامة الله، بل ربما يكون استدراجًا وإمهالًا. وقلة المال وضيق العيش ليس بِلازِمٍ أن يكون من سخط الله، بل هذا كله بمشيئته وحكمته. يقول تعالى حكاية عن كبره وغطرسته: {وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ، قَالَ مَآ

أَظُنُّ أَنْ تَبِيْدَ هَذِهِ أَبَدًا (35) وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً وَّلَئِنْ رُّدِدْتُّ إِلَى رَبِّيْ لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا}. (سورة الكهف:35، 36)

4 - حِوار المؤمن المتواضع

وكان ذاك المؤمن حسن اليقين بالله وباليوم الآخر، فلم يغترّ بمال صاحبه الكافر ولا بحواره ومنطقه، بل حاوره ونصح له وذكَّره بمبدأه ومعاده، فقال له بأسلوب دَعَوِيْ مُقْنِع: {أَكَفَرْتَ بِالَّذِيْ خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا، لَكِنَّا هُوَ اللّٰهُ رَبِّيْ وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيْٓ أَحَدًا}. (سورة الكهف: 37، 38)

كيف يليق بك أن تكفر بالله الذي خلقك من تراب ثم من مَنِيّ ثم سَوَّاك رجلًا؟! عجيب منك كل العجب! أنَسيت نعمة الله عليك! وهو الذي أوجدك من العدم ووَاصَلَ عليك النعم، ونقلك من حال إلى حال، حتى عَدَّلك إنسانًا تامًّا كامل الأعضاء والجوارح، ثم تكفر به، وتجحد نعمته وتزعم أنه لا يبعثك ولا يحاسبك على هذه النعم المتوافرة!؟ وإن بعثك فإنه يعطيك خيرًا من جنتك؟! ما هذا الهَذَيان؟! أَيَقِظٌ أنتَ أمْ في الحُلم؟! هل يكون الأمر كما تزعم؟! كلا، هذا لا يكون أبدًا.

فمن أوجدك من العدم، فسوف يبعثك بعد الموت والبِلَى؛ لأن القادر على الابتداء قادر على الإعادة، فإن تنكر وتجحد بعد ذلك كله، فأنت وشأنك. أما أنا فأعترف كل الاعتراف بوجود الله، فهو ربي وهو خالقي؛ أنا لا أقول بما

قلتَ، بل أُقِرُّ لله بالوحدانية والربوبية؛ وأنا لا أشـرك مع الله غيره، فهو المعبود وحده لا شريك له.

وهكذا نَدَّدَ المؤمن بكفر صاحبه وغروره، وحذّره العاقبةَ الوخيمةَ للكفر والعصيان، وأخبره أن نعمة الله عليه بالإيمان والإسلام -ولو مع قلة ماله وولده- لهي النعمة الحقيقية، وأن جميع النعم بدون الإيمان والشكر لعقوبة معجّلة ومصيبة عظيمة.

5 - لا قوة إلا بالله

يحسب ذلك الكافر المغرور أنه يغُرُّ صاحبَه المؤمن ويُزَعْزِع إيمانَه بماله وجاهه، ولكن كان إيمان هذا المؤمن أثبت من أن يَّتزَلْزَل، فعاتبه هذا المؤمن المتيقن ووبّخه على زهوه وعجبه، وأرشده إلى التواضع واليقين. وبيّن له أن النعم جميعًا من الله، وحَضَّه على القول بـ"ما شاء الله لا قوة إلا بالله"، وحَرَّضه على الاعتراف بالنعمة والشكر للمنعم، ورَدّ الأمور إلى نِصَابِها، فقال: {وَ لَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَك قُلْتَ مَا شَآءَ اللّٰهُ، لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللّٰهِ، إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْك مَالًا وَّ وَلَدًا، فَعَسَى رَبِّيٓ أَنْ يُّؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِك وَ يُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيْدًا زَلَقًا}. (سورة الكهف:39-40)

هلّا قلتَ ما شاء الله لا قوة إلا بالله إذ أَعجبتك جنتك حين دخلتها! هَلَّا حمِدْتَ الله على ما أنعم به عليك وأعطاك

من المال والولد مالم يعطه غيرك! لماذا ما فوّضتَ الأمر إلى ربك؟ واعترفت بالعبودية والعجْز؟

كان يجب عليك أن تُضِيْفَ النعمة إلى مُوليها ومُسْديها، كان يجب عليك أن تقول: هذا فضل الله عليّ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، هذه جنتي باقية على نَضَارَتِها بمشيئة الله، لا قوة لي في بقائها ونضارتها وإثمارها.

فَلما علَّمَه الإيمانَ وَ تفويضَ الأمور إلى الله سبحانه، أجابه على افتخاره بالمال والنفر "إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْك مَالًا وَ وَلَدًا"، إن تنظر إليّ بأني أفقر منك في المال وأقلّ منك أولادًا وعشيرةً فالأمر بيد الله؛ هو المعطي والمانع وله الحكمة البالغة في كل ذاك، أنا أرجو الله أن يرزقني خيرا من جنتك في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما، وإني أتوقع انقلاب الحال؛ لأن الأيام دُوَلٌ، والمال غادٍ ورائح.

أما زهوك وإعجابك فَسَيَغْرَقُ بِك وبِمالك، إنك تظن أن جنتك لا تفنى ولا تبيد، فسوف ترى: كيف يُصَبُّ عليها سوطُ عَذاب؟! وكيف تصير كَثرتها إلى قلة أو نَفَاد؟ عَسى الله أن يرسل عليها مطرًا شديدًا يُقْلِع زرعها وأشجارها، أو يرسل عليها صاعقة تُحْرِقُهَا وتُخَرِّبُهَا وتُصْبِحُ أرضًا بيضاء لا نبات فيها، وترابًا أملس لا يثبت فيه قدم، وينزلق لِمَلَاسَتِهَا، أو يصبح ماءهَا غائرًا في الأرض فلن تستطيع رَدَّ الماء الغائر بأي حيلَة.

إذا أصبح الماء ذاهبًا إلى الأرض فلا تعمل المعاوِل في طلبه فضلًا عن وجوده ورَدِّه، وحينئذ لا تجد نَفَرك وحَشَمك وخَدَمك؛ فارجع من غيّك وارْعَوِ من زهْوك وكِبْرك، وارجع إلى رُشدِك، وأَبصر في أمرِك، النعمة موجودة بعدُ؛ فاتخِذ أسباب المحافظة عليها.

6 - إذا فَات الأوان

النعمة إذا وُجِدَتْ جُهِلَتْ، وإذا فُقِدَتْ عُرِفَتْ. كان صاحبه المؤمن يحذره العاقبة الوخيمة، ولكن لم يُلْقِ له بالًا. أسكرتْه نشوة المال، فلم توقظه كلماته الناصحة، حتَّى حدث ما حذَّره صاحبه المؤمن، حدث ما لم يكن يحسبه ولا يتوقعه، أرسل الله على جنتيه "صاعقة" فأحرقتهما، أحرقت العنب والنخل والزرع، وقضت على الثمر والشجر، ولم يَبْقَ من الجنتين شيء. الحديقة ساقطة على دعائِمها التي تُمَدَّدُ عليها أغصان العِنب، وجُدران مبانِيها ساقطة على سقوفِها، وكُرومها المعروشة سقطت على عُروشها، فبادت وكان يظنها لا تبيد.

وكل هذا جَرى في ساعة من ساعات الليل، وفي الصباح ذهب المغرور إلى جنتيه كَعادته، فإذا بهما فانيتان بائِدتان، فندِم كل النَّدَامة، ونَدِم حيث لا ينفع الندم، ويضرب إحدى يديه على الأخرى ندمًا وتحسُّرًا، وأصبح نادمًا متحسَّرًا على ضَياع نفقته التي أنفقها عليهمَا؛ حيث اضمحلَّت وتلاشَت فلم يبق لها عِوَضٌ، وندِم أيضًا على شركه وقال: يا

ليتني عرفت نعم الله وقدرته فلم أشــرك به أحدًا! وتمنى لو استجاب لصاحبه المؤمن!.

الآن زالت سـكرته وعاد إلى رشـده؛ ولكن فات الأوان، وذهب الوقت، يقول تعالى: {وَ أُحِيْطَ بِثَمَرِهِ فَـأَصْــبَحَ يُقَلِّبُ كفَّيْهِ عَلَى مَآ أَنْفَقَ فِيْهَا وَ هِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوْشِــهَا وَيَقُوْلُ يَالَيْتَنِيْ لَمْ أُشْرِك بِرَبِّيْٓ أَحَدًا}. (سورة الكهف:42)

7 - المخْذول مَن خَذَلَه الله

كان صــاحب الجنتين يفتخر بماله وأعوانه وأنصــاره ويقول لصــاحبه المؤمن: أنا أكثر منك مالا وأعز نفرًا، فجاء الجزاء من جنس العمل، لما أرســل الله على جنتيه حُسْــبانًا وصــاعقة ما وجد هذا المخذول جماعة ونفرًا يمنعونه من العقاب النازل، ولم تنصره عشيرته وولده كما كان يَعْتَزُّ بِهِم، ولَم يمتنع بقوته وثروته عن انتقام الله.

فَعُلِمَ من هنا: "من خذله الله فليس له ولي ولا ناصــر".

وإذا نَزل البلاء فلا تستطيع فئة في الدنيا مَنعَه أو رَفعَه، كَثيرًا مَّا يعتمد الإنســان على قومه وعشــيرته، ولكن إذا وقع العذاب يغيب كل أحد، ولم تبق لهم عين ولا أثر، وكيف يكون الضِعاف الصِــغَار أنصــارًا لأحد على قضــاء الله وقَدَرِه؟! لو اجتمع أهل السماء والأرض على نَصْرِ مَنْ خذَلَه الله لم يقدروا عليه.

ويتكرر مشـــهد ذل الطغاة والمتكبرين وخذلانهم عند حلول العذاب، فلا غالب إلا الله، ولا ناصر إلا الله. أين يذهب من أطغاه ماله حين يَحِلُّ الْعقاب؟! وأين يفرّ من أطغاه منصبه ونفره حين يرسل الله عليه صاعقة من العذاب؟! فلا مفرّ إلا إلى الله، ولا ملجأ منه إلا إليه، يقول -تبارك وتعالى-: {وَلَمْ تَكنْ لَّهُ فِئَةٌ يَّنْصُرُوْنَهُ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا}.

(سورة الكهف:43)

8 - هناك الوَلَايَة لله الحق

تجد كثيرًا من الناس في الدنيا في كل زمان ومكان مَن غرّه ملكه، وخدعه سلطانه، ويزعم نفسه إلهًا يُعبَد من دون الله، وما ذلك إلا أن آتاه الله شـيئًا من القوة والمال وما إلى ذلك، ويتخذهم الجَهَلَةُ الْحَمْقَى آلهة يَتَوَلَّوْنَه ويبغون رِضَاهم ولو على حســاب دينهم وعقيدتهم، ولكن في مثل هذا المقام يظهر جَلِيًّا ألَّا وَلَايَة لأحد ســوى الله الحق -جلَّ جلاله-، وفي مثل هذه الحال تَتَجَلى وَلاية الله وسلطانه واقتداره وحكمه.

إذا انجَلى الغبار، وحُقَّ الجزاء ووجد العاملُون أجرهم تتَّضــح وَلاية الله، ويرى كل أحد عِيَانًا أنه هو -وحده- الولي الحق الذي ينصــر أوليائه، وتكون لهم عاقبة حميدة، ويُذِل أعداءه وينتقم منهم وتكون لهم عاقبة غير محمودة؛ ويعلم كل أحد أن لا قوة إلا قوته، ولا نصــر إلا نصــره، ولا يســتحق

للعبادة أحد سـواه، ولا ثواب أفضـل من ثوابه، ولا عاقبة خير من العاقبة التي يقدرها الله لهم.

الملـك والســلطان والولايـة في كل وقـت لله الواحـد القهار. ولكن في مثل هذه الأحوال تزول الدَّعَاوَى والتوهُّمَات، حتَّى الكافر المغرور عند ما يرى العذاب يعترف بوحدانية الله ســبحانه، ويعترف المُلْحِدُون والجَبَابرَة بولاية الله، ويتولونه ويؤمنون به، ويتبَرَّؤون مما كانوا يتولونهم ويعبدونهم، وفي مثل هذه الحالة تَقْصُـرُ الولايةُ على الله وحده، لقد صـدق الله العظيم حيث قال: {هُنَالِك الْوَلَايَةُ لِلّٰهِ الْحَقِّ، هَوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَّخَيْرٌ عُقْبًا}. (سورة الكهف:44)

قصة موسى مع الخصر - عليهما السلام - دلالة واضحة على شرف العلم و علو منزلته و فيها جِمَاع آداب هذا الطريق.

قصَّة موسى مع الخضر -عليهما السلام-

1 - موسى في القرآن

موسى عليه السلام من أولي العزم من الرسل، كَلَّمَه الله تكليمًا، وقَرَّبَه نَجيًا وكان عند الله وجيهًا، حياته كلها كِفَاح وجهاد ودعوة. لم تُذكر تفاصيل حياة نبي من الأنبياء في القرآن كموسى عليه السلام، ذكر الله كثيرًا من الأحداث التي وقعت معه وفي حياته، بسط الله قصته وطوَّلها أكثر من القصص الأخرى. حياته -عليه السلام- تُشْبِهُ في كثير من المواقف والأحوال حياةَ نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم-.

وقصة موسى هي أعظم قصص الأنبياء التي ذُكِرت في القرآن. وقد قرأتم قدرًا لا يستهان به من حياته في "قصص النبيين" للعلامة الشيخ الندوي -رحمه الله-، خاصة قصته مع فرعون المُسْتَبِدّ الطاغية.

وهنا نقرأ قصة ممتعة من قصصه، ذكرت في سورة الكهف فَحَسْبُ، هي قصة رِحْلَةٍ شَاقةٍ في طلب العلم، قصة كلها عجب عجاب -ولا غَرْوَ فصنائع الله كلها عجيبة- وهي

قصــته مع العبد الصــالح، الذي آتاه الله العلم والرحمة الخاصة، وقرّر موسى -عليه السلام- أن يسافر إليه، ويلقاه، ويقتبس من علمه.

2 - سبب هذا القرار

وقف موسى -عليه السلام- خطيبا في بني إسرائيل، وذَكَّرَهم بأيام الله بعبارات تؤثّر في القلوب، وتُدمِعُ العيون، فبكى القوم وفاضــت عيونهم، ورقَّت قلوبهم. ولما انتهى من خطبته تلك قام إليه رجلٌ وقال: أيْ رسولَ الله! هل في الأرض أحدٌ أعلم منك؟ قال: لا.

أليس هو كبيرُ أنبياء بني إســرائيل، وقاهرُ فرعون؟! أليس هو صاحب اليد والعصا؟! أليس الله قد شَرَّفَه بالتوراة، وكلّمه جهرةً وعِيَانًا؟! فأي شَرَفٍ أسمى من هذا الشرف؟! وأي مقام أرفع من هذا المقام؟!

ولكن الله أوحى إليـه أن العلم أعظم من أن يحويـه رجل، أو ينفرد به رسـول، وأن في الأرض مَن خَصَّـه الله بعلم أوْفر من علمه، ونصـيب من إلهامٍ أكثر من نصـيبه؛ قال: يارب! أين مكانه؟ لعلي ألقاه، فأصيب قَبَسًا من علمه. قال: تلقاه بمجمع البحرين. قال: اجعل عَلَما يدلني عليه، وآية تُرْشِـدني إليه. قال آية ذلك أن تأخذ حُوتا في مِكتل، فحيثُما فقدتَ الحوت وجدتَ الرجل.

فاستَعَدَّ موسى للسفر، وأخذ عُدَّتَه وزاده، واصطحب فتاه وانطلق ذاهبًا، يقول -تبارك وتعالى-: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا}.

(سورة الكهف:60)

3 - رحلة شاقة في طلب العلم

إذا كان الشيء نفيسًا وغاليًا يُبْذَلُ في تحصيله النفسُ والنفيسُ، وما يُغْتَبَطُ به تُحْتَمَلُ المشقة فيه، كان موسى - عليه السلام- أعظَمَ أنبياء بني إسرائيل، وكان في المحلّ الأعلى من السيادة، ومع ذلك لما علم أن هناك أعلم منه لم يمنعه شيء من الوصول إليه، وركوب البر والبحر لأجل طلب العلم، ولقاء أهله وأمجاده. وقد احتمل في ذلك المشقات والنَّصَب الشديد، وكفى بهذا فضلًا وشرفًا للعلم؛ فإن نبي الله وكلِيمه سافر ورحل لتحصيله حتى لقي التعب والنصب من سفره.

أبدى موسى عزمه بهذه الرحلة الشاقة البعيدة لتلميذه وخادمه، فقال: أنا عازم للسفر إلى مجمع البحرين، ولا اشتغل بشيء آخر، حتى أبلغ مجمع البحرين (مركز العلم وأهله آنذاك)، ولا أزال أمشي ولا أكف عن السير حتى أبلغ مقصدي. فكان موسى -عليه السلام- مصممًا على أن يبلغ مجمع البحرين حتى ولو كلّفه ذلك الأزمنةَ الطويلةَ، ويستغرق في ذلك حُقُبًا، وَمدةً مديدةً من الدهر، وكان هذا العزم منه

جازمًا، فواصل السير وظَلَّ مُجِدًّا في السفر، حتى بلغ ذلك المكان؛ فموسى -عليه السلام- قدوة صالحة في باب العلم، والرحلة في طلبه، وتحمّل المشقّات لأجله.

وهكذا كان أسلافنا الكرام، كانوا يقطعون آلاف الأميال في سبيل تحصيل العلم، وأكثر ما يكون ذلك مشيًا على الأقدام مع شدة الجوعِ والعطش والحر والبرد. وسُئِلَ أحدُهُم: "بِمَ أدركت هذا العِلم؟" قال: "بالسفر والسَّهَر، والبكور في السحور". فهل نَعِي هذه الحقيقة؟ وهل نعزم مثل هذا العزم؟

4 - بلوغ المكان وطُرُوْء النسيان

ما زال موسى -عليه السلام- وفتاه سَائِرَيْنِ، حتى وصلا إلى المكان الذي يلتقي فيه البحران وصارا واحدًا. وهذا هو المكان الذي وُعِدَ فيه موسى بلقاء الخضر. وكانا قد تَزَوَّدَا حُوْتًا في زَنْبِيْل قبل الخروج في السفر، وهذا الحوت قد جعله الله تعالى علامة لموسى -عليه السلام- على وجود الخضر حيث يفقد الحوت، فَلما انتهيا إلى ساحل البحر، أخذت موسى -عليه السلام- سِنَةٌ فنام، ووضع فتاه المِكتل، الذي فيه حوتٌ على الأرض، فأحياه الله فتحرك واضطرب في المكتل ثم انسرب في البحر.

أحب فتاه أن يُخبره عن هذا العجب حين يستيقظ، فاستَيقظ موسى -عليه السلام-، ونادى فتاه: هيَّا نُوَاصِل السَّيرَ والسفر، وأنسى الشيطان الفتى أن يذكر لموسى -عليه السلام- ما كان من أمر الحوت، فنسي فتاه، ونسي موسى -عليه السلام- أن يسأله.

وهذا النسيان ليس من شأنه أن يقع في زمن قريب مع شدة الاهتمام بالأمر المنسيّ، وكان هذا المَنْسِيُّ أعجوبةً شأنها أن لا تُنسى؛ لأنه علامة لها للبلوغ إلى المقصود.

ولكن ساء الشيطانَ أن يلتقي هذان العبدان الصالحان، وساءه أن يلتقي المتعلم والعالم، والتلميذ والشيخ، حتى يكون لهذا اللقاء أثر في بَثِّ العلوم الصالحة، ونشر الخير، وتبديد الشر. فحاول الشيطان أن يصرف موسى -عليه السلام- عن لقاء الخضر، فأنسى فتاه أن يخبره عن أمر الحوت.

ولمّا تَجاوزَ موسى -عليه السلام- وفتاه مَجمع البحرين حيث نسيَا الحوتَ فيه، وسارا بقية اليوم والليلة، وفي اليوم التالي في ضَحْوَة الغد أحَسَّ موسى -عليه السلام- بالجوع، فقال لفتاه: آتنا غداءنا. ولما همّ فتاه أن يأخذ الغَدَاء من المكتل تَذَكَّر ما كان من أمر الحوت وذَهابه في الماء، فقال مجيبًا لموسى -عليه السلام-: أتذكُر حين لجأنا إلى الصخرة

التي استرحنا عندها؟! فإني نسيت أن أخبرك بما حدث: إنه قد اضطرب الحوت وعاد حيًّا، ووقع في البحر، واتخذ مَسلكه في البحر عجبًا، وانجاب له البحر فكان كَالنَّفَق.

وحينئذٍ لاحَتْ لموسى شارةُ الظَّفَر، ووَجد ريحَ الرجل، وقال: ذلك ما كنا نبغيه، وننشُده، هَيّا بنا نَعُدْ إلى هذا المكان فإننا سنُصيب الغايةَ. فَرجعا يَقْفُوَان الأثر، ويتعَرَّفَان الطريق. حكى القرآن الكريم كل هذا بأعذب لسانٍ، وأحسن بيانٍ، وأجمل أسلوبٍ، فقال: {فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (61) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَآئَنَا، لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَاهَذَا نَصَبًا (62) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّيْ نَسِيْتُ الْحُوْتَ، وَمَآ أَنْسَانِيْهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ، وَاتَّخَذَ سَبِيْلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (63) قَالَ ذَلِك مَا كُنَّا نَبْغِ، فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا}.(سورة الكهف: 61-64)

5 - لقاء موسى الخضر -عليه السلام-

لما رجع موسى وفتاه على طريقهما يقُصَّان آثار مَشيهما وجدا في مجمع البحرين عند الصخرة عبدًا صالحًا من عباد الله. كان ذلك العبد الصالح الخضر، وكان مُسْتَلْقِيًا على الأرض مُسَجًّى بثوبه، فسلم عليه موسى -عليه السلام-، فكشف عن وجهه، فقال أنَّى بأرضك السلام؟! مَن أنت؟! قال أنا موسى، قال موسى نبيُّ بني إسرائيل؟ قال نعم، فعلم

موسى -عليه السلام- أنه ضَالّته التي كان ينشدها، وبُغيته التي جَهِدَ في سبيلها، فتَلطّف في القول، وتجمّل ما وهبه الله من أدب الحديث وفضل التواضع، يقول -تعالى-: {فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وعَلَّمْنَاهُ مِّنْ لَّدُنَّا عِلْمًا}. (سورة الكهف:65)

وكان الخضر من عباد الله الخُلَّص، أكرمه الله بكرامتين عظيمتين: الرحمة، والعلم، وهبه الله رحمة خاصّة، بها زاد علمُه وحَسُنَ عَمله، وظهرت الكراماتُ على يديه، وأعطاه من العلم ما لم يُعْطَ موسى -عليه السلام-، منحه علمًا لَدُنِّيًّا. وهو علم يَهبُه الله لمن يَمُنُّ عليه من عباده بدون اكتساب واجتهاد، وإن كان موسى -عليه السلام- أعلم من الخضر بأكثر الأشياء، لأنه من أولي العزم من المرسلين الذين فضَّلهم على سائر الخلق بالعلم والعمل.

وكان موسى -عليه السلام- أفضَلَ من الخضر، ولكن ذهب إلى الخضر لتعلّم علمٍ خاصٍ كان عند الخضر وليس عنده، ولا عجبَ فيه؛ فقد يأخذ الفاضل عن الفاضل، وقد يأخذ الفاضل عن المفضول؛ إذا اختصّ أحدهما بعلم لا يعلمه الآخر، فكان علمُ موسى -عليه السلام- علمَ الأحكام الشرعية والقضاء بظاهرها، وكان علم الخضر علمَ بعض الغيب ومعرفة البواطن، وعلم كل واحد منهما مختلف عن

الآخر؛ وإنما رام موسى أن يتَعلَّم شيئًا من العلم النافع الذي خص الله به الخضـر؛ لأن الازدياد من العلوم النافعة خيرٌ وفضـيلةٌ، وقد قال الله -تعالى- لنبيه محمد -صلى الله عليه وسلم-: {وَ قُلْ رَّبِّ زِدْنِيْ عِلْمًا}. (سورة طه: 114)

6 - من أدب الطلب

لما عرف موسى أن الذي يتحدث إليه هو العبد الصالح، الذي أرشده الله إليه، تعامل معه بمُلَاطَفَةٍ، وحسن أدبٍ. وقال: هل تأذن -أيها العبد الصالح- لرجل جاهد في سبيل لقائك، ولَقِيَ العَناء حتى أصاب موضعك، أن يتبعك لِتُعَلِّمَه مما علمك الله من العلم؟. حكى القرآن الكريم عن أدبه الجمّ معه، فقال: {قَالَ لَهُ مُوْسَى هَلْ أَتَّبِعُك عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا}. (سورة الكهف:66)

جعل موسى -عليه السلام- نفسه تَبَعًا للخضر، وتواضع معه، فَعُلِمَ منه أنه لابد للمتعلم أن يجعل نفسه تبعًا للعالم وإن تفاوتت المراتبُ، وبدون هذا الاتباع لا يتأتّى العلم.

استأذن موسى -عليه السلام- للخضر وهذا مبالغة عظمية في التواضع والأدب، كان موسى -عليه السلام- أفضلَ من الخضر بلا شك، ومع ذلك سأله أن يُعَلِّمَه العلم الذي لم يتمهّر فيه، فينبغي للعالم الفاضل أن لا يستحيي من التعلّم والتمهّر في العلم الذي يكون فيه قاصرًا، فضلًا عن طالب العلم.

قال موسى -عليه السلام-: "مِمَّا عُلِّمْتَ" وصيغة "مِنْ" للتبعيض، فطلب منه تعليمَ بَعضِ ما علَّمَه الله، وهذا أيضًا مُشعِرٌ بالتواضع والأدب الكبير، كأنه يقول له لا أطلب منك أن تجعلني مُسَاوِيًا لك في العلم، بل أطلب منك أن تعطيني جزءً من أجزاء علمك.

وطلب موسى -عليه السلام- منه أن يعلمه علمًا يرشده ويهديه، ويعرف به الحق والصواب؛ فعُلم أن كل علم يكون فيه رشدٌ وهدايةٌ إلى طريق الخير والصلاح، وتحذير ووقايةٌ عن طريق الشرّ والفساد، أو يكون ذلك العلم وسيلةً إلى الصراط السوي؛ فإنه من العلم النافع الذي ينبغي أن يُطْلَبَ وَ يُتَعَلَّم، وماسوى ذلك فإما أن يكون ضارًّا أو ليس فيه فائدة، وكلاهما يجب أن يُحْتَرَز منهما ويُتَجَنَّب عن تحصيلهما.

وهكذا حوى هذا الطلب الصادق من هذا النبي الكريم دروسًا عظيمة، وفوائد جمة وآدابًا كثيرة في باب التعلم والاستفادة، فهل نَتَأَدَّب بأدبه؟! وهل نقتبِس من سَنَا هَدْيِهِ؟!

7 - رَدُّ الخضر على سؤال موسى -عليهما السلام-

لقد أعطى الله الخضر من الإلهام والكرامة، مَا بِه يحصل الاطلاع على بَواطِنِ كثيرٍ من الأشياء التي خَفِيَت، حتى على موسى -عليه السلام-. فقال الخضر لموسى-عليه السلام-: لا أمتنع من ذلك، ليس عليّ أن أُعلِّمك وأن أقبل طلبك،

ولكن أنك لا تُطِيْق أن تصبر على ما تراه من علمي؛ فإنك سترى أمورًا عجيبةً، وسترى أمورًا لا تُوافِق علمك، فكيف تصبر على فعلٍ ظاهره منكر؟! وأنت صاحب شرعٍ لا يَسُوغ لَك السكوتُ على منكر والإقرار عليه، وإني على علم من الله عَلَّمَنِيْهِ لا تعلمه أنت، وأنت على علم من الله عَلَّمَكَهُ لا أعلَمه أنا، وكل منا مكلَّف بأمور من الله دون صاحبه؛ فلا تقدِر على صُحبتي.

كان هذا العبد الصالح يعلم الْبَوْنَ الشاسع بين علمه وعلم موسى -عليه السلام-، فبيّن له هذه الحقيقة، وقال: {قَالَ إِنَّك لَنْ تَسْتَطِيْعَ مَعِيَ صَبْرًا (67) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا}. (سورة الكهف:67، 68)

ولكن موسى -عليه السلام- كان حريصًا على العلم، وجاء بنفس توَّاقَة إلى المعرفة، فأظهر عزمه، وعلّق صبره على مشيئة الله، وقال للخضر: {قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِنْ شَآءَ اللّٰهُ صَابِرًا وَّلَآ أَعْصِيْ لَك أَمْرًا}. (سورة الكهف:69)

سَتَجِدُنِي -إن شاء الله- صابرًا معك وملتزمًا طاعتك، ولن ترى مِني ما يخالف مَنْهَجَك، قال الخضر: إن أبيت إلا أن تُصَاحِبَنِي، فخذ عليك عهدًا وشرطًا، وهو أن تتحلى بالصبر، وأن تلتزم الصمت، وأن لا تستعجل الأمور قبل أن يأتي أوانُ بيانِها، وأن لا تُثِرْ أمامي أي اعتراضٍ، حتى يَنْقَضِي الشرطُ،

وتنتهي الرحلة، وسوف أُوْقِفُكَ على حقيقة الأمر بعد تمام الشرط، يقول -تعالى- حكاية عنه: {قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا}. (سورة الكهف:70)

فَقَبِلَ موسى -عليه السلام- شرطه رعايةً لأدب المتعلم مع العالم، وعاهده أن لا يعصي أمره وحكمه.

فهنا قضية مهمة تستحق التسجيل والاهتمام، وهو ينبغي للمعلّم أن يبين المنهج الذي يتَّبعه للمتعلم، كيف يكون إلقاؤ درسه؟ وماذا يكون منهج تعليمه؟ ومتى يكون المجَالُ لِلنِّقَاش والحِوَار والسؤال؟! كي يكون المتعلم على أدب جَمّ وتقدير كبيرٍ له، وكي يستفيد منه أكثر فأكثر، ولكي تَتِمَّ المسيرة العلمية بِسهولة ويسر وبعوائد كثيرة، وفوائد جمةٍ -بتوفيق الله وعونه-.

8 - خرق السفينة

قبل موسى -عليه السلام- الشرط، وقيّدَ نفسه بذالك العهد، فانطلقا بهدف في السير، وبينما هما يسيران على الشَّطِّ، إذ أَتَتْ سفينة فعرف أصحابُها الخضرَ وحملوهما بلا نَول وأجرة، وكل منهما يترقب ماسيكون عن الآخر، كان موسى -عليه السلام- يترقب ما الذي يتعلّمه من العبد الصالح، والعبد الصالح يترقب ما الذي سيكون من موسى عليه السلام، أيستطيع أن يصبر؟

سارت السفينة برُكَّابِها، وتَوَغَّلَتْ في البحر، فإذا الخضر بادر بقلْعِ لَوحٍ من ألواح السفينة، كأن ركوبه فيها لأجل خرقها.

هنا جاء وقت الاختبار لموسى -عليه السلام-، أيصبر على أمر فظيع ظاهره ظلم صُراح، وهو الرسول الكريم الذي بعث لهداية الناس، ورَدّ عادية الظلم عنهم، فنسي موسى -عليه السلام- عهده وشرطه، وصاحَ: أَتَعْمِد إلى قوم أكرمونا وأحسنوا إلينا فتخرق سفينهم لتغرق أهلَها؟! ولما كان مقام الأنبياء في تغيير المنكر مقام شدة وصراحة قال: "لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا" لقد جئت أمرًا مستنكرًا، فيه داهية عظيمة، لِم فعلت هذا؟! ما كان لك أن تفعله!.

فالتفت الخضر إليه وذَكَّرَه بما جرى بينهما عند اللقاء "أَلَمْ أَقُلْ إِنَّك لَنْ تَسْتَطِيْعَ مَعِيَ صَبْرًا". فاعتذر موسى -عليه السلام- إلى الخضر وقال: إني نسيت، والحدث الذي رأيته أَنْسَانِي كُلَّ شيء، فلا تؤاخذني بالنِّسْيَان، ولا تحرمني شرف الصحبة وفضل المرافقة، وسأكون بعد الآن كما شرطتُ، واعف عني هذه الزلة، ولا تزد المشقة على نفسي، وإلا فإنك ستحملني ما يؤرّق نفسي، ويزيدني ألما على ألم، فقبِل العبد الصالح هذا العذر، والعذر عند كرام الناس مقبول، يقول الحق -جلّ مَجدُه- حكاية عن هذه الرِّحلة الأولى: {فَانْطَلَقَا، حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِيْنَةِ خَرَقَهَا، قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا، لَقَدْ

جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا(71) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّك لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (72) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا}.
(سورة الكهف: 71-73)

9 - قتل الغلام

قبِل الخضر عذر موسى -عليه السلام-، وسارا مرة أخرى، وليس هذا مُجَرَّدُ السَّير، بل إنه السير المُغَيَّا، والسير بهدف ومهمّة، لذا قال الله عنه "فَانْطَلَقَا" ولم يقل "مَشَيَا" و"سَعَيَا"، وكلمة "انطلاق" لها مَذَاقٌ خَاص، ودلالة خاصة، يعرفُها أهل الذوق باللغة العربية، يقول الحق -جلّ مَجْده-: {فَانْطَلَقَا، حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ، قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ، لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكرًا (74) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّك إِنَّك لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا}. (سورة الكهف:74-75).

وكان السير في هذه المرة في البر لا في البحر، وَ بينما هُما كذلك في انطلاقهما لقيَا غلامًا لم يبلغ الحُلمَ يلعب مع الصِّبيان، فقتله الخضر. كان موسى -عليه السلام- يرى غلامًا يُقْتل بلا ذنب اقترفه، ولا خطيئة فعلها -وكان قد أنكر على فرعونَ قتلَه أبناءَ الإسرائيليين- ففزع موسى -عليه السلام- من هذا القتل، وكبُرَ عنده ذَلك الإثم، فتحلّل من عهده وأطلق نفسه من ميثاقه، وقال ما هذا المنكر الذي تأتيه؟! والإثم الذي ترتكبه؟! "أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ، لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكرًا".

لقد كان إنكاره في هذه المرة أشـدُّ من سـابقتها، ولئن قال من قبل "إمرًا" فإنه يقول هنا "نُكرًا" لقد ارتكبت شـيئًا منكْرًا فظيعًا، تنكره العقول والنفوس فضلًا عن الشرع.

فالتفت إليه الخضـر، ولم يَزِد على أن ذكَّره بعهده، وما كان من شـرطه قائلًا: "أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّك لَنْ تَسْتَطِيْعَ مَعِيَ صَبْرًا".

ولكن كلمات العبد الصـالح يظهر منه عتابٌ أكثر ممّا كان منه من قبل، ولنستمع إليه هذه المرة يقول "أَلَمْ أَقُلْ لَكَ" وهذه "لَكَ" لم نجدها من قبل، وهنا اسـتحيى موسـى -عليه السـلام-، وأدرك أنه قد أثقل على هذا العبد الصـالح، وكان خليقًا به أن يَّتَدَرَّعَ بالصبر ويُمْسِك لِسَانَه عن الجدل.

وهنا لم يعتذر موسى -عليه السلام- بالنسيان لأنه لم يكن نسى، ولكن لم يَمْلِك نفسَه حين رأى منكرًا عظيمًا، وهنا ظهر من موسـى -عليه السـلام- الحكمة والسـموّ، كيف لا؟ وهو الكليم، وفكّر أن لابد أن يجعل حدًا لهذا الذي يدور بينه وبين صـاحبه، وقد وعده من قبلُ أنه سـيجده صـابرًا ولا يعصيه أمرًا، إذًا لِتكن هذه المرة الأخيرة، وأي شيء يكون منه فيما بعد فَلْتَكنِ النهاية. {قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ، بَعْدَهَا فَلَا تُصاحِبْنِي، قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَّدُنِّيْ عُذْرًا}. (سورة الكهف:76)

قال موسى -عليه السلام- للخضر إن سألتك عن شيء بعد هذه المرة ففارقني، ولا تجعلني صاحبًا لك، لأنك قد وصلت من جهتي إلى العذر، وقد خالفتُك إلى الآن مرتين، وليس لي أن أُكَلِّفَك فوق ذلك.

10 - إقامة الجدار

وانطلقا على هذا الشرط، حتى أدركهما الجوع، وبلغ منهما النصَبُ كلَّ مَبْلَغ، فصادفا قريةً في طريقهما، وطلبا من أهلِها طعامًا، فامتنع أهل القرية من إطعامهما، وتأدية حق الضيافة إليهما، ورَدُّوهما ردًا غير جميلٍ، فلم يجدا عندهم مأوى ولا طعامًا، وخرجَا جائعَيْنِ سَاخطَيْن.

وقبل أن يُجاوِزا القرية وجدَا جدارًا تَدَاعَى للسقوط، وأصبح على وَشَك الانهيار، فأقامه الخضر، وسوَّاه حتى استقام، فقال موسى -عليه السلام-: عَجبًا لك؟! أتجازي هؤلاء القومَ اللُّؤَمَاءَ بهذا الاحسان؟! لو شئت لاتخذت على عملك هذا أجرًا وجزاءً نَسُدُّ به جَوْعَتَنَا، ونحن بحاجة ماسَّةٍ إلى ما نُنْفقه على أنفسنا!.

وهذا اللَّوم من موسى -عليه السلام- يتضمّن سؤالًا عن سبب ترك المُشَارطة على إقامة الجدار عند الحاجة إلى الأجر، وليس هو لَوْمًا على مجرد إقامته مَجَّانًا، لأن ذلك من فعل الخير، وهو غير مَلُومٍ.

فحينئذٍ لم يَفِ مُوسى -عليه السلام- بما قال، وبلغ الخضر عذرًا من قِبَل موسى -عليه السلام-، فَكان أمر الله قدرًا مقدورًا، وكان موسى -عليه السلام- أنهى بنفسه الصحبة، وأعلن العبد الصالح بالفراق وقطع الصحبة، وفي هذا يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: "يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى، لَوَدِدْتُ أنَّهُ كانَ صَبَرَ حتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِن أَخْبَارِهِمَا". (الصحيح لمسلم)

ولم يفارقْه الخضر إلا بعد أن أوّلَ له ما استنكَره أو اعترض عليه، وبيّن له كل ما لم يستطع عليه صبرًا، حكى -جلّ في عُلاه- عن هذه الحادثة الثالثة والأخيرة، وما جرى فيما بينهما فيها بأسلوب معجزٍ، فقال: {فَانْطَلَقَا، حَتّى إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةِۨ اسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُّضَيِّفُوْهُمَا فَوَجَدَا فِيْهَا جِدَارًا يُّرِيْدُ أَنْ يَّنْقَضَّ فَأَقَامَه، قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِيْ وَبَيْنِكَ، سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيْلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَّلَيْهِ صَبْرًا}. (سورة الكهف: 77، 78)

11 - تأويل الأحداث

قبل الفِراق والوَداع، بَدأ الخضر يفسّر له الأحداث التي وقعت، ليُدرك موسى أنها كلها لم تكن إلا لمصالح عُلْيا، وأن وراءها يَدَالله الخفية المدبّرة، وكَشف الخضر الغطاء عن الأفعال التي فعلها وكان ظاهرها منكرًا فظيعًا ليعلم موسى -عليه السلام- باطنها وحقيقتها.

قال الخضر أما السفينة التي خرقتها فكانت لمساكين يَرْتَزِقُوْنَ من جُهْدِهم، ويَكدَحُوْنَ دهرَهم لتحصيل عيشهم، يُكرُوْنَهَا من الذين يركبون البحر ويأخذون الأجرة، ولم يكن لهم مالٌ غير تلك السفينة، وكان أمامهم مَلِك ظالم وغاصب يأخذ كل سفينة صالحة لا عيب فيها، فجعلتها ذات عيب بالخرق، وهكذا تَسْلَمُ تلك السفينة من ذلك الظالم، وما تصرفت فيها بإتلاف بعض منها إلا لسلامة الباقي، وهو تصرُّفٌ ظاهره إفساد وفي الواقع إصلاح، لأنه من ارتكاب أخف الضررين.

أما الغلام الذي قتلته، فكان أبواه مؤمنين، وقتل ذلك الغلام لقطع فساد خاص؛ لأنه إن بقي يكُن طَاغيًا كَافرًا، ويَحمل أبويه على الطغيان والكفر، وأراد الله اللطفَ بأبويه بحفظ إيمانهما وسلامة العالم من فساد هذا الطاغِي، فَقَتَلْتُهُ حفظًا لدينهما، وإن كان في قتله إساءة إلى أبويه فالله يُعَوِّضُهُما ولدًا خيرًا منه دينًا وصلاحًا وبَرًّا بهمَا، فأيّ فائدةٍ أعظم من هذه الفائدة الجليلة؟!

وبقي أمر الجدار الذي أصلحته فكان لغلامين يتيمين في المدينة، وكان تحت الجدار مال مدفون لهما، وكان أبو هذين الصغيرين صالحًا، فأراد ربك أن يبلغا سِنّ الرشد ويَكْبَرَا ويخرجا مالهما المدفون من تحته، ولو سقط الجدار الآن لَانْكشَفَ مالهما وتعرّض للضَّياع.

وهذه الأحداث كلها رحمة من الله -تعالى-، وما حدثت إلا لمصالح عليا ومقاصد عظمية؛ فلم يبق "إمرٌ" ولا "نُكْرٌ" بعد معرفة تأويلها. وهذه القضايا كلها في الحقيقه أجراها الله، ولكن جعلها على يدى، وذلك الذي بيَّنته لك وأوضحت وجوهه أمامك تأويل ما ضاق صبرك عنه، ولم تُطِق السكوت عليه، ولم تصبر حتى أبيّن لك السبب والحكمة فيه. يقول العليم الحكيم -سبحانه-: {أَمَّا السَّفِيْنَةُ فَكانَتْ لِمَساكِيْنَ يَعْمَلُوْنَ فِي الْبَحرِ فَأَرَدْتُّ أَنْ أَعِيْبَهَا وَكانَ وَرَآءَهُم مَّلِك يَّأْخُذُ كلَّ سَفِيْنَةٍ غَصْبًا (79) وَأَمَّا الْغُلامُ فَكانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِيْنَآ أَنْ يُّرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَّكفرًا (80) فَأَرَدْنَآ أَنْ يُّبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكاةً وَّأَقْرَبَ رُحْمًا (81) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيْمَيْنِ فِي الْمَدِيْنَةِ وَ كانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوْهُمَا صَالِحًا، فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَّبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا، رَحْمَةً مِّنْ رَّبِّكَ، وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِيْ، ذَلِكَ تَأْوِيْلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَّلَيْهِ صَبْرًا}. (سورة الكهف: 79-82)

12 - وكان أبوهما صالحًا

ما من لفظٍ وكلمةٍ وردت في كتاب الله -عزوجل- إلا ولها ثمرة ومَغْزىً، وغرض وفائدة، قال الله حكايةً عن الخضر في ثنايا ذكر أسباب أفعال الخضر "وَ كانَ أَبُوْهُمَا صَالِحًا" فلهذه الكلمة دلالة يحب أن نقف عليها ونتدبّرها.

كان والدهما صالحًا تَقيًا، فحفظ الله لهما الكنز لصلاح الوالد؛ لأن صلاح الآباء يفيد الأبناء، وتَقْوى الأصول تنفع الفروع، فإذا كان الآباء ذوي الصلاح والتقوى يؤثر صَلاحُهُم وتُقَاهم في أولادهم، ألم تعلم ماذا أجاب الخضر حين اعترض عليه موسى -عليه السلام- في إقامة الجدار؟! قال إن هناك كنزًا تحت هذا الجدار لغلامين يتيمين، وكان أبوهما صَالحًا، فأبقى الله أثر صلاح أبيهما، وكان صلاحه مقتضيًا لرعاية ولدَيه، وحفظ مالهما.

لذا كان دَيْدَن الأنبياء والصلحاء اللَّهَج بالدعاء وتوفِير أسباب الصلاح لأولادهم حتَّى وقبل ولادتهم.

واليوم كثير من الناس يتفكرون في جمع الأسباب المادية لراحة أولادهم، ولكنهم لم يتفكروا في هذا الجانب، يبذلون أوقاتهم، وأعمارهم، وأموالهم، وصحتهم، وشبابهم في سبيل أن يكون الأبناء سُعداء، يعملون الأعمال الشاقة ليلًا ونهارًا لجمع الأموال، وتوفير الأسباب لتحسين حياة أولادهم المستقبلية، ولكن عجبًا لهم! لا يزيدون في الطاعة والعبادة والصلاح من أجل الأبناء، ولا يلهجون بالذكر والدعاء لأجل صلاح أولادهم.

والوالد الصالح لا يفعل كذلك، بل يستحفظ ربه وديعته، وأن الله إذا استُوْدِعَ شَيئًا حفظه ورعاه، والوالد

الصالح يكون ذا توكل على ربه في استصلاح ولده، وشجرة التوكل والإصلاح لا تَخِيب ثمرتُها، بل تنمو وتؤتي أُكُلَها. والدعاء عِمَاد الوالد في استصلاح ولده، فعلى الآباء أن يتفكروا في هذا الجانب، ويَستَوْدعوا أولادهم اللهَ -عزوجل- الذي لا تَضيع ودائعه، وهو خير حافظًا وهو أرحم الراحمين.

13 - الأدب مع الله

نجد في هَذِي القصة، وفي القصص الأخرى للأنبياء والصلحاء في القرآن الكريم جانبًا مهمًا جدًا من تأدبهم مع ربهم -تبارك وتعالى-، ترى في ألفاظهم، وكلماتهم، ودَعْوَاتِهِم، ومواقِفِهم، كيف يتجلَّى الأدب مع الله -سبحانه وتعالى-، تأمل كيف راعَى العبد الصالح الأدب الجَمّ مع الله -تعالى- في ألفاظه وتصرفَاته!.

أضاف الخضر عيب السفينة إلى نفسه بقوله "فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيْبَهَا" وأضاف بلوغ الغلامين الرشد، واستخراجهما الكنز إلى الله -تعالى- بقوله "فَأَرَادَ رَبُّكَ" أسند ما ظاهره شرٌّ لنفسه، وأسند الخير إلى الله -تعالى-، مع أن الكل من الخير والشر بقضاء الله وقدره.

وكان قتل الغلام مُشترِكَ الحكم بين المحمود والمذموم، استتبع نَفسه فقال "فَأَرَدْنَا" ليكون المحمود من الفعل -وهو راحة الأبوين المؤمنين من كفر غلامهما- عائدًا على الحق

سبحانه، والمذموم ظاهرًا -وهو قتل الغلام بغير حق- عائدًا على الخضر.

وفي إقامة الجدار كان البناء خيرًا محضًا فنسبه إلى الله تعالى قائلا: "فَأَرَادَ رَبُّك". وانظر إلى رعاية الأدب في قوله: "وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِيْ" إنَّ خَرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار ليس بأمري، وإنما بأمر الله -تعالى-. وهذا أيضًا من عظيم الأدب مع الله -تعالى-.

وهذا الأدب لا يتأتى إلا بالعلم النافع، وكان الخضر قد منحه الله حظًا وافرًا من العلم النافع، فكان مُتَأَدِّبًا مع حَضْرَة الجلالة بهذه الآداب الجليلة. فينبغي أن نتعلم الأدب مع الله من هؤلاء المُصْطَفَيْن الأخيار الذين يعرفون عظمة الله وقدره وأدبَ جنابه -تبارك وتعالى-، ويجب علينا أن نتأدب في ألفاظنا وكلماتنا ودعواتنا بآداب النبُوَّة والوِلَاية، لعلَّ الله يتقبَّل منا، ويجعلنا من المقبولين.

14 - وما فعلته عن أمري

لمّا وضَّح الخضر لموسى -عليهما السلام- تأويلَ الأحداث التي جرتْ على يده، والحِكَم التي وَراءَهَا، بيّن له لمزيد من الراحة والطُمَأنينةِ أنه ما فَعَلَ هذه الأفعالَ إلّا بأمر من الله، قال الخضر "وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِيْ" ما أتيت شيئًا من تِلْقاء نفسي ومُجرَّد إرادتي، وإنما ذلك من رحمة الله وأمره، فالأمر

أمره، والقضــاء قضــاؤه، والفعل فعله، والحكمة حكمته -سبحانه وتعالى-.

لقد منح الله الخضر الرحمة، ووَهب له من لدنه علما خاصّـا به تصـرّف هذه التصـرفات، وهذه الأحداث لم تخرج من كونها كرامات لـه، أجراها الله على يديه إظهارا لقدرته وإكراما لعبده. وكرامات الأولياء ثابتة حقة بالآيات المتواترة والأحـاديـث الصـحيحـة، ولا يُنكرهـا إلا المبتـدع الجـاحـد، والفاسق الحائد.

وقولـه "وَمَـا فَـعَلْتُـهُ عَنْ أَمْرِيْ" يـدل عـلى الإلـهـام والتحـديـث الـذي يكون لغير الأنبياء من الأولياء الصــالحين. ومـدارُ ولايـة الله الإيمـان والتقوى واتبـاعُ الشــريعـة، والـذين يخالفون الشريعة المُصْطَفَوِية ليل نهارَ، ويأتون بأمور عجيبة مخالفةٍ للشرعِ المطهّر فليسوا بأولياء.

والكرامـات في الحقيقـة تكون أفعـال الله التي ظهرت على يد أوليائه وخَوَاصّ عباده. والـذين يـدّعون بـالكرامـات، وأعمالهم تخالف الشريعة، فإنهم مُشَعْوِذون أو سَحَرَةٌ أو كَهَنَةٌ أو مُنَجِّمُوْن لا غيرُ، وليس لهم ولأفعـالهم الخُرَافِيَّـة أســاس وأصل في هذه القصّة، هم ضلّوا وأضلّوا كثيرًا.

ويجيء بعضــهم مُدّعِيًـا صــباح مسَــاء بـأن "لَقيني الخضـر" و "قال لي الخضـر كذا وكذا"، و "أخبرني كذا وكذا"،

و"أفعالي مُؤَيَّدة منه"، فهذه غِشَاوة الخيال التي قد تَخَيَّمَ عَليه وأمثالِه، وليس له من الوِلايَة والكَرامة أيُّ صلة؛ فكونوا على حَذَر ممن يقول: "أخبرني الخضر"؛ لأن العبد الصالح الخضرَ وضَّحّ حقيقة أمره بقوله "وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِيْ" فكان أفعال الخضر وَحيٌ أو إلهام من الله، فهل يُوْحَى إلى هؤلاء المشعوذِين السحرة الكَهنة؟! اللهم! لا.

اللهم احفظ علينا ديننا وإيماننا وعقيدتنا وجَنِّبْنَا المُتَلَاعِبِين بدينهم. آمين!

ذوالقرنين من عظماء الإسلام، وكبار الملوك الراحمين العادلين، وقدوة صالحة ممتازة للساسة والحكام.

قصة ذي القرنين

1 - يسألونك

هيّا بنا نقرأ قصة أخرى من قصص القرآن الكريم، قصة رجل عظيم من عظماء العالَم، وقصة عبد صالح من عباد اللّه الصالحين، وقصة ملك عظيم من الملوك المسلمين العادلين، قصة رجل طَوَّف الآفاق وملأ الأرض قِسطًا وعدلًا.

ولما كانت هذه القصة الصادقة مَبْدُوْءَة بأسلوب تعليمي وتَرْبَوِي مُمتاز، نقف قليلًا حول هذا الأسلوب الرائع الممتع. بدأت هذه القصة النادرة بـ"أسلوب السؤال والجواب" قال سبحانه: {وَ يَسْئَلُوْنَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ، قُلْ سَأَتْلُوْا عَلَيْكمْ مِّنْهُ ذِكرًا}. (سورة الكهف:83)

سأل بعض الناس رسول اللّه -صلى للّه عليه وسلم-، امتحانًا واختبارًا عن ذي القرنين، فجاء الجواب من علّام الغيوب بأسلوب رصين ومتين، بأسلوب يُعتبر في المرتبة الأولى في مناهج التعليم والتربية، لقوة وضوحه وشدة تأثيره وتحديد مدْلوله. في هَذا الأسلوب يَتَهَيَّأُ السائل لِتَلَقِّي الجواب عما يدور

في خَلَدِه، فإذا جاء الجواب كان أوقعَ في قلبه وأبلغ تأثيرًا في نفسه شريطةَ ألا يكون السائل مُتَعَنِّتًا جاحدًا.

وهذا الأسلوب قد استُخدم كثيرًا للتعليم والتربية في الكتاب والسنة. يُوَظِّف القرآن الكريم أسلوب السؤال والجواب لإيصال المَفَاهِيْمِ لِلْمُتَلَقِّي وإقنائه وطَمْئَنَتِه.

وَرَدَت كَلمة "يسألونك" في القرآن الكريم بِضع عشرة مرة، وهذا يكفيك لبيان أهمية هذا الأسلوب الرائع. فالسؤال مفتاح العلم، وعنوان عقل السائل، ومعيار مستوى إدراكه، والسبيل الواضح إلى المعرفة.

وضمير خطاب "ك" يدل على أن يُسْأل العالم البصير لا الرجل الغَرِيْر؛ فالرجل البصير الحاذق يدل السائل على الخير ويوضح له المسألة، ويأخذ بيده إلى مَوطِن النجاة ومسلك الهدى والصواب. أما الجاهل فيضِلّ ويُضِلُّ، ولا يُغْني من العلم شيئًا، ولا يَميز بين الحق والباطل.

كان الناس يسألون رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو سيد العلماء، فعليهم من بعده أن يسألوا مَن يسير على خُطاه ويهتدي بهديه من العلماء الربانيين.

فعلينا أن نستخدم هذا الأسلوب القرآني كثيرًا لترسيخ العلوم، وتصحيح الفُهوم، وتمييز الْغَثّ من السمين، والحق من الباطل.

2 - ذوالقرنين

سأل مشركو مكةَ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- ثلاثة أسئلة بإغراءِ اليهود: سألوه عن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح. فأجَابهم النبي -صلى الله عليه وسلم- بوحي من الله عن الروح في سورة الإسراء، وعن أصحاب الكهف في بداية سورة الكهف، وعن ذي القرنين قبل نهاية نفس السورة، وهو الّذي نحن بصددها هنا.

واختار القرآن الكريم في الجواب عن هذه الأسئلة أسلوبه المعهود المرَكّز الهادف؛ لأنه كتاب علم وحكمة، ورشد وهداية، وعمل وبِناء، وليس كتابَ قَصص وحكاية. فلا يذكر من القصص إلّا ما كان مفيدًا مُجْدِيًا في غرضه بأسلوب متين وألفاظ عذبة مُهَذّبة مُذَهَّبَةٍ، ولا يسرد القصص بتفاصيلها من البداية إلى النهاية.

وهكذا نجده هنَا، لم يجاوز القرآن الكريم ذِكْرَ هذا الرجل العظيم بأكثر من لقبه المشتهر به إلى تعيين اسمه وبلاده وقومه؛ لأن ذلك من شؤون أهل التاريخ والقصص، وليس من أغراض القرآن. اقتصر القرآن الكريم ما يفيد الأمة من هذه القصة عبرة وحكمة. قال -سبحانه-: "قُلْ سَأَتْلُوْا عَلَيْكم مِّنْهُ ذِكرًا".

لا أذكر من أحواله وأخباره إلا ما يفيدكم، لا أخبركم عنه إلا جزءً ذُكِرَ في القرآن بطريق الوحي المنزل عليّ من ربّي، لا أقص عليكم عنه إلا ذكرًا تتذكرونه، وتعتبرون به، سأقرأُ عليكم من أمره وشأنه خبرًا يحمل الموعظة والعلم والمعرفة. هذا هو أسلوب القرآن في القصص، وذلك نهجه في الحكاية!.

ولكن أبى الناس إلّا أن يُكثروا الحديث عن ذي القرنين، فأكثروا الحديث عن اسمه ونسبه وزمنه وبلاده، حتى قال كثير منهم: المراد بذي القرنين "إسكندر المقدوني" وليس الأمر كذلك، لأن "إسكندر المقدوني" لم يكن صالحًا بل كان وَثَنِيًّا، وقصة ذي القرنين في القرآن تأبى أن يكون ذو القرنين على هذا الوصف، وليس لدى القائلين به علم معتبر يُوْثَقُ به في هذا الباب، وَإنَّما قياس وظنّ.

والذي يعنينا نحن ما عناه القرآن، لا يعنينا اسمُه ونسبه وزمنه وبلاده، بل يعنينا سيرتُه وأخلاقه وأعماله الجليلة، وكونه قدوة صالحة في فعل الصالحات.

أما صفات ذي القرنين التي ذُكرت في القرآن فمنها: أنه كان ملكًا صالحًا عابدًا، وأنه كان مُلْهَمًا من الله، قد آتاه الله أسبابًا وافرة، ومُكْنَةً وقدرةً على التصرف فيها، وأن ملكه شَمِلَ بِلادًا شاسعةً، وأنه طوَّفَ في الآفاق شرقًا وغربًا وشَمالًا، وأذاق أهلَها العدلَ والرحمة، وأنه أقام سدًّا مَنيعًا يحول بين

يأجوج ومأجوج وبين قوم آخرين، وأنه كان معه قوم أهل صِناعة مُتْقَنة ومَهارَة فائقة في الحديد والبناء، والشؤون الأخرى.

وفَذْلَكَة الكلام أن ذا القرنين أحد الملوك المؤمنين الذين ملكوا الدنيا، وسَيْطَروا على أهلها. فقد آتاه الله ملكًا واسعًا ومنحه حكمة وهيبة وعلمًا نافعًا. رحمه الله عبده الصالح ذا القرنين رحمة واسعة، ووَفَّقَنا أن نَتَأَسَّى به في فعل الصالحات وأن نترك ما لا يَعْنِيْنَا وأن نأخذ بما يعنينا.

3 - التمكين في الأرض

بدأت قصة ذي القرنين بأسلوب قرآني معجز، بَادِئَ ذِيْ بَدْءٍ مُهِّدَ للقصة تمهيد وجيز، وبُيِّن فيه سبب نجاحه وانتصاره إجمالًا. نجح ذو القرنين بالنجاح الباهر في مَهَامِّه لأن الله تعالى جعل له مُكْنَة وقدرة على الأسباب والتصرف فيها، قال -تعالى: {إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَ آتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا}.

(سورة الكهف:84)

مَكَّنَ الله لذي القرنين في الأرض بأنْ هَيّأ له أسباب النصر والنجاح، أعطاه ملكًا عظيمًا، وآتاه من السلطة المطلقة المُدَعَّمَة بالعلم والجنود وآلات الحرب، مَهَّدَ له من الأسباب والوسائل التي تمكنه من السيطرة وبَسْط النُّفُود، فمَلَكَ مشارق الأرض ومغاربها، ودانت له البلادُ، وخضعت له

ملوك العالم، آتاه الله الأسباب فاستعان بها على قَهْرِ الْبُلْدَان وسهولة الوصول إلى أقاصي العُمْران، وَ إقامة حكم الله فيها.

استعمل ذو القرنين تلك الأسباب على وجهها، حتى حصل له ما حصل، وبلغ مُلكُه مَا بلغ، واستخدم تلك الأسباب سواءً كانت اقتصادية، أو سياسية، أو عسكرية، أو حربية، أو صناعية، أو حضارية، حتى تحقَّقَ له التمكين -بإذن اللّه وعونه-.

فليس كل أحدٍ قادرًا على الأسباب، وليس كل من عنده الأسباب يستعملها على وجهها الصحيح، ولكن وُفِّقَ ذو القرنين بين اتخاذ الأسباب واستعمالها على وجهها. مكّن الله له في الأرض فاعترف بنعمة الله عليه، ونسب هذا التمكين إلى ربه -سبحانه- كما سيأتي في خلال هذه القصة.

والتمكين في الأرض نعمة عظيمة لعباد الله الصالحين؛ لأنهم إذا مُكِّنُوْا في الأرض أقاموا فيها حكمَ الله وشرعه، فأصلحوا فيها وما أفسدوا. وهذا التمكين سنة عظيمة من سنن الله في الكون، وبهذا التمكين يَبْتَلِي الله العباد والأمم.

وقد وعد الله في القرآن هذه الأمة بالتمكين في الأرض، وشرَط له شروطًا، فأنجز الله وَعدَه ومَكَّن لهذه الأمة في الأرض لما التزمت بتلك الشروط. ولما فرَّطت الأمة في القرون المتأخرة في هذا الجانب حُرِمَتْ هذا التمكين.

وصيغة "مَكَّنَّا" تدل على أن التمكين لا يكون إلّا من الله، وهو الله الذي يُمَكِّن للملوك وللأمم، وهو الذي يقدر لهم الملك والظَّفَر بالسيادة، فلا ينتصر جيش إلا بإذن الله، ولا تسود أمة إلّا بإذن الله، ولا تَنْهَض دولة إلّا بإذن الله، ولا يزول ملك إلّا بإذن الله، ولا يملك آخر إلّا بإذن الله.

فهل تستخدم أمتنا الأسباب المُتَاحَةَ لها للتمكين في الأرض! وهل يقيم من مُكِّنَ في الأرض حكمَ الله وشرعه؟!.

4 - إلى المغرب

قد مكَّن الله لذي القرنين في الأرض، ورزقه الطاعة والانقياد في جنده، وأعطاه من كل شيء يحتاج إليه في توطيد مُلكِه. وشكر النعمة أن تُستَعمل في طاعة المنعم وأن تُصْرف فيما لأجْلِه مُنِحَت وأعطِيَت، وهكذا فعل ذو القرنين، سخّر قوته وماله وجنده لإعلاء كلمة الله، وإقامة العدل في أرضه، سعى سعيًا حثيثًا لتمكين دين الله في الأرض.

أعَدَّ ذو القرنين للسفر عُدته، وفَصَلَ إلى المغرب غازيًا فاتحًا محاربًا مجاهدًا، لا يُصادف في طريقه حَزْنًا إلّا سلكه، ولا عاليًا إلا ظَهَره، ولا عدوًّا إلّا كَسَّرَ سِلاحه وقَصَّ جناحه، ولا يبالي في الجهاد الحرّ والقرّ ولا السَّهْلَ وَلَا الْوَعْرَ.

وما زال ذو القرنين يسير ويغزو حتى وصل نِهَايَةَ الأرض من جِهة المغرب التى ليس بعدها إلّا البحر المحيط (وهو بحر

الظلمات / أو المحيط الأَطْلَنْطِي) وهو لايُمكن المضيُّ فيه.

ولما انتهى إلى هذا المكان تراءى له أن الشمس تغرب في عين اختلط ماءُها وطينُها، وظن أنه ليس وراء هذا العين مكانٌ لِلْغَزْو، وَلا سبيلَ لِلجهاد. وهنا انتهت رِحْلَتُه الأولى، وتَم غرضه وهدفه المنشود من هذه الرحلة، وسوف يُتْبِع هذه الرحلة رِحلة أخرى ويمشي فيها حَثِيْثَ الخُطَى، يقول -تعالى- عن رحلته الأولى: {فَأَتْبَعَ سَبَبًا (85) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِيْ عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَّ وَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا، قُلْنَا يَذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَنْ تُعَذِّبَ وَ إِمَّآ أَنْ تَتَّخِذَ فِيْهِمْ حُسْنًا}.

(سورة الكهف: 85، 86)

5 - أين تغرب الشمس؟

لما بلغ ذو القرنين مكان مغرِبِ الشمس وَجد الشمس تغرب في عين كثيرة الحَمْأَةِ (أي الطين الأسود). وكونها تغرب فيها هو بحَسَبِ رأي العين، وإلّا فالشمس في السماء، والعين الحَمِئَةُ والمحيط إلى جنبها في الأرض، والشمس أكبر من الأرض بمرّات كثيرة، فكيف يُعقل دخُولُها في عين من عيون الأرض؟!

وليس للشمس مغرب حقيقي إلّا فيما يلوح للتخيّل، فعُلِم أن الشمس لم تغرب في الحقيقة في عين حمئة، بل يخيل إلى الرائي في ذاك المكان أنها تغرب فيها، وهذا هو المُعْتَاد لمن كان بينه وبين أُفُقِ الشمس الغربي ماء. رآها تغرب في نفس

الماء، وإن كانت في غاية الارتفاع، إذ لم يكن في مطمح بصره غيرُ الماء، ولذلك قال: "وجدها تغرب"، ولم يقل: "كانت تغربُ". كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب في البحر إذا لم يرَ الشطّ، وهي في الحقيقة تغيب وراء البحَر.

وكثيرًامَّا يَرِدُ الخطاب المُوَجَّه إلى الناس في القرآن الكريم مُراعيًا حَوَاسّهم في الإدراك، ويكون الكلام ضربًا من المجاز إذا قارنناه بالحقيقة والواقع، والحقيقة أن الشمس لا تغرب في وَسَطِ العين السوداء، وإنما هذا ما تُدْرِكُه العين المبصرة، والشمس تغرب وراء الكُرَةِ الأرضية بسبب دورانها، وليس بداخلها كما تتصور الحواس، وحَاشا أن يكون في كلام الله ما ليس بحق، وإنما هو المجاز، ومراعاة مَبْلغ إدراك الناس، فأعِد قراءَة قوله تعالى: "حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِيْ عَيْنٍ حَمِئَةٍ" وتَأَمَّل وأَعْمِل التفكيرَ! هدانا وهداكُم الله.

6 - الدستور العادل

وجد ذو القرنين في أقصى المغرب عند تلك العين الحمئَة قومًا كفارًا وأمة عظيمة من بني آدم، غلبهم ذو القرنين وفتح بلادهم وعاملهم بسيرة العدل، والتزم بالعدل المطلق في كل أحواله وشؤونه، لم يُعامِلهم بالظلم والجور والبطش شأنَ الملوك الكفرة الظلمة.

سـار ذو القرنين على المنهج الربَّاني، واتخذ لحكمه دستورًا عادلًا مُوافقًا لشرع الله وحكمه، وقد خيّره الله فيهم بين تعذيبهم وإمهالم، فأمهلم ذو القرنين بإلهام من الله، ودعاهم إلى الإيمان وحسن العمل، ووضح لهم الدستورالعادل يقول الحق سبحانه: {وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا، قُلْنَا يَذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَنْ تَتَّخِذَ فِيْهِمْ حُسْنًا (86) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (87) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَآءَنِ الْحُسْنٰى، وَسَنَقُوْلُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا}. (سورة الكهف:86-88)

الناس الذين قهرهم ذو القرنين وفتح بلادهم ليسوا على مستوى واحد، ولا على صفةٍ واحدةٍ، فمنهم المؤمن ومنهم الكافر، ومنهم الصالح ومنهم الطالح، فلا بُدّ أن يعامل كل واحد منهم حَسَبَ مقتضى العدل. أما الظالم الكافر فلابد من تأديبه وعقابه، وكَفِّه عن الظلم والكفر، وهذا هو عين العدل. وأما المؤمن الصالح فلا مندوحة عن مكافأته والإحسان إليه وتسيير المعاملة له.

فعامل ذو القرنين كل أحد بما يليق بحاله وَفْق مرضاة الله، فاختار أحسن الأمرين، اختار الإمهال على القتْل والحسن على الإثْخَان، وقال: من أشرك بالله بعد دعوتنا له إلى عبادة الله فسنعاقبه بالقتل في الدنيا، ثم يرجع إلى ربه

يوم القيامة فيعذبه عذابًا فظيعًا، وأما مَن آمن منهم بالله وعمل عملًا صالحًا فله الجنة جزاءً من ربه على إيمانه وعمله الصالح، وفي الدنيا نعامله معاملة الحسن والرفق واللِّيْنِ.

هذا هو العدل، وعليه تقوم السماوات والأرض، وعليه تدوم الدول وتُسَاسُ الممالك. أقام ذو القرنين في أهل المغرب مدة، ضرب على يد الظالم ونصر المظلوم، وأخذ بيد الضعيف، وأقام عَمُود العدل، ونَشَر لِوَاء الإصلاح.

7 - إتباع السببِ السببَ

المؤمن الصالح لا يَشْبَع من الخير وفعل الصالحات، ولا يَدَعُ فضيلة يمكن تَحْصِيْلُها إلا حصَّلها، وهكذا كان الملك الصالح ذو القرنين -رحمه الله-، كانت له طُمُوْحَات كبرى، وله نفس توّاقَة إلى الخيرات. لمّا فرغ من مهمات رحلته الأولى وبلّغ الدعوة وأدّى الأمانة إلى أهل المغرب، رجع من المغرب، وثَنَى عِنَان عزمه إلى المشرق، فَسار غازيًا مُجَاهدًا، مَنصورًا موفقًا، مؤيدًا مظفرًا، وأتبع طَريقًا آخر صَوْبَ المشرق، واستخدم الأسباب والوسائل التي أعطاه الله إياها في مُوَاصَلَة الغزْو والفتح في المشرق، حتى انتهى في سيره إلى غاية العُمْرَان في الأرض من جِهة شروق الشمس إلى المشرق، وبَلغ جهة قاصية من الشرق، حيث يَخَال ألَّا عُمْرانَ وراءه.

والظاهر أنه بلغ ساحل بَحرِ اليابان الواقع غربيّ

المحيط الهادي، وهو الموضع الذي تطلع الشمس فيه أوّلا من معمور الأرض.

هناك يبرز لعين الرائي أن الشـمس تطلع من خلف الأفق، ووجدها ذو القرنين تطلع على قوم حُفَاة عُرَاة لا يأوون إلى شيء من العمارة، ولا شيء يسترهم من حر الشمس، لا مِن اللباس ولا من المباني والأشْجار، وإنما يعيشون في حالة فَوْضَوِيَّةٍ لا يبنون الدُّوْر ولا يلبسون الثياب، وإنما يعيشون في مفازة لا مأوى فيها ولا شجر، يقول تعالى عن رحلته الثانية: {ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (89) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا}. (سورة الكهف: 89، 90)

ما جرى بين ذي القرنين وبين هؤلاء القوم هناك لم يُحَدِّثنَا القرآن عنه شيئًا، ولكن من المعلوم بَداهة أن أهل الخير لا يحلون في مكان إلا ويتركون أثرًا من الخير الذي أعطاهم الله، فلا يمكن أن يغادر ذو القرنين هذا المكان وهذه الأمة بلا توجيه وإصلاح، فقد بذل ما يمكن بَذله في إصلاحهم وتهذيبهم وبسط على بلادهم لواءَ حكمه وأضاء عليهم بنور علمه ورأيه.

مكث ذو القرنين هنا أيضًا مدة، وعلَّم الناس كيفِيَّة عيشهم وترتيب حياتهم، ثم أنهى رحلته الشرقية وقد أتم مُهِمَّاته وأهدافه على أحسن وجه، وأنجز مشاريعه بأجمل نظام وتنسيق.

8 - كذلك

لكل تعبير عَبِير، ولكل زَهْرَة أريج، ما أحسن أسلوبَ القرآن في القصص! وما أجمل بيانه في الحكاية! سَكت القرآن كريم عن تفاصيل رحلة ذي القرنين نحو مطلع الشمس، وطَوَاهَا كُلها بكلمة واحدة "كذلك"، وأوجز فيها أَيَّمَا إيْجاز! وأشار بعدها إلى أنَّ أحواله وأخباره كلها معلومة ومحفوظة في علم الله، وهو وَحْدَهُ يعلم تفاصيل هذه الرحلة، لأنه علام الغيوب، يعلم ما كان وما يكون، ومَن الذي يحيط بأحوال ما كان وما يكون إلا الله -سبحانه وتعالى-؟!.

قد أحاط بعلم ما جرى معه عند مطلع الشمس، لا يخفى عليه ما هناك من الخلق وأحوالهم، وهو وحده أحاط بعلمه ما أعطى ذا القرنين من الصلاحيَّة والملك والأسباب.

فلفظة "كذلك" تضمّنت جميع هذه التفاصيل، وهو خبرٌ لمبتدأٍ يقدّر له ما يناسب المقام والسياق والسباق، كذلك: أي أمر ذي القرنين كما وصفناه في رفعة المكان والسلطة والسلطان. كذلك: أي أمره فيهم كأمره في المغرب. كذلك: أي أمر ذي القرنين أنه أَتبع هذه الأسباب حتى بَلَغَ ما بلغ. كذلك: أي لا عَجَبَ ولا غرابَة في أحواله وأخباره وأعماله لأن ذلك بتقدير الله وعطائه. كذلك: أي أن كثرةَ جُنُوده وأسبابه بلغت مبلغًا لا يحيط به إلّا عِلْمُ اللطيف الخبير -سبحانه- وتعالى: {كَذَلِكَ، وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا}. (سورة الكهف: 91)

9 - إلى السَّدَّين

ما فَتَرَتْ هِمة ذي القرنين، وما تَوَانَى عزمه، وهكذا كان أهل العزائم والهِمَم العالية، فَرِغ من مُهِمَّات الرحلة الثانية فَشرِع في إعداد الرحلة الثالثة، وخلّف أهل الشرق إلى الشَّمال غازيًا مجاهدًا، مظفرًا منصورًا، وهذه الرحلة تختلف عن الرحلتين السابقتين من حيث طبيعةُ الأرض والتعامُلُ مع أهلها، ومن حيث الأعمالُ والمشاريعُ التي أَنجزها في هذه الرحلة.

لم يقتصر في هذه الراحلة على الأعمال الجهادية لِكَبْتِ الأشرار والمفسدين، بل أنجز فيها مشروعًا هائلًا عظيمًا، وصل ذو القرنين إلى بلاد بين جَبلَين، ووجد من دون السدّين قومًا لا تكاد تُعْرف لغتهم، ولا يُفهمُ في الحديث مَرْمَاهُم، ولا يكادون يفقهون ما يُخَاطبُون به لبُطءِ فهمهم، كأن وُعُوْرَة الأرض وصُعُوبتها أثَّرت في طبائعهم، فأصبحوا مُتَخَلّفين مُنْغَلقين على لغتهم فقط.

ولكن حاول ذو القرنين بما أعطاه الله من الأسباب العلمية لفهم لسانهم، ففقِه لغتهم و فقَّهَهُم، وراجعهم وراجعوه، ولما وجدوا في ذات ذي القرنين إنسانًا رَحِيمًا، وملِكًا شفيقًا، واسعَ السلطان كثير الأعوان اشتكوا إليه ضرر يأجوج ومأجوج، والتمسوا منه أن يقيم سدًّا بينهم وبين جِيْرانهم، يفصِل بلادهم، ويحول عدوانهم، وطلبُوا منه حَلَّ مشكلاتهم

والدفاع عن أراضيهم، وشرطوا على أنفسهم ضريبة يدفعون إليه من أموالهم لأجل هذا العمل الكبير، فقالوا: هل نجعل لك أجرًا ونجمع لك مالًا على أن تجعل بيننا وبينهم حاجزًا يحول بيننا وبينهم؟!.

كانت لَديهم أموال ولكن لم يكن لهم قِسْطٌ مِن الحَصَافَة والحكمة، وليس عندهم تدبيرٌ لاستثمار هذا المال فيما يعود عليهم بالخير، يقول -تعالى- عن رحلته الثالثة: {ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (92) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُوْنِهِمَا قَوْمًا، لَّا يَكَادُوْنَ يَفْقَهُوْنَ قَوْلًا (93) قَالُوْا يَا ذَاالْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوْجَ وَمَأْجُوْجَ مُفْسِدُوْنَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَهُمْ سَدًّا}. (سورة الكهف: 92-94)

10 - يأجوج ومأجوج

التقى ذو القرنين في الرحلة الثالثة بقوم كانوا يجاورون يأجوج ومأجوج، ويَتَضَرَّرُون بضرّهم وأَذَاهُم، فينبغي أن نعرّج قليلًا على نُبذة من أحوال يأجوج ومأجوج، فهما أمتان عظيمتان كثيرتا العدد من بني آدم، وهم قوم مفسدون في الأرض، وأَوْزَاع من الخلق ضالّون ومضلّون، وهم قوم قد رُكِّبَ الشر في نفوسهم، وامتزج الفساد بين جوانبهم، السيف لا يُمْكِنه أن يَّرْدَعَهم، والنُّصح مَحَال أن ينفعهم، كانوا يخرجون إلى قوم مجاورين لهم، فيفسدون في أرضهم بالنَّهَب

والبغي والقتل والتخريب، لا يتركون أَخْضَر إلا أكلوه، ولا يابسًا إلا احتملوه، فَجعل ذو القرنين سـدّا منيعًا بينهم وبين قوم يجاورونهم، فهم لا يستطيعون الصُّعُود عليه لارتفاعه، ولا على نَقْبِه لِإِحْكامه وقوّته.

وسوف ينهدم هذا السدُّ المحكم المتقَن، ويستوي الأرضَ قبل قيام الساعة، وخروج يأجوج ومأجوج من علامات الساعة الكبرى، ويكون هذا الخروج علامةً على قرب نَفْخِ الصُّوْر وخرابِ الدنيا وقيام الساعة، والذي يمنع من خروجهم ذلك السدُّ الذي يَحْبِسُهُم، ويحجز بينهم وبين الناس، ولا يُعرف مكانُ هذا السدِّ بالتحديد، إلا أنه في جهة شَمَال المشرق، ويكون وقتُ خروجهم في زمن عيسى -عليه السلام- بعد قتل الدجال.

ووجود يأجوج ومأجوج وخروجهم من علامات الساعة الكبرى ومن صَمِيْم عقائدنا، فينبغي أن نعتقده جَزْمًا، ولا نلتفت إلى من يدَّعي بأنه لا وجود ولا حقيقة لهم بحجة أن الأقمار الصِّنَاعِية وأَجْهِزَة التَّصوير لم تكتشف مكانَ وجودهم، لأن عجز الأجهزة الحديثة والتِّقْنِيَاتِ المتَطَوِّرَةِ عن معرفة مكان وجودهم لا غرابة فيه أبدًا؛ لأنّه من تعمية الله هذه الأجهزة، ومَسألة وجودهم وخروجهم آخرَ الزمَان من مسائل الغيب التي استأثر الله وحده بعلمها، ولا يستطيع أن

يحيط بعلمها أحدٌ من البشر.

سَتُبْدِي لك الأيام ما كنتَ جَاهِلا

و يأتيك بالأخبار من لم تزوّدِ

11 - بناء الردم والتَّخْطِيطُ الْهَنْدَسِيُّ الْمِعْمَارِيُّ

طلبوا من ذي القرنين أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدًا، فأجاب طلبهم، وقال سأجعل بينكم وبينهم ردمًا، طلبوه بناء السَّدِّ وهو على خَرَاجٍ وأجرة منهم، فوعدهم ببناء الرَّدْمِ وهو بدون أخذ شيء منهم، والردم هو الحاجز الحصين والحجاب المتين وهو أكبر من السَّدِّ وأوثق، فوعدهم بفوق ما يرجون، قال لهم: أجعل بينكم وبينهم سدًا منيعًا وحاجزًا حصينًا، ورفض قبولَ المال، وتَطوّع بناءَ الرَّدْم، وَهذا شَهَامَة منه ونزاهَة عن أموال الْمُسْتَضْعفِيْن، فقال لا حاجة لي إلى مالكم، لقد أعطاني ربي خيرا، وأَغناني عمّن سواه، فأعينوني بالأيدي والرجال أجْعَل لكم الردم تبرعًا.

خطَّطَ ذو القرنين للمشروع أحسن تخطيط هندسي معماري، وبدأ العملُ على المشروع، حُفِرَله أساس، وأُنْشِئَ في العمل، فقال: أعطوني، ناولوني قِطَعًا عظمية وكبيرة من الحديد، فوضعها على ترتيب متناسق، فبَنَى بها حتَّى إذا حاذَى البناء بين جانبي الجبَلَين، قال للعمال: أجِّجُوا النار، وانفخوا بالمنافيخ عليها، حتَّى إذا جعل ذلك الحديدَ المتراكمَ

كالنار بشـدة الإحماء صـبَّ عليه النُّحَاسَ المُذَاب، فالتَصـق بعضه ببعض، وصار جبلًا صَلْدًا، واستحكم الردم استحكامًا هائلًا كأنه صَـفِيْحَة واحدة من النُّحاس، فما استطاعت يأجوج ومأجوج أن تصعد فوق السد لارتفاعه وملاسته، وما استطاعوا أن ينقضوه لبُعدِ عرضه وقوته.

وهكذا تمَّ هذا المشروع الهائل بأمر ذي القرنين وتحت إشرافه، لقد كان ذو القرنين رجلًا شهمًا عظيمًا، ما كان ينظر إلى أموال الناس وثرواتهم، بل كان نظره على ثواب الله وأجره والدار الآخرة، لذا كان مُتَبَرِّعًا مُتَطَوِّعًا حَرِيْصًا على مصالح الناس ومنافعهم، وناصحًا لهم فيما يعود عليهم من النفع، بذل لهم من الوسع والخدمة أكثر مما طلبوا منه، ونفع الناس بالجهد الذاتي والعقلي، وبذَل لهم أموالًا طائلة، وعمِل لهم عملًا ضَخْمًا عظيمًا.

وأمّا ما طلب منهم من المعونة الجسدية فلِدَفع الكَسَل منهم ولِنَفْخ روح النَّشَاط وَ السعي والكسب فيهم، يقول الحق -سبحانه-: {قَالَ مَا مَكَّنِّيْ فِيْهِ رَبِّيْ خَيْرٌ فَأَعِيْنُوْنِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُم وَ بَيْنَهُمْ رَدْمًا (95) آتُوْنِي زُبَرَ الْحَدِيْد، حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوْا، حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا، قَالَ آتُوْنِيْ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (96) فَمَا اسْطَاعُوْا أَنْ يَّظْهَرُوْهُ وَمَا اسْتَطَاعُوْا لَهُ نَقْبًا}. (سورة الكهف:95-97)

12 - هذا رحمة من ربِّي

فلمّا نظر ذو القرنين إلى الردم وهو جبل شامخ وحِصن حَصين، قال: {قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّنْ رَّبِّيْ، فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّيْ جَعَلَهُ دَكَّآءَ، وَ كَانَ وَعْدُ رَبِّيْ حَقًّا}. (سورة الكهف:98)

ماذا صدر من ذي القرنين حين أتَمَّ هذا العمل العظيم؟ ماذا قال ذو القرنين حين تمّ هذا المشروع الهائل؟! فالجواب هذا رحمة من ربي، هذا من أثر رحمة ربي عليّ وعلى الناس، يا لها من جملة عظيمة! ويا لعظَمةِ قائِلها؟! أضافَ هذا الفعل الجميل والأثر الجليل إلى الرب -سبحانه وتعالى-، وحمِد ربه على هذه النعمة العظيمة، وأضاف النعمة إلى مُوْلِيها ومُسديها، هذا من فضله وإحسانه عليّ، وهذا رحمة عظيمة لهؤلاء الناس، لِمَا فيه ردُّ فسادِ الأمة المفسدة.

هذا هو ديدن الصلحاء، إذا أنعم الله عليهم بنعمة ازداد شكرهم وإقرارهم واعترافهم بنعمة الله، وهذا هو دأب عباد الله المخلصين، إذا أنجزوا إنجازًا عظيمًا نسبوه إلى توفيق الله ورحمته وفضله، وسجدوا له سجدة الشكر، وأثنَوا عليه بما هو أهله، بخلاف المتكبرين والعالين في الأرض، فإن النِّعَم تزيدهم كِبرًا وبطرًا وازدراءً للآخرين، وَتَجِفُّ ألسنتهم عن أداء كلمة الشكر والثناء على الله.

13 - تذكرة البعث والجزاء

"لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نُقْصَانُ" ولكل عملٍ جليلٍ وملك عظيم زوال وانهيار، ما أنسى ذا القرنين هذا المُلْك العظيم وهذه الأسباب الكثيرة المتكاثرة رَبَّهُ، وما أنساه دار الآخرة، بل هو مازال يجعل دار الآخرة في خَلَدِه، لأنه يَعلم أن الدنيا مصيرها إلى الفناء والبِلَى، وهي دار العمل ومزرعة للآخرة، لذا تذَكَّر في هذا المقام البعث والجزاء ورَبَطَ الدنيا بالآخرة، وكان ينظر بأمِّ عَينَيه إلى الردم المحكم المُتْقَن، ولكن في نفس الوقت يراه بعين قلبه وفكره دَكَّاء مُنهدمًا مستويًا بالأرض، فقال: إذا جاء وقت وعدِ الله بقيام الساعة، أو وقت خروج يأجوج ومأجوج من وراء هذا السَّدِّ جعله الله مَدْكُوْكًا مَبْسُوْطًا مَسَوًّى بالأرض، وكان وعد ربي كائنًا لا محالة، ومجيء يوم القيامة حقٌّ لا مِرْيَةَ فيها.

14 - بَعْثُ النَّارِ

ولمّا كانت يأجوج ومأجوج أمتين كافرتين مفسدتين، وهما من بني آدم، وبنو آدم مُكَلّفون مَجْزِيُّوْن بأعمالهم يكون جزاء كفرهم وفسادهم وطغيانهم أنهم بعث النار يوم القيامة، وبعث النار هم الذين يُبعثون إلى النار من ذرّية آدم، فقد جاء في الأحاديث الصحيحة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: يقول الله تعالى: يا آدم! فيقول لَبَّيْك وسَعْدَيك والخير في

يديك، فيقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟! قال: من كل ألفٍ تِسعَ مأةٍ وتِسْعَةَ وتسعين، فعنده يَشِيْب الصَّغير، وتَضَـع كلُّ ذات حَمل حَملها، وترى الناس سُـكَارَى وماهم بسـكارى، ولكن عذاب الله شـديد، قالوا: يا رسـول الله! أيّنا ذلك الواحد! قال: أَبْشِرُوْا فَإن منكم رجلًا ومن يأجوج مأجوج ألفًا. (الحديث، رواه البخاري) فعُلِم من هنا أن عدد قوم يأجوج مأجوج تَقريبًا ألفُ ضِعْفِ عدد المسلمين.

15 - من أهوال يوم القيامة

لما جاء ذكر اليوم الآخر والبعث والنشـور في غُضُـون قصـة ذي القرنين ذكر الله شَـيئًا من أهوال ذلـك اليوم المَخُوْف، لأن ذلك اليوم من أهمّ وأَبرز تركيزات القرآن الكريم، لأن لـه دورًا كبيرًا في ردع النـاس وكفِّهـم عن المنكرات والفواحش، وأنه من العقائد الثلاثة الأساسية التي أبدَأَ فيها القرآن وأعـادَ، وأفصـح بها كلَّ الإفْصـاح، وانتهز الفُرَص لتوضـيحها وتبيينها وتذكيرها، وهي: التوحيد، والرسـالة، والآخرة، يقول تعالى: {وَ تَرَكْنَا بَعْضَـهُمْ يَوْمَئِذٍ يَّمُوْجُ فِيْ بَعْضٍ وَّنُفِخَ فِي الصُّوْرِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (99) وَّ عَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكافِرِيْنَ عَرْضًا (100) الَّذِيْنَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِيْ غِطَآءٍ عَنْ ذِكْرِيْ وَ كَانُوْا لَا يَسْتَطِيْعُوْنَ سَمْعًا}. (سورة الكهف: 99-101)

يومَ مجيء الوعد تركنا يأجوج ومأجوج فيموج بعضهم في بعض آخر، ودخل بعضهم في بعض حَيَارَى كَموج الماء، وهكذا يكون حال الجن والإنس، يموج بعضهم في بعض، ويضطربون ويختلطون، وينفخ في الصور ثم يجمع الله الخلائق بعد تَلَاشِي أبدانهم ومصيرها تُرَابًا، يجمع جَمْعًا تَامًّا على أكمل صفة، وأبدع هيئةٍ، وأعجب أسلوب، ويُظهر جهنّم للكافرين يوم جمعهم، حتى يشاهدوها، ويحصل لهم عند مشاهدتها من الفزع والرَّوْعَةِ ما الله به عليم.

وفي بيان هذه الأهوال وعيد شديد للكُفَّار والعُصَاة، الذين كانت أعينهم في غطاء سترها من جميع الجوانب، فلا يتأمَّلون معاني القرآن ولا يتدبرون فوائده، ولا يذكرون هذا اليوم المَهُوْل، وهُمْ في صَمَم عن استماع الحق، وفي عمًى عن رؤية الدلائل التَّنْزِيْلِيَّة والتَّكْوِيْنِيَّة.

وفي ذلك اليوم العظيم يُكْشَف الغطاء عن العيون، ويزول الصَّمَم عن الآذان، وتذُوب فيه بين العالمين الفَوَارِقُ، وتبين فيه وجوهُ الحقائق.

فَلْنَتَصَوَّر في أنفسنا الفزعَ لذلك اليوم، لأن هذا التصور والإحساس الدائم لَكَفيل لتصحيح مَسَارِ الحياة.

16 - قدوة صالحة للسَّاسَةِ والْحُكَّامِ

ارجع البصر في قصة ذي القرنين، ثم ارجع البصر كرّتين، ماذا ترى في حياته؟ كيف ترى أخلاقه وقِيَمَه ومبادئه ونظرتَه إلى الحياة؟! قارِنْهُ بِساسة العالم وحكّام الدويلات اليوم، تجد ذا القرنين إنسانًا عظيمًا، ناصحًا لدينه وللإنسانية جمعاءَ، مِلِكًا رَحيمًا بين جوانحه قلبًا نابضًا يَتَأَلَّم بآلام الآخرين.

وبالمقابل تجد هؤلاء السَّاسَةَ وَالْحُكَّام يعيشون لأنفسهم، يُضَحُّوْن المصالح العليا والمنافع العامّة لمصالحهم الذاتية ومنافعهم الخاصة، هم عذاب ووبال على شعوبهم، يمتصُّوْن الثُّمَالة الباقِيَة من أموالهم، يحسبون الكراسيَّ والمناصب والأموالَ مُنْتَهَى الكمال البشري، يُطَاوِلون بأعناقهم السماءَ، لا يخرجون من قصورهم الشامخة، ولا يبرزون من بُروجهم العالية كَيْ يروا مصائب الناس ويستمعوا إلى شَكاوَى العوام، فأينهم من ذي القرنين! بينه وبين هؤلاء بُعْدَ المشرقين.

فعليهم أن يطالعوا سيرة هذا الملك العادل ذي القرنين، لأنه لهم قدوة صالحة في شخصيته وأعماله، كان لديه من الملك والسُّلطة والأسباب ما لا يَتصوَّره هؤلاء، مع ذلك تراه يستمع إلى شعبه! ويبذل كل ما لديه في خدمتهم وراحتهم ودفع الضرر عنهم، يقول هؤلاء الحَمْقَى بـ"فَصْلِ

الدِّيْنِ عَنِ الدَّوْلَةِ". ويحسبون الدين عائقًا في سبيل التقدُّم والرُّقي.

ألم يعلموا أن ذاالقرنين كان رجلًا مؤمنًا يدين لرب العالمين، ويُنَفِّذُ حكمه على أرضه؟! ما فصل الدين عن الدولة، بل جعل الدين أساسا لدولته وسلطته وحكمه، فأفلح في الدنيا وفاز في الآخرة، وجعل الله له لسان صدق في الآخرين، وجعله قُدوة صالحة لكل مَن مُكِّنَ في الأرض، وفُوِّض إليه شيء من المسؤوليَّة.

فهل يعي هذه الحقيقةَ الساسةُ والحكام الذين يقال لهم "إسْلَامِيُّوْن"! وهم يسوسون دولًا كبيرةً أغلبيتها الساحقة من المسلمين؟! فهل يدرون أنه إذا فُصل الدين عن الدولة، وحِيْلَ بينهُما عمَّ الظلم والجَور، وهضْم الحقوق واختلَّ نظامُ العدل، وعَمَّت الفَوضَى، وأصبح النظامُ الْجِنْكِيْزِيّ هو السَّائِدَ.[1]

سلام الله على ذي القرنين، لقد كان قدوة صالحة وأسوة حسنة لكل من أعطاه الله الملك، ومَكَّن له في الأرض.

---

[1] مقتبس من شعر محمد إقبال -رحمه الله- الذي نصه بالأردي:

جلالِ پادشاہی ہو کہ جمہوری تماشا ہو

جدا ہو دیں سیاست سے تو رہ جاتی ہے چنگیزی

هذه القصة تكشف عن سنة الابتلاء، وتبين أسباب دوام النِّعم وازديادها، وأسباب زوال النعم و حرمانها.

قصَّة أصحاب الجنة

1 - الابتلاء سنة جارية

بين أيدينا قصَّة أخرى من قِصَص القرآن العظيم، ذكرت هذه القصّة في سورة القلم بأسلوب مناسب وملائم لتلك السورة، بفواصل قصيرة وألفاظ رشيقة عذبة ممتعة، تبدأ القصّة بالمقصود دون ذكر ما لا يُحتاج إليه من المكان والزمان والأشخاص، افتتحها الله بقوله: {إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحابَ الْجَنَّةِ، إِذْ أَقْسَمُوْا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِيْنَ}.
(سورة القلم:17)

بلونا كفار مكة كما بلونا أصحاب الجنةِ المعروفِ خبرُهم وقصتهم عندهم، اختبرنا هؤلاء كما اختبرنا أولئك بالنعم والأموال والجنة، وهذه سنتنا، وتلك عادتنا، وَنَبلُوكم كما بلوناهم.

فالابتلاء والاختبار سنة جارية في الخلق بدونِ اسْتِثْنَاء أحد، والمجازاةُ والمُكَافَأَةُ تكونان بالابتلاء والاختبار، فيستمر البلاء والاختبار، يُبتَلى كل فرد، و تُبتلَى كل جماعة، فَيُجَازَى

كلُّ أحد حَسَبَ أعماله كما جُوْزِيَ أصحاب الجنة بأعمالهم، وسنة الله لا تُحَابِي أحدًا.

2 - ما قيل لهم يقال لنا

القرآن الكريم نزل أوّلَ ما نَزل مُخاطِبًا الناس الموجودين آنذاك، نبَّهَهُم وقرع أسماعهم، ونهاهم عن المنكرات، وأمرهم بالصالحات، وضرب لهم أمثالًا، وقصّ عليهم القصص، فليس المراد بذلك أن خطاب القرآن مخصوص بقوم كان في زَمنِ نُزول القرآن، وبأمةٍ موجودة زَمَنَ الوحي، بل الخطاب القرآني مُوَجَّهٌ إلى كل مكلّف و يعمُّ كل إنسان إلى أن يَرِثَ الله الأرض ومَنْ عليها.

فما قيل لهم يقال لنا، إن قيل لكفار مكة: "بلوناكم" يقال لنا: "نبلوكم" إن امْتُحِنَ كفار مكة بالنِّعم والآلاء كما امْتُحِنَ أصحاب الجنة، فَسَنُمْتَحَنُ نحن ولا بدَّ، إن فعل كفار مكة كما فعل أصحاب الجنة فقد جُوْزُوْا مثلَ جزائهم، وهكذا نحن سَواءً بِسَوَاء، وَليس بين الله وبين أحدٍ من خلقه قَرَابة، لقد أعطى الله أصحاب الجنة النعمة العظيمة، ولكنهم لم يشكروا هذه النعمة، وأعرضوا عن طلب مرضاة الله وعن شكر نعمته.

وكثرة النعم وسَعَة الرزق قد أوقعت من قديم الزمان أصحابها في بطر النعمة وإهمال الشكر، هكذا أمدّ الله أهل

مكة بنعمة الأمن ونعمة الرزق، وجعل الرزق يأتيهم من كل جهة، ويسّر لهم سُبل التجارة، لهم رحلة في الشتاء صَوْبَ اليمَن، ورِحلة في الصيف نحو الشام، ثم أكمل لهم النعمة بإرسال أعظم الرسل وخاتم الأنبياء -صلى الله عليه وسلم- منهم؛ لِيُصْلِحَ أحوالهم ويهديهم إلى ما فيه النعيم الدائم، أعطاهم هذه النعم ليشكروا لا لِيَبْطَرُوْا، فلما بَطِرُوْا ابتلاهم بالجوع والقحط كما ابتلى أصحاب الجنة بحرمان الجنة، وقَصّ الله عليهم هذه القصّة ووَبَّخَهُمْ بهذا التمثيل كي يستفيقوا عن غفلتهم ويجيبوا دَاعِيَ رَبِّهِم.

3 - إذ أقسموا

كان هناك جنة دَانِيَةٌ قُطوفُهَا، فَوّاحة أزهارها، جارية جَدَاولُها، وفيها من الأشجار والثمار والأعناب والزروع شيء كثير، وكانت هذه الجنة لرجل صالح، وكان هذا الرجل الصالح يراعي هذه الجنةَ، وكان يسير فيها سِيرةً حسنةً، يدور في جَنَبَاتها ثم يذهب إلى مُصَلَّاه فيسجد لله شاكرا لأنعمه، وكان هذا الرجل قد طَعَنَ في السِّنّ، وأصبح شيخًا كبيرًا، وفي حديقة هذا الشيخ نصيب للمساكين غير منقوص، وكان من عادته أنه يَدَّخِرُ لِعِيَاله قُوْتَ العام ويَتَصَدَّق بالباقي من زرعها، كان ينادي الفقراء والمساكين وقت الصِّرَام وقَطع الثمار، فيعطيهم ثمارهم وافرةً، هذا يملأ مكتله، وذاك يحمل في

ثيابه، ولهم بعد ذلك ما أَخْطَأه المِنْجَل، وما تركه الحاصِـد، وما تناثر بين الأشجار رزقًا حلالًا طيبًا.

وكان يجري على هذا كلَّ عام، لذلك بارك الله له في رزقه وعياله، ولكن لم يمكث الشيخ طويلًا حتَّى لَفَظَ آخِرَ أنفاسِه، وفرغ من شؤون الناس والحياة.

فَلَمّا مات هذا الرجل الصالح قال بنوه: إن فعلنا ما كان يفعل أبونَا ضاق علينَا وينقص من أموالنا، والله إن المال قليل، وإن العيال كثير، فلا يَسَعُنَا أن نفعل كما كان يفعل أبونا، فَائْتَمَرُوا بينهم أن يذهبوا باكرًا قبل استيقاظ الناس، وحلفوا ليصرِمُنّهَا ولَيَقْطَعُنَّ ثمارها وقت الصباح مبكرين، قبل أن يراهم أحد من ذوي الحاجات، خفية عن المساكين كيلا يعطوا الفقراء شيئًا، ولا يأخذ الفقراء ما كانوا يأخذونه في زمن أبيهم، وكأنّهم رفعوا شعارَ"لا للفقراء بعد اليوم" "لا للمساكين بعد اليوم" "لا للمحتاجين بعد اليوم".

بَيَّتُوا ذلك وأقسموا أيمانَهُم على ذلك ليلزموا أنفسهم بما تشاوروا فيه، وكان أحدهم متردّدًا في مُوَافقتهم على ما عزموا، وقد نهاهم عن هذا العزم الظالم، ثم دخل معهم في مَشُوْرَتِهم كارهًا لأمرهم غيرَ طائع، وناموا على هذا العزم الجائر، فصارت عاقبتهم إلى ما قصّ الله في كتابه يقول -تعالى-: {إِذْ أَقْسَمُوْا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِيْنَ}. (سورة القلم:17)

4 - ولا يستثنون

كان أبناء الشـــيخ الذين وَرِثُوا الجنةَ عن أبيهم عازمين على ســـوء نيّتهم، مُصَـــمِّمِين على صـــرمها، وقطع ثمـارهـا مُصـبحين، قد سـيطر عليهم الشُـحّ، وهَيْمَنَتْ عليهم الأنانيّة، وحســـبوا أن هذا الأمر في طَوْعِ أيديهم و تحت إرادتهم، وليس ثَمَّة مانِع يمنعهم منه، ولهذا أقسموا و حلفُوا و لم يستثنوا في يمينهم، و لم يقولوا "إن شـــاء الله" لنصـــرمنها و لنجُذنَّهَا، لم يُعَلِّقُوا عزمهم بمشـيئة الله، لأنهم على ثقة بأنهم يتمكنون من ذلك لا مَحَالة، وهـذا يـدل على ازدهـائهم وغرروهم بســـعـة الرزق ونسـيانهم شُـكرَ الله، لأنهم يحسـبون أنه إذا عزموا على فعل شيء لا يتوقعون له عائقًا.

ويمكن أن يكون المراد بقوله -تعالى- {وَلَا يَسْتَثْنُوْنَ}.
(سورة القلم:18)

أنهم عزموا على أن لا يتركوا شـــيئًا منها للمســـاكين، ولا يستثنون للفقراء والمحتاجين نصيبَهم الذي كان أبوهم يدفعه إليهم.

لقد غفل أصـحاب الجنة عن أن الله يســمع ســرهم ونجواهم، لقـد غـاب عنهم حين يـدبرون ويخططون لحرمـان الضـــعفاء والمســـاكين من غير اســـتثناء "أن الجزاء من جنس العمل"، فمن أكْرم النـاس أكرمـه الله، ومن أعطـاهم أعطـاه الله وزاده ومن حَرمهم حَرَمَـه الله، ومن منعهم الخير منعـه

الله.[2]

5 - أثر النية

نية المرء في كل إرادة وعمل هي المحل الأول للعناية والرعاية، لأنها تُؤَثِّر على العمل أثرًا كبيرًا، وبالنية تُعرف صحةُ العمل وفساده ونقصه وكماله وقبوله ورَدُّه، إذا كانت للرجل نية صالحة لعمل مًّا فلم يعملْه كان له أجره وثوابه، ونية المؤمن خيرٌ وأَبلغ من عمله، أصحاب الجنة بَيّتُوا سوءَ نيتهم وعزموا على حرمان المساكين فحُرِمُوا قبل أن يُحْرَمَ المساكين، وجُوْزُوْا بأسوء ما يُجزى به البخيل الشحيح.

ناموا على سوء نيتهم وخُبْث طَوِيَّتِهِم، فعمِلت نيتهم عملَها، خرَّبَت بستانهم، وأحرقت حديقتهم، وحرمَتْهم كلَّ ما في الجنة، ولو ناموا على حسن النية ولو لَم يعطوا المساكين شيئًا من نِتَاج جنتهم لأُجِرُوْا وبُورِكَ لهم في جنتهم، ولكن باتوا بالشر فيما عقدوا النية عليه، فأذهب الله بأيديهم رأس المال والربح والنتاج، فلم يَبْقَ لهم شيء وحُرِمُوا خير جنتهم بسوء نيتهم.

6 - نزول العقوبة

كادوا لحِرْمَان المساكين كَيدَهم وناموا، فإن نامت أعينهم فإنَّ عين الله لا تنام، وهو يكيدهم غير ما كادوا للفقراء،

---

[2] **الملاحظة:** الاستثناء هنا له معنيان: القول بـــ"إن شاء الله". وإخراج الشيء من الحكم السابق العام، وبكلا المعنيين فسّر العلماء هذه الآية.

وجنوده تتحرك في ظلام الليل، فنزلت العقوبة الإلهيَّة في سُدفَة الليل، وطاف على تلك الجنة طائف من الله تعالى، أصابتها آفة سماوية حتى اسْوَدَّت وأصبحت كالليل الأسود المُظْلِم، ذهبت الاشجار والثمار، وبادت الجنة بأسرها، وهم لايشعرون بهذا الحادث المُلِمّ، حدث كل ذلك في الليلة التي قرَّرُوا فيها جَمْعَ المحصُول وجَنْيَ الثّمار وحرمان الفقراء والمساكين، لم تترك هذه الجائحة السماوية شجرة بل فرعًا بل ثمرة واحدة، كل هذا وهم نائمون.

وانشقّ النور وتَنَفَّس الصبح، فماذا عن الجنة؟! أصبحت كالصريم كأنها الليل، سوداء أحرقها الإعصار، فهل ترى لها من باقية؟! جرى كل هذا وهم بعيدون، لا يدرون بالأمر شيئًا، يقول أصدق القائلين: {فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّنْ رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُوْنَ (19) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيْمِ}. (سورة القلم: 19-20)

7 - التعاون على الإثم

أصــبحوا ولم يدروا بما حدث في البارحة، وانطلقوا مصــممين على ما أرادوا، ولم يرجعوا عن خبث طويَّتهم، بل نادى بعضهم بعضًا وقت الصَّباح للتعاون على الإثم والعدوان المُبَيَّتَيْن: اخرجوا مبكرين في الصــباح إلى قطع الثمار والزرع، اذهبوا غدوة إن كنتم مصرين على الجُذاذ والصِّرام، فانطَلَقوا يمشــون على عَجَل، وهم يُسِــرُّون الكلام بينهم لئلا يعلم أحدٌ

بهم، ولا يسمعهم أحدٌ، ذهبوا إلى الجنة وهم يتهامسون بينهم، لا يدخُلن هذه الجنة اليوم عليكم مسكين، لا تُمَكِّنَنَّ اليوم فقيرًا يدخل عليكم فيطلب منكم أن تعطوه منها ما كان يعطيه أبوكم.

ذهبو في الغداة مبكرين وهم يزعمون أنهم قادرون على الصِّرام ومنع المساكين وحرمانهم، يا لَلّه! ما أشَدَّ بُخلَهم وشحّهم! وما أكثر جَشَعَهم! وما أقوى أَنَانِيَّتَهم! صوّر لنا القرآن هذا المنظر العجيب، وصوَّرَ هذا البخل والشح، وذلك الجشع وتلك الأنانيةَ بجُملٍ كثيرة الفواصل بليغة اللسان كثيرة المعاني، فقال سبحانه: {فَتَنَادَوْا مُصْبِحِيْنَ(21) أَنِ اغْدُوْا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صارِمِيْنَ (22) فَانْطَلَقُوْا وَ هُمْ يَتَخَافَتُوْنَ (23) أَنْ لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِيْنٌ (25) وَّغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِيْنَ}. (سورة القلم: 21-25)

8 - فلمّا رأوها

لمّا وصلوا إلى الجنة مُسرعين، وشاهدوها على تلك الحالة المؤلمة من الاحتراق والسواد، قال بعضهم لبعض: أهذه جنتنا؟! وقد تركناها بالأمس مُوْرِقة الشَّجر ، جارية الماء، دانية القطوف، يانعة الثمار! ما نظن أن هذه حديقتنا!، وإننا لضالون، قد أخطأنا طَرِيقَ جنتنا وتِهْنَا في الوصول إليها، ليست هذه جنتنا؟! ولكن أليست هذه المعالم الكثيرة تدل على أن

المكان هو المكان؟! بلى، إذًا لَسْـنَا تَائِهِين، وما ضـللنا عن طريق الوصـول إليها، لسـنا مخطئين للطريق، بل نحن محرومون، حُرِمنا جَنَاها وَثمرها بجِنايتنا على أنفسـنا، حُرِمْنَا خير هذه الجنةِ بسـبب عزمنا على البخل ومنع المسـاكين، التقصـير منّا، والحرمان من أجلنا، يقول تعالى: {فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَـآلُّوْنَ (62) بَلْ نَحْنُ مَحْرُوْمُوْنَ}. (سورة القلم: 26-27)

9 - قال أوسطهم

هنا يتدخل من شـاركهم في عزمهم كارهًا، وقد منعهم فيما قبل عن هذا العزم الجائر، وهو أعقلهم وأفضلهم رأيًا، فقـال ألم أحثكم على أن تـذكروا اللّـه وتتقوا هـذا العزم الذميم؟! ألم أقل لكم حين عزمتم على ما عزمتم عليه من حرمان الفقراء منها: هَلَّا تسـبحون اللّه وتتوبون إليه.! {قَالَ أَوْسَـطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُوْنَ}. (سورة القلم: 28). بلى، قد قال من قبل ولكن لما كان رأى إعراضهم ضَعُفَ أمامهم، وكان حَرِيًّا به أن لا يضـعف، وأن يسـتمرّ على نصـيحته وأن يدوم على معارضة المنكر.

فلمَّـا نَبَّهَهُمْ ووبّخهم ذلـك العـاقـل، وذكّرهم بـالكلام الأوّل، عادوا إلى رشـدهم، وزالت سـكرتهم وغفلتهم، واشـتغلوا بالتوبة وقالوا جميعًا: {قَالُوا۟ سُبْحَانَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِيْنَ}.

(سورة القلم: 29)

اعترفوا بظلمهم وقالوا: اللّه منزَّهٌ عن الظلم فيما فعل، بل ظلمنا أنفسنا في منعنا حَقَّ المساكين، وأيُّ ظلم أعظم من أن يُمْنَعَ صاحبُ الحق حقَّه؟! وأيُّ ظلم أعظم من أن تُجْحَدَ نعمةُ اللّه -تبارك وتعالى-؟!.

10 - التلاوُم لا يُجْدِي

تَصَوَّرْ حالَ قوم وهم على جنّة مُحْرَقة صارت كالليل الأسود، وأضحت كالرّماد! تَخَيَّلْ كيف كان حالهم إذا خابت آمالهم وضاعت أموالهم ومساعيهم! وهم في شُرُوْد وذهول! كأن كل واحد منهم في وادٍ بعيدًا عن صاحبه، لقد صمّموا أن يكون المنع والحرمان للفقراء والمساكين فأبى الله إلا أن يكون لهم، وهاهُمُ الآن يلوم بعضهم بَعضًا.

وكأنك بهم يقول بعضهم لبعض: أنت أَشَرْتَ عَلينا بهذا الرأي، ويقول هذا: لا، بل أنت، ويقول ذلك: أنت الذي خوّفتنا الفقر ورغَّبْتَنا جمع المال، ويقول آخر : لا، لست أنا الذي بدأت، أنت الذي قلت هذا، ويقول آخر: إِيْه، لقد نصحتكم فَأَبَيْتُم الاستماع، ويقول آخر: ويح فلان، لقد كان هو السبب في كل شيء، وهو الذي اقترح علينا هذه الفِكرة المَشْئُوْومَة.

قد أفرغوا ما في جَعْبَتِهِمْ من تلاوم، ولكن ما ذا يجدي؟ لا يجدي التلاوم شيئًا، مضى قدر وبقي أسف، وهاهم يدعون

على أنفسهم بالويل والهلاك، يَا وَيلنَا إنا كنا طاغين، لقد تجاوزنا الحدّ في الكبر والبخل والجشع، إنا كنا طاغين على حدود اللّه بمنع الفقراء وترك الاستثناء، طغينَا نعم اللّه، فلم نشكرها كما كان يشكرها أبونَا من قبل، ثارت في نفوسهم جَذْوَةُ إشْراق، ولكن بعد ماذا؟! بعد حلول الدَّبْرَة وخرابِ البصرة.

بعد هذا التلاوم واعتراف الخطيئة رجعوا إلى الله وسألوه أن يعوضهم بخير منها، ووعدوا أنهم سيرغبون إلى الله لا إلى غيره؛ لأن غيره لن ينفعهم شيئًا، أعلنوا توبتهم، وأخلصوا نيتهم، وتعاهدوا لإن أبدلنا الله خيرًا منها لنصنعن كما كان يَصنَع أبونا، يقول تعالى: {فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَّتَلَاوَمُوْنَ (30) قَالُوْا يَوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَاغِيْنَ (31) عَسَى رَبُّنَآ أَنْ يُّبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَى رَبِّنَا راغِبُوْنَ}. (سورة القلم: 30-32)

11 - كذلك العذاب

في نهاية القصّة يُعَقِّبُ القرآن عليها ويذكر العبرة والعظة الحاصلة منها، يقول تعالى: {كَذَلِكَ الْعَذَابُ، وَ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ، لَوْ كَانُوْا يَعْلَمُوْنَ}. (سورة القلم:33)

سبحان الله! ما أعظم أسلوب القرآن! وما أجمل تعقيبه على القصّة! هل رأيت تعقيبًا يَصلُح لهذه القصّة أحسن من هذا التعقيب؟! وهل رأيت نهاية للقصة أروع منها؟ اللهم لا، وهكذا القرآن الكريم في جميع القصص.

ففي هذه الآية خُلاصـــة لِمَا قَبلها من القصـّـــة، ولفظ "كذلكَ" يحوي في طَيَّاتِه كل ما يحصـــل من القصـّـــة من عبر وعظات، وما تضمنته القصّة من تلف جنتهم، وما أحسُّوا به عند رؤيتها على تلك الحالة، وتندّمهم وتحسُّرُهُم.

مثل ذلك المذكور كله يكون العذاب في الدنيا، ومثل هذا العذاب يكون لكل من يُخالف أمر الله، ويَبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه، ويَمنع حق المسـكين والفقير، وكل ذوي الحقوق ويزدهي ويغتَرّ بماله وقدرته، وإن عذاب الآخرة أشـدّ وأعظم، وأشق من عذاب الدنيا، فمن يسلك مسلك أصحاب الجنة، ويحذو حَذوَهم، يُفعل به كما فعل بهم في الدنيا، وإن لم يعتبر بالعذاب الأدنى في الدنيا، ولم يَرْعَوِ عن غَيِّه وضلالِه فله العذاب الأكبر في الآخرة.

لو كان الناس يعلمون عذاب الله وبَطْشَــه الشـديد لعادوا إلى رشـــدهم، وبادروا إلى الإيمان والتوبة، وأقلعوا عن الغيّ والضَّـلال، ولكنهم في غفلتهم وجهلهم وبعدهم عن الحق والصواب، لا يعلمون ولا يعتبرون ولا يَنْزَجِرُوْن.

فهذه قصَّـــة أصـحاب الجنة، وتلك العبر والعظات المُسْتَفَادَة منها، فهل نتعّظ؟! وهل نعتبر؟ اللهم وَفِّقْ وسَدِّد.

قصة أصحاب القرية تحكي لنا أهمية الدعوة، وطرقها وأساليبها، ومسؤولية الدعاة، وعاقبة المعاندين المعارضين.

أصحاب القرية

1 - الصِّرَاع بين الحق والباطل

الصـراع بين الحق والباطل، بين الإيمان والكفر، بين الصـدق والكَذِب قديم قِدَمَ العالَم، ولا يزال حتَّى قيام الساعة، جاء الأنبياء والمرسلون بالحق البين والصدق التام، فعارضه المبطلون في كل زمان ومكان، وفي النهاية يزهق الباطل ويذهب كالزَّبَدِ جُفَاءً، أما الحق فيمكث في الأرض ويثبت ثبوتَ الرَّوَاسِي.

وفي القصص القرآنية تتجلى مشاهد مختلفة متنوعة، وتلوح معارك ضارية فاصلة بين الحق والباطل، ولما كان الأنبياء والمرسلون كلهم -عليهم الصلاة والسلام- أئمَّةَ الهُدى والحق والنور تعرضوا لِلأذَى ولاقوا المصائب في سبيل إحقاق الحق وإبطال الباطل.

وهكذا كثيرٌ من الصالحين والربانيين الذين سلكوا سبيل الأنبياء، واقتفوا أثرهم، وأيَّدُوا الحق، وصدَّقُوا المرسَلِين، تَحمَّلوا في ذلك من الشدائد والأذى ما تحملوا.

أما إمامهم وسيدهم محمد -صلى الله عليه وسلم- فقد واجه أشد المعارضة، وأصْعَب المخالفة، وأكثر الأذى في هذه السبيل، بُعِثَ إلى الناس كافة بالحق والصدق، فَبَلَّغَ دعوته، وأَدَّى أمانته، ونَصَحَ أمّته، ولكن كثير من الناس لا يحبون الناصحين، ولا يقبلون الحق والصدق، فأبوا إلا أن يعارضوه، ويكذِّبوه، ويُؤذُوْه، كما عُورِض وكذّب وأُوذي إخوانه من الأنبياء والمرسلين من قبل، فجاء القرآن يقصّ عليه قصص أهل الحق والصبر والثبات، يثبت به فؤاده، ويسلِّي به قلبه، ويَشُدُّ به عَضُدَه.

وفي سلسلة القصص القرآنية قصَّة عجيبة، مليئة بالعبر والعظات، تعرض مشاهد عدة، ومعارك فاصلة بين من يحمل لواء الحق والصدق، ومن يرفع عَقِيْرَتَه بالباطل والضلال، وهذه القصّة في سورة "يس" من الآية الثالثةَ عشْرةَ إلى الآية الثانية والثلاثين، فتعالوا نقرأها، ونَقْتَبِس من سَناها وهُداها.

2 - أصحاب القرية

مَن أصحاب القرية؟ وأين تقع هذه القرية؟ وفي أي دولة كانت هذه القرية؟ وفي أيّ زمن وقعت هذه القصّة؟ تفاصيل كل ذلك طَوَاهَا القرآن الكريم كما عرفناه من كريم عادته، وأوجز أسلوبه وأنفع تركيزه، لأنه يركز على المقصود

ويدع ما لا يجدي في المقصود، يُقَدِّمُ اللُّبَاب ويرمي بالقِشْر، لو كانت في تعيين هذه القرية وذكر أسماء أصحابها فائدة لَعَيَّنَهَا القرآن، وذكر أسماءَ أهلِها جُمْلةً وتفصيلًا.

فالتعرض لما أبهمه الله ولم يعينه من باب التكلّف والتكلّم بلا علم، ولو تكلّم أحد في مثل هذا لوجدتَّ عنده اختلافًا واضطرابًا وخلطًا بين الأحداث والأبحاث، فالطريق الصحيح للعلم والمعرفة الوقوف مع الحقائِقِ واليَقِيْنِيَّات، وترك التعرض والبحث عما لا فائدة فيه.

ومن اليقين أن هذه القرية كانت تحت أديمِ السَّماء في سالف الأيام، قبل مبعث سيد الأنام -عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام-، وقد بعثَ الله إلى أهلها اثنين من الرسل أولًا، ثم أيَّدَهُما برسول ثالث، فهؤلاء الرسل الثلاثة دعوهم إلى الحق والإيمان، وهذا ما ذكره القرآن.

وفي هذه القصّة دورٌ بارزٌ لرجل مؤمن صالح جاء يسعى لتأييد الرسل الثلاثة ونصرهم وبيان الحق والصدق لقومه، وما دار بينه وبين قومه ذكره القرآن الكريم لأهميته وفوائده وكونه حاويًا العِبر والعظات، يقول -تبارك وتعالى-:

{وَاضْرِبْ لَهُمْ مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ، إِذْجَاءَهَا الْمُرْسَلُوْنَ}.

(سورة يس: 13)

3 - تعدد الرسل في قرية واحدة

إن الله -عزوجل- لا يحب الفساد والضلال في الأرض، ولا يرضى لعباده الكفر، لذا بعث الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- إلى الخلق لمنعهم من الفساد والضلال، ونهيهم عن الكفر، بعث إليهم الأنبياء لإقامة الحجة عليهم لئلا يقول الناس يوم القيامة: إنه لم يأتهم خبرٌ عن الله، ولم ينههم أحد عن الكفر، ولم يمنعهم أحد من الفساد والضلال، فبعث الله رسله تَتْرَى، وكثيرًاما يتوافَر عدد من الأنبياء في زمن واحد، وربُّما في قرية واحدة.

بُعث إلى هذه القرية ثلاثة أنبياء، لأن أهلها أكثروا في الكفر والفساد والعُتُوّ، وبَعُدُوْا عن الحق والهدى بُعدًا كثيرًا، فَاحْتِيْجَ إلى أن يُبعث إليهم أكثر من رسول، فَبُعِثَ إليهم رسولان أولًا، جاءاهم ودعواهم إلى الله، وكذَّبوهما فبُعث على آثارهما رسول ثالث، زِيْد هذا الرسول الثالث اعتناءً من الله بهم، وإقامة الحجة عليهم، زِيْدَ لهداية هذه القرية وللدعاء إلى الله، زِيد لأن الله رؤوف بخلقه، رحيمٌ بهم، لا يُحِب الفساد والكفر منهم، زِيد لتقوية موقِفهما وشوكتهما في مواجهة عناد الكافرين، فأيَّد بعضهم بعضًا، وقَوَّى بعضهم بعضًا، وقالُوا جميعًا: "إنا إليكم مرسلون".

فعُلم من هذه القصّة أنه ربما يكون تعدد الرسل مع اتِّحاد المُرْسَل إليهم، وفي هذا تقوية فِعْلِيَّة، لم يُرسل علّام الغيوب الرسل الثلاثة مرة واحدة، بل أَرْجَى الثالِثَ عنهم، ثُم بعثه وعزَّزَهُما به، وهذا تدبير وتقدير عظيم من الله -سبحانه وتعالى-، وتعليم لتخطيط منهج الدعوة، يقول -تعالى-: {إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوْهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوْٓا إِنَّآ إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُوْنَ}. (سورة يس: 14)

4 - أصحاب القرية والرسل وَجْهًا لِوَجْهٍ

كانت هذه القرية التي بُعث إليها هؤلاء الرسل الثلاثة قرية ظالمة وعنيدة، فواجه هؤلاء الرسل من أهلها عنادًا وتكذيبًا وتهديدًا، بدأ الرسل بما يُبدأ به الدعوة الإسلامية من التوحيد ونبذ الشرك وعبادة الأصنام، ودَعَوْا أصحاب القرية إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، دعوهم بحكمة ورأفة وشفقة، ووضَّحُوا لهم أننا رسل الله، بُعثنا لأجل هدايتكم، ولكن القلوب القاسية محال أن تزول قَسْوَتُها، وغير ممكن لها أن تَسْمع النُّصحَ فَتَلِيْن بها، هكذا كان أصحاب القرية، لم يُصغوا إلى ما يقال لهم، بل اتهموا هؤلاء الرسل، وأجابوهم بجواب مشهور عند كل من يَرُدُّ دَعوةَ الرسُل، وقالوا: أنتم بشر مثلنا تأكلون الطعام، وتمشون في الأسواق، وليس لكم مزيَّة علينا تختصون بها، لو كنتم رسلا كما تقولون لكنتم ملائكة، فكيف

تدَّعون الرســالة؟! ما أُنْزِل إليكم من وحي ولا كتاب، وما أُمِرْتُم فينا بشيء، فما أنتم فيما تدعون من الرسالة إلَّا كاذبون.

وهذه شُــبْهَةُ كثير من الأمم المُكَذِّبَة، ومن لم يعرفوا حقيقة النبوة والرســالة، تُخالف الرســل لبشــريتهم، بيد أن هذه الشــبهة ليســت بصـحيحة البتة، وإنما الباعث عليها الاعتزاز بالنفس والاســتعلاء والاســتكبار، والحقيقة أن من الضــرورة أن يكون الرســل من جنس المرســل إليهم، حتَّى لا يبادر إلى الإعراض بحجة المغايرة والمخالفة، وكي يكون الرســل قُدوات كاملة وصالحة في جميع شؤون البشر، يقول الله تعالى حكاية عنهم: {قَالُوْا مَآ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَــرٌ مِّثْلُنَا، وَمَآ أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُوْنَ}. (سورة يس:15)

ســمع الرســل الاتهام بالبشــرية وجوابهم الذي ليس إلا تعنتًا واســتكبارًا، فأجابهم لإثبات رســالتهم بكلامٍ مؤكدٍ بتأكيدٍ بليغ، لأن القوم أنكروا رســالتهم إنكارًا شــديدًا {قَالُوْا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُوْنَ (16) وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِيْنُ}. (سورة يس:16-17)

الله يعلم أننا رســله إليكم، وكفى بذلك لنا حجةً أنه يعلم أننا رســله المبعوثون إليكم، ولو كنا كذبةً كما تزعمون لانتقم منا أشــدَّ الانتقام، اسْــتَشْــهَدُوْا بعلم الله وهو يجري مجرى القســم، كأنهم أكدوا الجواب بالقســم لقوم معاندين كي ينزلوا عن كبريائهم ويسمعوا ما يُقال لهم.

إنكم في الخيار في هذا الأمر، ولا يكون لنا أن نجبركم على الإيمان، وليس لنا أن نكرهكم على التصديق، ليس علينا إلا أن نبلغكم رسالة الله كما أُمِرْنا بلاغا واضحا جليا بدون نقص ولا شَطَطٍ، فإن آمنتم فلكم السعادة الأبدية، وإن كذَّبتم فلكم الشقاوة السَّرْمَدِية.

5 - سِلاح المكذبين

من ترك الحق عنادًا، ولم يؤمن به كبرًا وتمردًا فهو لاينتفع بالدليل والبرهان أبدًا، الأنبياء والمرسلون -عليهم السلام- جاؤوا بدلائل واضحة وبراهين قاطعة على صدق رسالتهم وبِعْثَتِهم من الله -تعالى-، ولكن أكثر الناس لم يؤمنوا بهم، بل كذبوهم عنادًا واستكبارًا، الدلائل والبراهين تفيد من يتطلب الحق وهو مشتبه عليه، والنصح ينفع مَن يُلقي السمع وهو يريد وضوح الحق، وكيف ينتفع من لا يستمع؟! وكيف يسمع من لا يريد السَّمَاع؟! مَن جزم بعَدَم الاستماع و أقسم على ترك اتباع الحق و رفض الدليل فلا حيلة تنجح معه، ولا نصح يؤثر فيه، المكذبون المعاندون لا يستمعون إلى دعوة الأنبياء، بل يَنْصِبُوْن بينهم وبين دعوتهم عِدَاءً.

وسلاح المكذبين في كل زمان ومكان الاتهام بِتُهَمٍ شَتَّى، مرة بالبشرية، وتارة بالسحر والجنون والسفاهة، وأخرى بالتشهير والإساءة، يَتهمون أولئك صَفْوَةَ الخلق وأعقل الناس

وأرحم الناس بهم بالكذب والجنون والسِّحْر، إذا لم يجدوا شيئًا للمخالفة ورفض دعوتهم اتهموا هؤلاء الأبرياء الأصفياء بتُهَم لا تَمُتُّ إليهم بصِلة.

أهذا عيب أن يبعث الله للناس برسالته بشرًا مثلهم؟

أهذا عيب أن يقوم لهداية الناس وإصلاحهم إنسان ينتمي إليهم؟! أبدًا، هذا ليس بعيب، العيب كل العيب أن يبعث لهداية الناس وإرشادهم من ليس من جنسهم، ومن ليست طبيعته كطبائعهم، وكيف يعلِّم الناس أسلوب الحياة وطريقة الأكل والشرب من لا يأكل ولا يشرب ولا يحتاج إلى ما تحتاج إليه البشرية جمعاء؟!.

6 - إنا تطيرنا بِكم

لما ضاقت صدورهم، وأعْيَتْهم الحِيَل، ولم يجدوا جَوابًا يجيبون به على الرسل، قالوا لهم بِكل دَنَاءَة وخَسَاسَة: إنا تطيرنا بكم، إنا تشاءَمْنَا بكم، ونحسب وجودكم فينا سببًا في حلول المصائب.

يا للعجب! يحسبون وجود من يُعَرِّفُهُم بربهم سببًا في حلول المصائب والإضرار بهم، فيتشاءمون بهم! أو لم يعلموا أن السبب الرئيس في حلول المصائب كُفْرُهُم وإعراضهم وعنادهم، ياللأسف الشديد! مَن كان قُدُوْمُهم عليهم أَجلَّ نعمة من الله على العباد، وأعظمَ كَرامة يكرمهم الله بها،

وضــرورتهم إليهم فوق كل ضــرورة، وحاجتهم إليهم أشــد من حاجتهم إلى الطعام والشــراب، جعلوا قدومهم ومجيئهم إليهم تطيرًا وتشــاؤمًا، إن هذا لَمِن أعجب العجائب! نســبوا التَّطَيُّر والتشــاؤم إلى الذين تُدفع ببركتهم المصــائب والمجاعات، اتخذ أصــحــاب القريـة هـذا الســلاح المجرَّب ذرِيعةً لرفض دعوة الرسل الثلاثة، ومنع الناس عنهم.

وهـكـذا يـفـعـل الـكـفـار والمشــركون مع أنـبـيـاءهـم وصــلحائهم، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تُذكر، لذلك كان ولم يزل التطير والتشاؤم من شِعار أهل الكفر والشرك.

لم يكتفِ أصــحــاب القرية بهذا، ولم يقفوا عند هذا الحد، بل رجعوا إلى التكبر والتهديد، هَدَّدُوهم بالرجم والقتل والعذاب الأليم، وقالوا لهم: لئن لم تتركوا هذه الدَّعْوَى، ولم تَكفُّوا عن هـذه الـدعوة، ولم تُعرضــوا عن هـذه المقـالـة لنرجمنكم بالحجارة، ونقتلنكم أَشْنَعَ القَتَلات، لقد صدق من قال: "عدم التوفيق يَصــنع بصــاحِبه أعظم مما يَصْــنَعُ به عُـدُوُّه". يُخبر العليم الخبير عن كل ذلـك ويقول: {قَـالُوٓاْ إِنَّـا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ، لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهُوْا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّــنَّكُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيْمٌ}. (سورة يس:18)

7 - الشؤم في المعاصي

لما نسب أصحاب القرية التطير والشؤم إلى هؤلاء الرسل الكرام، أجاب الرسل عليهم دفعًا لهذا الزعم الباطل، {قَالُوْا طَآئِرُكُمْ مَّعَكُمْ، أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُوْنَ}.
(سورة يس: 19)

ليس شؤمكم بسببنا، وإنما شؤمكم بكم وبكفركم وعصيانكم، لأن الشؤم والتطير سببها المعاصي والآثام، وفيها أنتم مغرقون و منغمسون.

كيف تدَّعُون الشؤم فينا؟ أَمِن أجل تذكيرنا إياكم؟! أَإن ذكّرناكم ووعظنا كم ودعوناكم إلى التوحيد والايمان تشاءمتم بنا، وتَوَاعَدْتُمُوْنَا بالرجم والتعذيب؟! ليس الأمر كما زَعمتم، بل أنتم قوم عادتكم الإسراف في العصيان والإجرام، لا طِيَرَةَ فينا كما زعمتم، ولكنهم قوم غَشِيَت عُقولَكُمُ الأوهامُ، فظننتم مافيه نفعكم شُؤْمًا لكم، كيف يكون سببًا في الشؤم والتطير من جاء برحمة وخير؟ كيف يكون مصدر الشؤم مَن دعا إلى ما فيه خيري الدنيا والآخرة؟!.

أبدًا، ليس الشؤم معنا ولا فينا، بل أعمالكم وأرزاقكم وحَظُّكُم منَ الْخير والشر معكم ولازم في أعناقكم، إن أصابكم سوء فبأعمالكم، فراجعوا أعمالكم وحاسبوا أنفسكم، وأعيدو النظر في موقفكم مع الدعوة والرسل.

8 - الداعية النَّمُوذَجِي

لمّا هَمَّ أهل القرية بقتل الرسل بعد عجزهم عن الدليل والبرهان -وهذا ديدن أهل الباطل في كل زمان ومكان، إذا عجزوا عن الردّ بالعلم وَالدليل لجأوا إلى التجبُّر وَاستخدام القوّة- لما هموا به جاء "رَجُلٌ" يحمِل معنى الرُّجُوْلِيَّةِ وَ صِفاتها بِرُمّتها.

كان رجلًا في الحقيقة ولا تكاد تجد اليوم "رجلًا"، لأن الرجال قليلون، وَالرجال الْحَقِيْقِيُّوْن هُم الذين يتحملون المسؤوليَّة وَ يؤدونهَا في مثل هذه الحالة الحَرِجَة، وَ الناس إذا فقدُوا صفات الرجولية صاروا أشباه الرجال وَ غثاءً كغثاء السيل، وَالرجال لا يُقَاسُوْن بضخامة أجسامهم وَ بَهَاءِ صُورهم، بل بمروءتهم وَشهامتهم وَ تَحَمُّلِ مَسْؤوليَاتِهم.

من أين جاء هذا الرجل؟ جاء من أقصى المدينة، المِشوار طويل!، جاء يقطع المسافة الطويلة لينصر الرسل وَيؤيدهم وَ يَدْعَمَهُم وَ يقف معهم، كيف جاء؟ جاء يسعَى، لَم يأتِ يَمْشي الهُوَيْنَى، وَإنما جاء يسعى، يمشي مشيًا شديدًا، وَسعيًا حثيثًا.

ماذا فعل الرجل بعد الجيئة؟ قام في القوم خطيبًا داعيًا إلى الله واتباع الرسل بألطف عبارة وَ أفضل إشارة، قام ناصحًا لقومه "قال يا قومِ" تلطَّف وَ تودّد وَ تواضع في دعوتهم، وَ نادى بنداء مَلِيْءٍ بالنُّصح والشفقة والنفع لهم،

حضّـهم على اتباع الرسـل، وَأمرهم بأن يكونوا معهم، وَأن يقفوا بجانبهم، يا قوم اتبعوا هؤلاء الصـادقين المخلصين، والدليل البيّن على صدقهم وإخلاصهم أنّهم ليسوا أصحاب مَطامعَ ماديةٍ، لا يريدون من الناس أجرًا دنيويًّا، ولا يريدون مَالًا ولا شَيْئًا آخر، لا يبغون إلّا هدايتكم ورشدكم وصيانتكم من الغيّ والضلال.

يا سبحان الله! ما أعظمه من داعية نموذجي! وأعظِمْ به رجلًا مخلصًا عَظيمًا! أثنى القرآن على هذا الرجل ثناءً عَطِرًا، وخلّد ذكره يتلألأ على صفحات القرآن، فهذا الرجل قدوة وأسوة في الإسراع إلى تغيير المنكر، والنصح للناس، والدعوة إلى الله بأسلوب دَعَوِيّ حكيم، يقول تبارك وتعالى: {وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِيْنَةِ رَجُلٌ يَّسْعَى، قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِيْنَ (20) اتَّبِعُوْا مَنْ لَّا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَّ هُمْ مُّهْتَدُوْنَ}.

(سورة يس: 20-21)

9 - أسلوب الدعوة المُقْنِع

دعا هذا الرجل العظيم وهذا الداعية الكبير قومه إلى الله -تعالى- وإلى اتباع الرسل بكل حِكْمَةٍ وبصيرة، واختار للدعوة أسلوبًا مقنعًا مناسبًا يؤدّي به ما يجب عليه، ويُسْمِعهم الحقَّ على وجه لا يُثِير غَضَبَهُم بأوّل وَهْلَة، قصد إعلامهم بأنه اتبع المرسلين، وترك عبادة الأصنام، ولكن أَبْرَزَ

الكلامَ في صورة استفهام إنكاري، وأظهر الكلامَ في معرض النصيحة لنفسه وهو يريد مناصحة قومه، فقال: {وَمَالِيَ لَآ أَعْبُدُ الَّذِيْ فَطَرَنِيْ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُوْنَ}. (سورة يس: 22)

أي مانع يمنعني من عبادة الذي خلقني؟! وما المانع لي من عبادة من هو المستحق للعبادة لأنه فطرني ورزقني ورباني؟! مالي لا أُوَحِّدُ الله -سبحانه- بالعبادة وهو الذي أوجدني وأنعم عليَّ؟! هكذا ابتدأ مخاطبًا لنفسه ليتلطَّف بهم ويدارئهم، ثم وجَّهَ الخطاب إليهم لبيان أنه ما أراد لنفسه أراد لهم، ليكون أعون على استماعهم وقبولهم إياه، حين يرون أنه لا يريد لهم إلَّا ما يُريد لنفسه، فقال: "وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُوْنَ" إليه المرجع والمآل يوم المعاد فيجازيكم على أعمالكم إن خيرًا فخير وإن شرًا فشرٌّ، فلا حُجّة عند من ترك عبادة الله وحده.

هكذا بأسلوب حكيم رَغَّبَهُمْ لعبادة الله، ورَهَّبَهُم من عقابه، ثم جاء بنفس الأسلوب وقال في صورة الاستفهام الإنكاري: {أَأَتَّخِذُ مِنْ دُوْنِهِ آلِهَةً إِنْ يُّرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّيْ شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَّلَا يُنْقِذُوْنِ (23) إِنِّيْٓ إِذًا لَّفِيْ ضَلَالٍ مُّبِيْنٍ}. (سورة يس: 23-24)

أَأجعل من دون الله آلهة وأعبدُها وأترك عبادة من يستحق العبادة؟! أأعبد هذه الأصنام التي لا تنفعني شيئًا إن أرادني الرحمن بسوء؟ أأتخذ من دونه آلهة لا شفاعة لها عند

الله؟ فكيف تُخَلِّصُنِي من وَرْطَةِ السوء؟! إذ لا تملك من الأمر شيئًا! وليس بوُسْعها دفعُ الضرر وجلبُ النفع، ولا تنقذ أحدًا من المصائب التي هو فيها، وهذه هي الحقيقة التي جاءت بها الرسل، فما المانع لكم من قبول دعوتهم؟

وهكذا بأسلوب لطيف ومقنعٍ أبطل اعتقادهم بأن الأصنام شُفَعَاء مقبولو الشفاعة، ووضَّح لهم أنه قد نال الصّواب ووجد الحق والسّداد، فإن حاد عنه قليلًا فإنه سيقع في خطأ واضح، وجهل فاضح، وضلال بيّن، وانحرافٍ مُرْدٍ.

لقد جمع هذا الداعية في كلامه بين نصحهم، والشهادة للرسل بالرسالة، والتعريض لبطلان عبادة الأصنام، وذكر البراهين عليها، والإخبار بضلال من يعبد هذه الأوثان، فسبحان من ألهمه أسلوب الدعوة المتميز! وألقى في قلبه حلاوة الإيمان والتَّفانيَ في سبيله!

10 - التصريح بعد التعريض

ما ترك هذا الداعية لقومه من نصح إلا بذله لهم، ولا عَلِم من طريق خير إلا عرضه عليهم، استخدم للدعوة إليهم أولًا أسلوب التعريض كي يُقْنِعَهم ويَدَعَ المجال لتفكيرهم، ولا يُثِيْرُ غضبَهم قَبل أن يُسمعهم ما لابد من أن يُسمِعهم، وهذا أسلوب لطيف مؤثر، طالما استخدمه الأنبياء ودُعاة الحق، ولكن لما كان المقام يقتضي التصريح بعد التعريض،

والإظهار بعد الإشارة، صرَّح وأعلنَ مع خوفه الشديد من أن يقتلوه، فصرّح بإيمانه تصريحًا لايبقى بعده شك، فقال: {إِنِّيْ آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُوْنِ}. (سورة يس: 25)

أعلن بإيمانه وقال لهم بأعلى صوته: إن الله هو ربكم لا تلك الأصنام، إني آمنت بألُوهِيَّتِه وربوبيَّتِه، وهو واجب عليكم جميعًا، فاسمعوا وأجيبوا تفلحوا، اسمعوا مني صَريحًا إن كنتم في غفلة إني آمنت، ولا نجاة ولا فلاح بدون تحقيق الإيمان، هكذا صرّح بإيمانه، وأعلن به أمامهم جهرةً، وأتم عليه الحجة، وما ترك لهم عذرًا.

نصر المرسلين وأيّد دعوتهم وقام بحق الدعوة، وأدّى ما عليه تُجَاه الدعوة والمرسلين، وقد حفِظ لنا القرآن هذا الأسلوب كي يكون لنا نبراسًا في الدعوة إلى الله، ومن عادة القرآن الكريم التَّفَنُّن من أسلوب إلى أسلوب، وانتهاز الفُرَص في أثناء القصص لإلقاء ما هو أهم وأنفع على سمع الناس وبصرهم.

11 - قتل الداعية وإكرام الله له

ينتظر سامع القصّة من معرفة "ماذا فعل هذا الداعية بعد تصريحه بالإيمان أمام قومه؟!" فالجواب يظهر من قوله تعالى: "قِيْلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ" ما اهتدى قومه بهديه، بل أعرضوا عنه وآذوه، ووَثبوا عليه فقتلوه، أُوْذِيَ -رحمه الله-

كما أُوْذِيَ ولا يزال يُؤذَى أمثاله من الداعين إلى الحق، وقُتل في سبيل الحق والدعوة، واستُشْهِد في سبيل الله، فالموت واحد والأسباب تتعدّد، والأهم حسن الخاتمة، لم يذكر القرآنُ طريقةَ موته واستشهاده، ولكن ذكر حسن ختامه، وهذا بغية كل مؤمن صالح.

ويكون هذا الإيذاء والتعذيب أو القتل هو السّهم الأخير في كِنانة الظالمين المتبعين الهوى، المخالفين الحق وأهله، إذا عجزوا عن الدليل والبرهان جرّبوا سلاح الجبر والقوّة والظلم، ولكن لا يَثْنِي هذا أهلَ الحق عن موقفهم، ولا يُفتِّرُ هِمَمَهم وعَزائمَهم، بل هم يتمنّونه ويطلبونه، وبه تقوى عزائمهم، وتفور دِماؤهم.

أكرم الله هذا الداعية بموت الشهادة، وأنزله منازل السعداء، وأدخله الجنة عقِبَ موته، لأنه كان من الشهداء، قُتل شهيدا في إعلاء كلمة الله، والشهداء لهم مزيّة وخصوصيّة بأنهم يدخلون الجنة عاجلا بعد شهادتهم.

"قِيْلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ" يا لها من بُشْرَى عظيمة! ويا لها من نعمة جليلة! ويا له من فوز حقيقي ونعيم أبديّ سرمديّ! هذا هو مُنتهى أَمَلِ الآملين، وغاية طُمُوْحِ الطامحين، بمعرفة مثل هذا الإكرام يَزداد أهل الإيمان يقينًا بموعود رب العالمين وثَباتًا في إيمانهم وعقيدتهم.

12 - أُمنية عجيبة

قُتِلَ الداعية، وفي لحظة انتقل إلى دار الشهداء والأحياء، وأُدْخِلَ الجنَّةَ، ورأى نعيمها فذكَر قومه ناصحًا لهم، فقال: "يلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُوْنَ".

تمنى أن يُعلن فوزه لمن قتلوه، وأن يُّظهر ثمرة الإيمان والتوحيد أمامهم حتَّى يؤمنوا ويُوحّدوا، يلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُوْنَ فضيلة الإيمان فَيؤمنوا، يا ليتهم يعلمون بمآلي وحسن حالي وحميد عاقبتي فيؤمنوا مثل إيماني، فيصيروا إلى مثل ما أنا فيه من نعيم، لَيْتَهُم يعلمون بما أنعم الله عَليّ، غفرلي ذنوبي وجعلني في زُمْرَة المكْرَمين المقربين، منحني ربيّ الثواب الجزيل والفضل العميم، وأدخلني في جنته ودار كرامته، فأيُّ نعيم أعظم من هذا؟! وأيُّ فوزٍ أكبر من هذا!؟.

يا له من رجل عظيم! نصح لقومه حيّا وميّتًا! ما تمنّى هلاكهم ولا الشَّمَاتة بهم! كيف يَتمنّى هلاكهم وقد كان مُتَّسِمًا بكظْم الغَيظ وبالحِلْم على أهل الجهل، وهذا شأن كل مؤمن ومخلصٍ، يحب الخير للناس جميعًا، ويكون ناصحًا لهم، ولا يكون غاشًّا ومنتقمًا، يحب الصلاح المَحْضَ، ولا قيمة عنده للحظوظ الدَّنِيئة وسَفساف الأمور، يقول -تبارك وتعالى- حكاية عنه: {قَالَ يلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُوْنَ (26) بِمَا غَفَرَلِيْ رَبِّيْ وَجَعَلَنِيْ مِنَ الْمُكْرَمِيْنَ}. (سورة يس:26، 27)

13 - جزاء الطغيان

لعلكم تتشـــوَّفُون إلى معرفة ما كان من عـاقبة قوم هذا الرجل؟! نعم! اسمعوا وعُوْا، لقد ذكرها القرآن لأنها مُهِمٌّ للغاية، ويُنْتَظرُلها أشـدَّ الانتظار، لقد صـارت عاقبتهم إلى ما تكون عـاقبة كل جبارٍ عنيدٍ، وكل مســرفٍ طاغٍ، أصـــابتهم الهزيمة والعـذاب والخِـذلان، وذهبوا إلى مَزْبَلَـة التـاريخ، ولم يســبِقوا عقابَ القوي المتقدر -ســبحانه-، بَيَّنَ الله عـاقبتهم بأســلوب معجز ومنفرد يأخذ بمجامع القلوب، ويَهُزُّ كِيَان مَن يتدبرها، وذكر مُحَصَّلَة القصّـة قبل نهايتها، قال الحق العليم -ســبحـانـه-: {وَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِيْنَ (28) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَّاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُوْنَ}. (سورة يس: 28-29)

الله –عزوجل- غني قدير لا يحتاج إلى شـيء، ولا يفتقر إلى جُند في أفعاله وتصرفاته، يعذّب وَفْقَ سُننه ونواميسه مَن يستحق العذاب كيف شاء، يعذب الطُغاة والمفسدين العالين بطرائق مختلفـة، أحيـانا يُحلُّ عليهم من الســمـاء عـذابًـا يَسْـتَأصِـلـهم، وتارة بالماء والطوفان أغرقهم، وتارة بالخســف أبادهم، وأخرى يُنزل ملائكة العذاب تُدَمِّرُهم.

وفي عقوبة أصحاب القرية المكذبين المعاندين ما أنزل الله جندًا من الســمـاء، فكانوا أَهْونَ على الله من أن يرســل

عليهم ملائكة لتدمرهم، وشأنهم أَدْوَنُ من هذا الاهتمام، وهذا النظم القرآني لتحقير شأنهم وتصغير أمرهم. فكانت عُقوبتهم صيحة واحدة أهلكتهم جميعًا.

أرسل الله عليهم صيحة شديدة فإذا هم صَرْعَى، ولم تَبْق منهم باقية، وأصبح مثلهم كَنَارٍ كانت مُشتعلةً فانطفأت، فلم يبق لها أثر، تقطَّعَت قلوبهم في أجوافهم بتلك الصيحة، فأصبحوا خامدين، لا صوت ولا حركة ولا حياة بعد ذلك العتو والاستكبار، أين حياتهم المليئة بالقوة والطغيان؟ أين ألسنتُهم الحِدَاد الكاذبة؟ أين تجبُّرهم وتكبُّرهم وتهديدهم؟! كل ذلك أصبح كالرّمَاد الخامد:

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه

يَحُوْرُ رَمادًا بعد إذ هو سَاطِعُ

14 - يا حسرة على العباد!

يا لَكَثرة العِبر ويا لَقِلَّةِ الاعتبار! أصبح أصحاب القرية ساكتين هامدين ميتين، لم يُسْمَع لهم رِكْزٌ، ولم يبق لهم أثر، ذاقوا مرارة طغيانهم واستهزائهم، وصَارت عاقبة المستهزئين بالناصحين المخلصين إلى أن يُتحَسَّر عليهم، وأن يُرثى لهم، فيا حسرة وخيبة على هؤلاء المجرمين! فيا أيتها الحسرة! احضري هذا أَوَانُك وموطن حُضُوْرك!.

لقد كانت حال أهل القرية من الأحوال التي يجب أن يُّتحسر عليهم، ويجب أن يُّتحسر على حال كل من سمع قصتهم ولم يعتبر بها، يجب أن يُتَلَهَّف على من لم تنفعه المواعظ والنُّذُر.

الكفر والاستهزاء أدَّيَا أهل القرية إلى هذه الحال البئيسة، فكل من يمشي مِشْيتهم وسلك مسلكهم يكون مَصيرُه إلى الهلاك والدَّمَار، وهذه القصّة بلاغ وإنذار للأجيال الحاضرة والمستقبلة، فعليهم أن يتعظوا بمَن أهلكهم الله قبلهم بِعُتُوّهم وطغيانهم، وعليهم أن يسألوا أنفسهم لماذا أُهْلك أصحاب القرية؟! أي شيء أحَلَّهُم محل العبرة والتحسر والتندُّم؟! فالسعيد من وُعظ بغيره واتعظ بِسِواه، ومن لم يعتبر اليوم يكون غدًا عِبرةً.

فيا حسرة على الذين لم يعتبروا بأحوال الأمم الخالية! ويا حسرة على مكذبي الرسل! ويا حسرة وأسفا على الذين كذبوا ويكذبون سيد المرسلين وإمام الصادقين -صلى الله عليه وسلم-.

وهذه الحسرة والندامة تلحقهم في الدنيا والآخرة، ويتحسرون أشد الحسرة، ويندمونَ غاية الندامة حين يُعاينُون العذاب جزاءَ تكذيب الرسل والاستهزاء بالناصحين.

ولن يرجع أحد إلى الدنيا مِمَّن هلك وباد، وفات أوانه وذهب وقته، ولكن سيعيد الله الجميعَ بلا استثناء خلقًا جَديدًا، ويبعثهم بعد موتهم، ويُحْضرهُم بين يديه في يوم ليس كسائر الأيام، ليضع فيه موازين القسط، ويحكم بينهم بحكمه العدل، ويجازيهم بأعمالهم كلّها خيرها وشرها، ولا يُفْلت أحد من حسابه وجزائه.

وليس من أهلكه الله تركه، بل أحياه مرة آخرى، ويكون بعده جمعٌ وحسابٌ، ونعيم أو عذاب، يقول -تعالى في عَليائه- إيجازًا وإعجازًا: {يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ، مَا يَأْتِيْهِمْ مِّنْ رَّسُوْلٍ إِلَّا كَانُوْا بِهِ يَسْتَهْزِءُوْنَ (30) أَ لَمْ يَرَوْاكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُوْنِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُوْنَ (31) وَإِنْ كُلٌّ لَّمَّا جَمِيْعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُوْنَ}. (سورة يس : 30-32)

قصة عجيبة في أربع آيات فحسب، لكنها رسالة كاملة شاملة، وإنذار شديد من التحايل وانتهاك حرمات الله.

قصَّة أصحاب السبت

1 - واسئلهم عن القرية

القصص القرآنية لها رُواؤُها وبَهاؤُها وعَظَمَتها وجلالتها، وهي كالدَّوحة الباسقة الظلال لا ينتهي ظلها ولا يذهب رونقها، وهي في الوضوح والسطوع كالشمس في شَبِيْبَة نهارها، لأن مَن قصَّها علّام الغيوب، العليم الخبير، وخالق الأكوان ومدبرها، سواء في علمه الغائبُ والحاضر، والماضي والمستقبَل، ولأنها من الكتاب المعجز الذي لا تنقضي عجائبه، ولا يَخْلَقُ على كثرة الرَّدّ، ولكل قصَّة منها أسلوبها المختص بها، وهي ملآى بالعبر والعظات، ولها وَقْعٌ عَلى نفوس أولي الألباب.

وبين أيدينا قصَّة عجيبة من قصص القرآن، تحمل بين طَيَّاتِها صَوادقَ الخبر وقَوارِعَ العِبر، ونرى فيها عاقبةَ المكر والتَّحايُل، وعقاب الفُسُوق والعُدْوَان، هي قصَّة "أصحاب السبت" التي قَصَّها الله في سورة الأعراف في أربع آيات جوامع، وجاءت إليها إشارات في مواضع أخرى من القرآن الكريم، ابتدأت القصّة بأسلوب غير أسلوب القصص الأخرى ليُعْلَم

أن لهذه القصّة الآتية شأنا غيرَ شأن القصص الأخرى، وقعت هذه القصّة في بني إسرائيل في زمن بين نبيين عظيمين: موسى وداود -عليهما السلام-. افتتحت القصّة بالأمر بسؤال بني إسرائيل الحاضرين عنها، لإشعار يهود العصر النبوي بأن أطلَعَ اللهُ عليها نَبِيَّه -عليه السلام- وهم كانوا يَكْتُمُوْنهَا، لأن فيها مَساوئَ تاريخهم، وعدوان أسلافهم، وهي وَصْمَةُ عارٍ في جبين من يُنكِر منهم نُبُوَّةَ نبيّنا محمد -صلى الله عليه وسلم- ويعامله معاملة المكر والخديعة والحسد.

والسؤال هنا لتقريع بني إسرائيل وتوبيخهم، وعَدِّ سَوابِقِ عِصْيَانِهم، إذ ليس عصيانهم نبيَّنا -عليه الصلاة والسلام- ببِدْعٍ، بل هو موروث، وذلك شِنْشِنَة قديمة فيهم، وليس سؤالَ الاستفادة؛ لأن الرسول -صلى الله عليه وسلم- أعلَم بذلك من جانب ربه -تعالى-، فهذا السؤال يدلّ على صدق نبوّته -عليه الصلاة والسلام-. يقول تعالى: {وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِيْ كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ، إِذْ يَعْدُوْنَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيْهِمْ حِيْتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَّيَوْمَ لَا يَسْبِتُوْنَ، لَا تَاْتِيْهِمْ، كَذٰلِكَ، نَبْلُوْهُمْ بِمَا كَانُوْا يَفْسُقُوْنَ}. (سورة الأعراف: 163)

اسأل هؤلاء اليهود عن الحادث الذي حَدَثَ لآبائهم الأولين في تلك القرية، وحَذِّرهم من عصيانك، لئلا يَحِلَّ بهم ما حَلَّ بأسلافهم.

2 - كانت حاضرة البحر

كانت هذه القرية التي أُمِرَ بالسؤال عنها تقع على شاطئ "بحر القُلْزُم"، بين مدين والطور، بيّن القرآن الكريم جُغْرَافِيَة هذه القرية لأن لِعِصيان أهلها وعُدوانها اتصالًا وثيقًا بهذا البحر، إذ كان ابتلاؤهم بحيتانِها، وكانوا يسكنون بقرب البحر، ويصيدون حيتانه، ويعيشون عِيْشَةً هَانِئَة، ويتقَلَّبُون في أَعْطافِ نعم الله وآلائه، وكانوا يُزَاوِلون فيها أعمالَهم من صيدٍ أو متاجرة أو صِناعة، ولكن يا لَشُؤم الذنوب والمعاصي! هي تهوي بالوجيه من الثُّريّا، وتُبدِل عاليَ المكان سافلَه، وهكذا فعلت بهم معصية كبيرة وجعلتهم مَضْرِبَ مَثَلٍ، وعبرة للمعتبرين.

3 - حُرمة يوم السبت

كان من تعليم نبي الله موسى -عليه السلام- أن ينقطع قومه عن أعمالهم يومًا في كل أسبوع، ويشغلوا ذلك اليوم في عبادة ربهم وحَمْدِه وذِكره، حتَّى تطَهَّرَ قلوبهم وتَزَكَّى نفوسُهم، وقيل لهم أن يختاروا يوم الجمعة لهذا العمل، ولكنّهم اختاروا يوم السَّبْت مكانَه بحُجَّةِ أنه يوم فرغ الله فيه مِنْ خَلْقِ الْخَلْقِ، فنَفْرُغُ فيه للعبادة، تَقبَّل الله اختيارهم، ونهاهم عن الاصطياد فيه.

ينبغي أن نعلم هنا أن الله -سبحانه وتعالى- خلق السماوات والأرض والأقوات في ستة أيام، بدأ الخلق يوم

الأحد، وخلق آدم يوم الجمعة في آخر ساعة من النهار بعد العصر، فثَبَت أن آخر الخلق كان يوم الجُمُعَة، ويوم السبت انقطع فيه العملُ، وهكذا علّمنا الله -عزوجل- التُّؤَدَة وعَدَمَ العَجَلَة في الأمور، وليس فيه تفضيل يوم على يوم، ولكن فَضَّل بنو إسرائيل يوم السبت على يوم الجمعة بزعمهم، فَكانوا يقدِّسُوْن هذا اليوم ويَخُصُّوْنَه للعبادة، وجَرت الأيام، ومَضَتِ السِّنُوْن وهم على هذا مقيمون، وعلى تلك السنة دائِمون، وبعادة أسلافهم ملتزمون، ثم جَاء خُلُوْف في أعقاب الزمن، ولم يَمْضِ عليهم طويلُ وقت حتَّى انتهكوا حرمةَ هذا اليوم، وخالفوا أمر الله فيه، وسطَّروا أسوأ الأمثلة وأقبَحها في التَّعَدِّي على حُرُمَات الله.

4 - نحن الآخرون السابقون

الحديث بالحديث يُذكَر، لما جاء ذكر اختيار اليهود يومَ السبت معرضين عن يوم الجمعة، ينبغي لنا أن نذكر هنا يومًا اختاره الله لنا، وفضّله على سائر الأيام، كى نشكره على نعمة الهداية والتوفيق، فضّله الله على الأيام الأُخَر لأن له الخلق والأمر، وهو يُفَضِّل مِن خَلقه ما يشاء على ما يشاء، ترك اليهود يومًا جعله الله سيد الأيام، وفضَّلوا يومًا حَسَبَ اعتقادهم، وغلَّبوا القياس على اختيار نبيهم، وعظموا السبت للفراغ من الخلق، فصارَ يوم الجمعة المبارك حظَّنا ونصيبنا،

هدانا الله لِمَا ضلُّوا عنه ولم يهتدوا إليه، فقد جاء في الحديث الصحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: "نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بَيْدَ أنّهم أُوتُوا الكتابَ مِن قبلنا، وأُوتِيْناه من بعدِهم، وهذا يومُهم الذي فُرِضَ عليهم فاختلفُوا فيه، فهدانا الله له، فهم لنا فيه تَبَع، فاليهود غَدًا، والنصارى بعد غد". (رواه مسلم)

هذه الأمة المحمدية هي الآخرة في الزمان، لأن نبيها آخر الأنبياء والرسل، وخاتم النبيين، وآخر اللَّبِنَة في زاوِيَة بيت النبوة، اللبنة التي بها تمَّ لهذا القصر بَهاؤُه، وكَمُل حسنُه ورُواؤُه، ولكن هذه الأمة سابقة في الكرامة والفضيلة يوم القيامة على الأمم السالفة من اليهود والنصارى، هم يكونون بعدها في الحساب والقضاء ودخول الجنة، هم فضَّلوا يومًا باجتهادهم وعقلهم، ولا فضل في يوم دون يوم إلا بتفضيل الله له، ونحن قد اخترنا ما هدانا الله إليه، هدانا ليوم الجمعة فقبلناه، فنعم اليوم هو! وحبَّذَا حظّنا فيه! والحمد لله على ذلك.

5 - بَسط لما أُجْمِل

إن من خصائص القرآن الكريم الإجمال في موضع، والبيان في موضع آخرَ، وهذا من أساليب التعليم الناجحة التي أرشد الله إليها في كتابه، إن الله -عزوجل- يُجْمِل القصص الطويلة في كلمات يسيرة ثم يَبْسُطُهَا، وهذا أسلوب نافع جدًا،

وَصار لهذا الأسلوب الناجع موقعٌ كَبيرٌ في التعليم والتربية، تتقرر فيه المطالب المهمة، وتتضح به الفوائد الكثيرة، لأن القصّة إذا أُجملت بكلام يكون كالأصل والقاعدة والإشارة، ثم يأتي التفصيل لذلك الإجمال فيحصُلُ به الإيضاح التامُّ الكامل الذي لم يَحْصُلْ مَا يقاربُه لو فُصّلت القصّة وبُسِطت من دون تقدّم صورة إجماليةٍ لها، لأن الصورة الإجمالية تُشوّق إلى التفصيل، ولأن النفوس تَشْرَئِبُّ إلى معرفة تفصيل لما أُجْمِل، وتَهيأُ وتستعدّ لتَلَقّيها، ويتضح جليًّا بهذا الأسلوب أن القرآن الكريم مرتبطٌ بعضُه بِبَعض، وبين آيِه وسُوَرِهِ تَناسُق وترتيب عجيب، يُشار إلى قصَّة في موضع ويبَين بالبسط والتفصيل في موضع آخر، وهكذا يُفَسِّر القرآن بعضه ببعض.

وهذه القصّة التي بين أيدينا بسط لما أُجمل في قوله تعالى: {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِيْنَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُوْنُوْا قِرَدَةً خَاسِئِيْنَ}. (سورة البقرة:65)

وقد وقعت الإشارات في مواطن أخرى إلى هاتيك القصّة، وإذا ضُمَّ ذلك الإجمال إلى هذا التفصيل ارتفع إجماله، واتَّضح كماله، فتباركَ من هذا كلامه! وسبحان من هذا أسلوبه وبيانه!.

6 - الابتلاء في أمر الحيتان

لما اختار اليهود يوم السبت للعبادة حُرِّم عليهم العملُ فيه، وهذا العمل هو الصيد كما تَدُلُّ عليه هذه القصّة، ولكنهم بدأوا يَعْدُوْن في السبت ويتجاوزون حدود الله فيه، ولم يمتثلوا أمر الله في أمر الصيد، وكانت الحيتان آمنة في هذا اليوم من أن تُصَاد، فتأتي على سطح الماء ظاهرة طافية، وتأتي كثيرة متتابعة، فكان عليهم أن يتعظوا بهذه الآية بأن الحيتان تكون فيه آمنة، لعَل الله ألهمها بأنها في مَأمَن مِمن يَصِيْدُهَا، وإذا ذهب يوم السبت تذهب في البحر، فلا يَرَون منها شيئًا، وهكذا تغيب عنهم سائرَ الأيام، ثم إذا جاء يوم السبت جاءتهم في الماء شُرَّعًا مصْطَفَّةً مُقبلة إليهم من كل طريق وناحية، فإذا كانت ليلة الأحد غابَتْ بجُمْلَتِهَا.

وكان أمر الحيتان هذا ابتلاء ومِحنة لهم، وكان بسبب فسوقهم وعدوانهم، فإن تابوا عن الفسق واتَّعَظُوْا بآية إلهام الحوت لَعَافَاهُمُ الله وما عرضهم على البلاء والشرّ، ولكن ما اتعظوا وما تابوا، بل تَحَيَّلُوْا على الصيد، وتَطرَّقُوْا إلى المعصية، فتشاوروا فيما بينهم، وتبادلوا زِمَام الرّأي، وقالوا ما بالنا نترك هذه الحيتان في يوم تكثُرُ فيه وتزيد وتَتزاحَم مُتسابقةً إلينا؟! ونأتي إلى صيدها في أيّام تغيب عنا وتَتَسَرَّب إلى البحر؟! نعم! رأيٌ حسنٌ، ولكن ألم يكن الله نهانا عن الاصطياد في هذا اليوم؟!

تفَكَّرُوْا مَلِيًّا، ثم احتالوا لصيدها، فحفروا الحفائر وشقُّوا الجداولَ والنُهَيْرَات، فإذا جاءت الحيتان يوم السبت ودخلت في تلكم الحفائر والجداول والنهيرات، ألقوا فيها الحجارة، ومنعوها عن الخروج إلى البحر، فإذا كان يوم الأحد أخذوها بلا تَعَبٍ ولا عَنَاء، ثم صنعوا به ماشاءوا، حتَّى كثر فيهم صيدُ الحوت، ومُشِيَ به في الأسواق، وأعلن الفَسَقَةُ بصيده، وهكذا تَوَغَّلُوْا في العصيان والفسوق.

كان هذا الابتلاء بفسقهم، فكان يجب عليهم أن يَرْعَوُوْا عنه، لكن أنَّى لهم ذلك! لأنّ من عِقاب المعصية المعصيةُ بعدها.

7 - الحِيَل المُوْصِلَةُ إلى ما حَرّم الله

كما حرّم الله -عزوجل- المحرّمات حرّمَ كذلك الذرائع والأسباب الموصلة إليها، اتخذ اليهود ذريعة موصلة إلى الحرام، فعاقبهم الله عقابًا شديدًا تَقْشَعِرُّ من سَمَاعها الجُلُوْد. لذلك لا يجوز شيءُ البَتَّةَ من أنواع الحِيَل الموصلة إلى ما حرّم الله، لأن الحيل طرق خفيَّة يُتَوصل بها إلى حُصُول الغَرَض المحرّم، وهذه الطرُق الخفية إن كانت تَخْفَى على كثير من الناس، ولكنها لا تخفى على الله -سبحانه وتعالى-، لأنه عليم بذات الصدور، يعلم السِّرَّ والنجوى، وأيّا كانت هذه الحيَل وفي أي معاملة كانت لا يجوز اتخاذها للوصول إلى الحرام، لأن هذه الحيل

المحرمة مخادعة لله تعالى (العياذ بالله).

وبالأسف الشديد كثير من الناس اليومَ يَتوصَّلُون بهذه الحِيَل لأخذ الربا والتخلُّص من الزكاة وإباحة المطلقة طلاقًا لا رجوعَ فيها، ويخدعون بها كثيرًا من الناس الذين لا يعرفون حقيقةَ هذه الحيَل، فيأكلون أموالهم بالباطل، ويقعون في أَتُوْن الإثم، وقد نهانا نبيُّنَا محمد -صلى الله عليه وسلم- عن هذه الحيَل فقال: لا تَرْتَكِبُوْا مَا ارتكبت اليهودُ، فَتَسْتَحِلُّوْا محارمَ الله بأدنَى الحِيَل. (ابن بطة في إبطال الحِيل)

فحقيق بِمن اتقى الله وخاف نَكَالَه أن يَحْذَر كلَّ الْحَذَر استحلالَ محارم الله بأنواع المكر والاحتيال، وأن يعلم جَيدًا أن لله يومًا تشهد فيه الجَوَارِحُ والأوصَالُ، وتُبْلَى فيه السرائر، وتظهر فيه الضمائر، ويصير فيه المستور مكشوفًا، وتجري الأحكام هناك على النيَّة والإرادة.

8 - بين عكرمة وابن عباس -رضي الله عنهما-

نَزل القرآن الكريم للتدبر والاتعاظ والاهتداء بهديه، وما ذُكِرَت القصص فيه إلا لأجل هذا الغرض السامي، فكان صنيعُ الرَّعِيْل الأول من هذه الأمة أنهم كانوا يَقرؤون القرآن ويتدبرونه ويتفكرون في عجائبه، ويَتَّعِظُوْن بقصصه، كانوا يتلونه في ليالٍ دَاجية، وقلوبهم واجفة، وعيونهم باكية، وهناك قصص كثيرة تدل على شَغَفِهِم وتَعَلُّقِهِم بكتاب ربهم -

تبارك وتعالى-، وما فتحوا العالم وما سادوا الدنيا وما جلسوا على ناصية الشمس إلّا حين جعلوا كتاب الله إمَامهم وأمَامهم، وما تَخَلَّفْنَا واعتزلْنا عن سِيَادة العالم إلّا حين هجرنا هذا القرآن واتخذناه وَراءَنا ظِهْريًا.

ذكَر المفسرون في تفسير قصَّة أصحاب السبت نموذجًا رائعًا من هذا التدبر والاتعاظ، وكَتَبَ إمام المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- عن صنيع تُرجُمان القرآن ورئيس المفسرين وحبْر الأمة عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- مع هذا الكتاب العظيم، وذكر تلكم القصّة، "قال عِكْرِمة -رحمه الله- دخلت: على ابن عباس -رضي الله عنهما- والمصحف في حِجْرِه وهو يبكي، فقلتُ: ما يُبكيك يا ابن عباس جَعَلَنِيَ الله فِدَاك؟! فقال: هؤلاء الورقات، وإذا هو في سورة الأعراف، فقال: وَيلك تعرف القرية التي كانت حاضرة البحر؟ فقلت: تلك أيلة، فقال ابن عباس -رضي الله عنهما- لا أسمع الفرقة الثالثة ذُكِرت! نخاف أن نكون مِثْلَهُم، نرى فلا نُنْكِر، فقلت أما تَسْمَع اللهَ يقول: "فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَّا نُهُوْا عَنْهُ" فسُريَّ عنه وكساني حُلّة".

وكان عكرمة تلميذ ابن عباس وخِرِّيجه في هذه الصَّنَعَة، تَتلمَذ على يديه، وكان ابن عباس -رضي الله عنهما- لا يَألُوْ جُهدًا في تثقيفه وتعليمه، بل إنه كان يَقسُو عليه، حتّى

يُعَلِّمَه قال عكرمة: "كان ابن عباس يجعل في رِجليّ الكَبل (القيد) يُعلمني القرآن والسنة". وقد اهتم ابن عباس بتلميذه هذا اهتمامًا كبيرًا، وكان يُعِدّه ليكون خَلِيْفَتَه في تفسير القرآن، وكان يُكَافِئه إذا ما أحسن فهم آية أَشْكَلَتْ على ابن عباس، كما رأيتم في هذه القصّة حُسن فهم عكرمة وإكرام ابن عباس له -رضي الله عنهما-.

9 - نجاة الناهين

لما اقتَحَمَ أهلُ السبت مَحارِمَ الله، وارتكبوا معصيةً للخالق جَهارًا نهارًا، قام المؤمنون الصالحون ينهونهم عن هذا المنكر العظيم، ويُخَوِّفُونَهم عذاب الله، ويَعِظونهم وينصحون لهم، ولكن لم ينتهِ الفُساق المارقون عن غَيّهم وضلالهم، وبالمقابل هؤلاء الناهون عن المنكر ما زالوا يَعِظونهم ويُحَذِّرُوْنهم، كانوا يخرجون إليهم صباحَ مساءَ، وينهونهم عن هذا الفسق الكبير، فلم يُصغ الفاسقون إلى النصحية آذانهم، بل استمروا على اعتدائهم وطغيانهم، فلما طال الأَمَدُ وكَثُرَ زمان النُّصح، أيِسَتْ أمة من المؤمنين من اتعاظ المَوْعُوْظِيْن، وأيقنت أن كلمة العذاب قد حَقَّتْ عليهم، وأنهم فرقة فاسقة لا تُغني معهم العِظاتُ، ولا تنفعهم النصائحُ، فقالوا لإخوانهم الناهين عن المنكر: لِمَ تنصحون هذه الجماعة المارقة التي يُهْلِكها الله في الدنيا لا محالة، ويعذّبها في الدنيا والآخرة عذابًا

شـديدًا؟! إذا لم يُصْـغُوْا إلى نصـحكم، فما فائدة نُصْـحِكُم إيّاهم؟! قال الواعظون نُحَذِّرُهم ونهاهم معذرةً إلى الله، لأنه أمرنا بـالأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر، ولن نزال نعِظهم ونَنهـاهم، حتَّى لا يُؤاخـذَنـا الله بترك ذلـك، فلا نيأَس من هـدايتهم، لعلهم ينتفعون بـالموعظة فيُقْلِعُون عن هـذا المنكر الفظيع، ولعل تكرار الموعظة يُؤثِّر فيهم، فهاتـان غـايتان من غـايـات الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر: المعـذرة إلى الله، ورجاء أن يقلع الموعوظ عن المعصـية، يقول الحق سـبحانه وتعالى: {وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُوْنَ قَوْمَانِ اللّٰهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيْدًا، قَالُوْا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُوْنَ}.

(سورة الأعراف: 164)

هكذا أجاب الواعظون المتقون أولئك الذين أيِسـوا، وتَرَكُوا النصـحَ وسَـكَتُوا ووَدَعُوْهم وشَـأنُهم، فأنجى الله أولئك الناهين، وجعل عملهم مِثَالًا يُحْتَذَى ويُقتدى إلى آخر الدَّهر.

10 - السكوت عن الساكتين

اسـتمر الناهون عن السـوء في وعظهم وتحذيرهم عن مَغَبَّة العصـيان والعداون، ونهونهم عن تصـرفهم المَشِـيْن، فنجوا، وبيَّنَ الله نجاتهم في القرآن الكريم، وبـالمقـابـل كانت فرقة اعتزلت وسكتت واختارت الانفراد بأنفسهم، فسكت الله عنهم ولم يُبَيِّن عـاقبتهم في كتابه، وهـذه الفرقة الثالثة التي

خاف عليها ابن عباس، وكان يتفكر في عاقبتهم ويبكي، فاستدل عكرمة على نجاتهم وعَدم هلاكهم، بقوله تعالى: "فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَّا نُهُوْا عَنْهُ" لأن الله خصّ الهلاك بالعُتاة الظالمين، ففرحَ به ابن عباس وكَساه حُلَّة. فعُلم أن العقوبة كانت خاصَّةً بِالمعتدِين في السبت، ولكن هذه الفرقة بسكوتها لا تستحق مدحًا فتُحمد، وما ارتكبَت عظيمًا فتُذَمّ وتُهلك، لذلك سَكت النصّ القرآني عنها ولم يذكرها مَدْحًا ولا ذَمًّا. فالفرقة الأولى كانت أَحْزَمَ وأَقْوَى فكسَبتْ مدحًا وثناءً، والثانية وإن لم تستحق العذاب فاستحقت الإهمال وعدم الذكر في مقام المدح والثناء، فينبغي لنا أن نَتَأَسَّى بالفرقة الأولى التي كانت تَستَمِرّ في النصح والوعظ، وأن لا نكون من الساكتين وقت النطق وإنكار المنكر.

11 - عقاب الظالمين

صارت قُطَّان حاضرة البحر إلى ثلاث فِرق: فالفرقتان الأولَيَان الناهية عن المنكر والساكتة قد مرّ ذكرهما، وبقيت عاقبة الفرقة العاصية الفاسقة التي تصطاد بالحيلة، وتحثُّ عليها، فأخذهم الله بعذاب شديد، لأنهم فَسقوا وتعدَّوا حُدودَ الله، ولأنهم خادعوا واحتالوا بحِيل شَتَّى، وارتكبوا جرمًا عظيمًا، أمهلهم الله للتوبة والأوبَة، فلم ينتفعوا بإمهال الله، لم يُعَجِّل الله بعذابهم، بل أتاح لهم الفُرَص للتفكر في عواقب

الأمور، ولكنهم لم يعودوا عن غيّهم ومكرهم، وازدادوا يومًا فيومًا تَمادِيًا في العصيان والآثام، فبينماهم كذلك إذ جاء أمر الله، وسُلِّط عليهم عذاب بئِيس شديد، وحلَّ عليهم عِقابٌ غريبٌ في نوعه، مَسَخَهم الله وغَيَّر أشكالهم من أناس مُكرمين إلى حَيَوَانَات مَهينة ذَليلة، أخذهم بعذاب مؤلم وَجِيْع.

بيَّن الله عقابهم وأطنبَ في ذكره لتهويل أمر العذاب، وتكثير أشكاله، وتحذير الناس من عاقبتهم، وبيّن أنهم تمرَّدوا وتكبَّروا عن ترك ما نُهوا عنه، وأبَوا سَمَاع نصيحة الواعظين، فجعلهم قردة صاغرين، أذِلَّاء منبوذين مُبْعَدين عن الناس.

فيا لَسُوء العاقبة للذنوب والآثام! ويا لَبُؤْس عاقبة العُتَاة الظالمين، يقول -سبحانه-: {فَلَمَّا نَسُوْا مَا ذُكِّرُوْا بِهِٓ أَنْجَيْنَا الَّذِيْنَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوْٓءِ وَأَخَذْنَا الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا بِعَذَابٍ بَئِيْسٍ بِمَا كَانُوْا يَفْسُقُوْنَ (165) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَّا نُهُوْا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُوْنُوْا قِرَدَةً خَاسِئِيْنَ}. (سورة الأعراف:165-166).

12 - كُوْنُوْا قِرَدَةً

ما أهون الإنسانَ على الله إذا عصاه ولم يمتثِل أمره! قَسَت قلوبُ أصحاب السبت بالمعاصي فلَم تلِن بالموعظة، ولم تَتعظ بِالنُّصح، فجاءهم قدر الله، وحصل العقاب بكلمة واحدة من الواحد القهار، قال لهم: "كُوْنُوْا قِرَدَةً"، فما أصبح هؤلاء المعتدون من ليلتهم إلا وهم غيرُ ما كانوا بالأمس، كانوا

في أحسن تقويم، وهاهم الآن قردة مشينة، كانوا أناسًا حِسَان الْقَامَات، ممشوقي القِدَادِ، عظيمَ الهَامَات، وهاهم في صورة ممسُوخة، قردة خاسئين، مطرودِين عن رحمة الله، لهم أذناب يتعاوون كما تتعاوى القِردة.

أصبح الناس في الصباح يبحثون عن هؤلاء الذين كانوا بجوارهم، يُساكنونهم ويعيشون معهم، فإذا أبوابهم مُغلقَة، وليس لهم حسٌّ ولا خبر، ولم يُسمع لهم صوت ولم يُرَ لهم أثر، ففتحوا الأبواب عليهم فإذا هم قد مُسخوا إلى قردة. (والعياذ بالله!)

حَوّلهم الله -عزوجل- من الصورة الإنسانية المُكْرَمَة إلى الصورة الحَيَوَانِيَّة المهينَة، لأن قلوبهم قبل ذلك قد مُسِخت فاستحق أن تُمسخ صورُهم وأجسامهم، مُسخت هذه القلوب حين ضعُفت أمام شهواتها ونَزَوَاتها ورغباتها، وقد مُسخت اليوم أجسادهم.

ومكَث هؤلاء الممسوخون أيامًا ثم هلكوا، ولم يبق منهم أحدٌ، ولم يُخَلِّفُوا نسلًا ولا ذريةً؛ لأن من يمسخهُم الله لا يكون لهم ذرية، ولا يكون نسل، بل يهلكون فتنقطع ذريتهم، ولا يبقى لهم عَقِب، أما هذه القردة التي نراها فهي من خلق الله خلقها الله على هذه الصورة، وكانت موجودة من قبلُ، وليست من نسل هؤلاء الممسوخين.

13 - الجزاء من جنس العمل

إن من سنن الله العظيمة أن يكون "الجزاء من جنس العمل" وأن تأتي عقوبته على بني آدم جزاءً وِفاقًا، وعلى هذا لمّا كانت أفعال أصحاب السبت وتصرّفاتهم مبنيّة على المكر والخديعة والتَّلاعُب بأحكام الدين، جاءهم العقابُ كذلك، بأن حُوّلُوا إلى الحيوان الذي يكون أشبَهَ بِبَني آدم، كانت أعمال هؤلاء وحيلتهم متشابهة للحق في الظاهر، ومخالفة له في الباطن، فكذلك كان جزاؤهم من جنس العمل، عاقبهم الله عقابًا فجيعًا، فأصبحوا قردة وهي في الظاهر شبيهة بالآدمي، ولكنّها في الحقيقة ليست من جنس الإنسان.

ميّز الله الإنسان بعقل يهديه ويردعه، وإرادةٍ تَقُوْده إلى الخير، وتتملّك زِمَامَه، فإذا غيّب عقله وعَطَّلَه، وألقى زِمَام إرادته أمام شهواته صار أقربَ إلى الحَيوان الذي لا رادع له ولا زاجر، فعاقبة هؤلاء الممسوخين تُقَرِّر سنةَ "الجزاء من جنس العمل" وتقول بمِلءِ فيها: افعل ما شئت كما تَدِين تُدان، وكَمَا تُجَازِي تُجَازَى.

14 - مما يستفاد من القصّة

القصص القرآنية لها أهداف ومرامٍ، ومقاصد ومغازٍ، ويبيّن الله -عزوجل- تلكم الأهداف والمقاصد في ثنايا القصص، ويُعقِّبُ عليها بذكر العِبر والحِكم التي لأجلها قُصّت

القصص، وبالقصّة يَزْدَان الوعظ، ويحسُنُ التوجيه، ويكمُل التذكير، ويتِمُّ الزجر، وتُقَام الحجة، وكل ذلك موجود في القصص القرآنية على أحسن وجهٍ.

لقد جعل الله قصَّة أصحاب السبت نكالا للعصاة العُتَاة في كل زمان ومكان، وموعظة للمتقين، جعلها نكالا يردع المعاقَب عن الْعَوْد للجناية، ويردع غيره عن ارتكاب مثلها، يقول تبارك وتعالى: {فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ}. (سورة البقرة:66)

وبهذه القصّة يتَّضِحُ جليًا أنَّ عقوبة التحايل عظيمة وشديدة، لأنه أعظم من مُجَرَّد العصيان، فإنه استهانة بعَظَمَة الله، واستهزاءٌ بأحكامه، واستحلال لما حرّمه -تبارك وتعالى-، فالقصّة تُنذِر إنذارًا شديدًا عن التَّحايُل على أمر الله، وتحذِّر عقوبتَه الوخيمة.

وبالقصّة يظهر حسن العاقبة للمصلحين الآمرين بالمعروف والنهي عن المنكر، والقصّة تبين أن إقامة شَعِيْرَة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو سبيل النجاة، القصّة تُلْقِي الضوء على أن السكوت وقت شيوع المنكر، وعدمَ إنكاره سببٌ في إهمال الذكر، وإن نجا الساكتون عن العقاب.

وهذه الدروس المستفادة من هذه القصّة غَيْضٌ من فَيض، وشعبة في وادٍ، وإلا فالدروس والعبر أكثر من أن

تحصـى، وما خلَّدَها الله هذه القصّـة قرآنًا يُتلى إلا ليتعظ بها مَن يأتي من بعدهم إلى يوم القيامة.

نسأل السلامة والعافية والتوفيق لما يُحِبُّ ويرضى.

قصة بلاء وأي بلاء، إنه بلاء تزول له الجبال الرواسي، بلاء تكاد الأسماع تتفطر عند سَماعه، وتفيض العيون عند فصوله وأحداثه، بلاء وقع على لحم ودم، ولكن الإيمان الذي تُخالط بشاشتُه القلوبَ كان عصيًّا على الذَّوَبان.

قصَّة أصحاب الأخدود

1 - أسلوب القسم في القرآن

تعالوا إلى مائدة القرآن نقرأ قصَّة أخرى من قصصه، ونستلهم منها العبر والعظات، القصص القرآنية كلّها على قِمَّة الفَصاحة والبلاغة ونَصَاعَة اللغة، ومنتهى كمال الصِّدق والحق، فكلُّ جملة، وكلّ كلمة، بل وكلّ حرف فيه يحمل من المعاني العظيمة ما لا يخطر على بال، وليس له في كلام البشر من مثال، فلا حَشْوَ فيه ولا لَغْوَ، ولا ما لا فائدة فيه، وهذه القصّة التي نقرأها الآن قصَّة أصحاب الأخدود التي ذكرت في سورة البروج، بأسلوب ملائم لتلكم السورة بفواصل قصيرة، وألفاظ مُفَخَّمَة يسيرة تحمل معاني جليلة وحقائق عظيمة، كما هو المعهود من هذا الكتاب المعجز.

افتحت هذه السورة الكريمة بالقسم، كما افتحت السور الكثيرة به، وأسلوب القسم في اللغة العربية يستخدم

كثيرًا لتوكيد الأخبار، وترسيخ المعاني في النفوس، وإزالة الشكوك، وإقامة الحجة، وطمئنَة المخاطب، والقرآن الكريم أنزل للناس كَافَّةً، وفي الناس من هو شاكّ ومُنكِر، وخَصْمٌ أَلَدّ، فجاء أسلوب القسم في القرآن الكريم يُزيل شكوكَهم، ويدفع شُبُهَاتِهم، ويُقيم الحجة عليهم، ويُطَمْئِنُ نُفُوْسهم.

وجيمع ما يقوله الحقّ -سبحانه- فهو حقّ وصدق بلا قسم، لكنّه -سبحانه- يُقسمُ مُراعاة الناس، ليؤكِّد لهم أنّ ما يُقْسِم عليه حاصل لا محالة، وكائن بلا هَوَادة، فالله -عزوجل- يُقسِم في القرآن الكريم أحيانًا بذاته العليَّة، وصفاته العليا، ويقسم تارة بمخلوقاته، وهذا كثيرٌ في القرآن، فيقسم -سبحانه- مرّة بمخلوقاته السماويّة، وتارة بمخلوقاته الأرضية، وأخرى بالقرآن الكريم، وقد أقسم بِحياة مَن أُنْزِل عليه القرآنُ -عليه الصلاة والسلام-، والإقسام بالشيء إعظام له، وبيان لعظمته وتكريمه.

أقسم الله -تعالى- في مُستهَلِّ هذه السورة المباركة بأربعة أقسام، فقال -جل جلاله وتقدست أسماؤه-: {وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْبُرُوْجِ (1) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُوْدِ (2) وَشَاهِدٍ وَّمَشْهُوْدٍ}.

(سورة البروج: 1-3)

أقسم بالسماء ذات البروج، وأقسم باليوم الموعود اليوم القيامة، وأقسم بكل شاهد ومشهود في الدنيا والآخرة،

وفي افتتاح السورة بهذه الأقسام تَشويق إلى ما يَرِدُ بعده، وإشعار بأهمّيّة المُقسَم عليه، ولفْتُ ألباب السامعين إلى الأمور المُقْسَم بها، فيا سبحان الله، ما أعظم أساليبَ كتابه! وما أجمَل أفانين بيانه! وما أرحمه بمخلوقه! وما ألطفه بعباده! أنزل لهم كتابًا هاديًا، وأودعه غِذَاءً لقلوبهم وأرواحهم، وراعى فيه مَدَارِكَ عقلهم وفهمهم ليفهموه ويَتَّعِظُوْا به، ولا يضِلُّوا ولا يَشْقُوْا.

2 - والسَّمآء ذات البروج

أقسم الله في ابتداء هذه السورة المباركة من عظيم مخلوقاته وبديع خلقه، بهذا الجِرْم العُلْوِي الهائل، أقسم بالسماء المشتملة على منازل الشمس والقمر والكواكب المنتظمة في سيرها على أكمل ترتيب، وأحسن نظام دالٍّ على كمال قدرة الله وسَعَةِ عِلمه وعِظَم مخلوقاته، والبروج هي منازل الكواكب السيَّارة، وهي اثنا عَشَرَ بُرْجًا لاثني عشر كوكبًا، وهي التي تقطع الشمس في سَنَة، والقمر في ثمانية وعشرين يومًا، تسير الشمس في كل واحد منها شهرًا، ويسير القمر في كل واحد منها يومين وثُلُث يَوم، فذلك ثمانية وعشرون منزلة له، ويستتر ليلتين.

وستة من بروج الشمس شَمالَ خطِّ الاستواء، وستة في جَنوبه، أما التي في شماله: فهي الحَمْلُ والثَّوْرُ والْجَوْزَاءُ

والسَّرَطَان والأسَدُ والسُّنْبُلَة، وأما التي في جنوبه فهي: المِيْزان والْعَقْرب والقوس والْجَدْي وَالدَّلْو والْحُوت، وتقطع الشمس الثلاثة الأولى الشَّمَالية في ثلاثة أشهر، هي: فصل الربيع أولها 21 مارس، وتقطع الثلاثة الثانية في ثلاثة أشهر أخرى هي فصل الصيف أولها 21 يونيو، وتقطع الثلاثة الجنوبية في ثلاثة أشهر، هي: فصل الخريف أولها 21 سبتمبر، وتقطع الثلاثة الثانية الجنوبية في ثلاثة أشهر أيضًا، هي: فصل الشِّتَاء أولها 22 من شهر ديسمبر.

فسبحانك ربنا ما أعظمك! وسبحان خالقنا ما أبدَعَك!.

أقسم الله بها لأنها من المخلوقات العظيمة التي نِيْطَ بها تَغيّرات في الأرض بحلول الكواكب فيها، فيَنشأ عنها عدد السنين والحساب، أقسم الله بهذه المخلوقات الهائلة ليلْفِتَ أنْظَار أولي الألباب إلى التأمُّل فيها، فليتأمَّلْ المتأمّل في خلق السماء وارتفاعها، والكواكب التي تَسْبَحُ في الفضاء وهي معلقة لا تسقط، سائرة لا تقف، لا تزيغ ولا تَصْطَدِم، من الذي سَيّر أفلاكَها؟! ونَظَمَ مَسَارَهَا؟! وأمسكَ أجرَامَها؟! مَن ذا الذي جعل الشمس أمام الأرض على مسافَة مُعَيَّنَة؟! لو نقصت فازداد قربُها من الأرض لاحترق كلُّ شيء على الأرض، ولو بعدت المسافة لعَمّ الْجَلِيدُ والصَّقِيْع وَجْهَ الأرض، وهلك الزرع والضرع.

فَمن الذي أقامها في مكانها ذاك؟ إن التأمّل في هذه المخلوقات السماويَّة الهائلة يُحَرِّك القلوبَ بهذا المخلوق العجيب، ويُشعر العبد بعَظَمَةِ الخالق -تبارك وتعالى-، الذي خلق كُلَّ شيء فَأتقنه.

سبحان ربي لاإله سواه
هتفت به بعد القلوب شفاه
في الكون في ذرَّاتِه في أرضه
وسماءه في الكائنات نراه

3 - قُتل أصْحاب الأخدود

جاء القرآن الكريم بأربع مؤكِّدَات، وأقسم بأربعة أقسام، لبيان أن عاقبة الظالمين لا بدَّ أن تكون وَخيْمَة، ومآلهم لا مَنْدُوْحَةَ عن أن تكون أسوأ، وأن الأمر لَحَقٌّ في الجزاء على الأعمال، وأوجز القرآن في هذه القصّة أيضًا كما هو دأبُه، فأشار إلى روح القصّة وسِرِّها، وذكر سبب هذه العاقبة السوءى بعبارة مُعَبِّرَة صِيغَتْ في قوالب من البيان الساحر، ولم يذكر في القصّة اسم البلدة وأسماء الظالمين ولا مَن ظُلِمُوا وأوذوا في الله؛ لأن كلَّ ذلك ليس بهدف من القصّة.

قال –تعالى-: {قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُوْدِ (4) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُوْدِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُوْدٌ (6) وَّهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُوْنَ بِالْمُؤْمِنِيْنَ شُهُوْدٌ}.

(سورة البروج: 4-7)

لُعن الذين شَــقُّوا في الأرض شَــقًّا عَظِيْمًا مســتطيلًا لتعذيب المؤمنين، وأوقدوا فيه النار الشــديدة يَرتفع لَهَبُها وألقوا المؤمنين فيها أحياءً، وهم كانوا يجلسون على حافّة النار المْسَــعَّرَة، ويَتَفرَّجُوْن على هذه الحادثة التي كانت مِن أبشــع الجرائم التي ارتكبت في تاريخ البشر، نُزعت الرحمة من قلوب هؤلاء الأشــقياء الذين قعدوا على شَــفِير الأخْدود يتلذَّذُوْن بتعذيب المؤمنين ويَتَشَفَّوْنَ بصُراخ أولئك المعذّبين، ويَسْخَرُوْن من أولئك المحاصَرين.

يا لَقســاوة القلوب! كيف يشــاهدون تلك الأفعال الإجراميَّة المؤلمة؟! أين الإنســانيَّة من هؤلاء وهم يَنظرون إلى عباد الله يَحترقون في اللَّهَب، ويصرُخُون من شدَّة الألم؟! أين الرحمة من أولئك الذين ينظرون إلى بَشــر مِثلهم يَتَضَــوَّعُوْن جُوْعًا، ويبكُون دَمًا، ويموتون عَطَشًــا من جَرّاء هذا الحِصَــار الظالم والبلاء العظيم؟!

فركّزت سورة البروج على معنى أساسي وهو اضطهاد المؤمنين وتعذيبهم بأيدي هؤلاء الظلمة، وجعل الله هؤلاء الظالمين "أصحاب الأخْدود" لأنَّهم أجرمُوا وزادوا في الإجرام، وابتكروا هذا الأســلوب في التعذيب حتَّى صــاروا أصحابه، وكتب في صحائف أعمالهم أنَّهم هم الذين اخترعوا هذا الأسلوب الإجْرَامِيّ لإيذاء الأبرياء، فوَيلٌ للكافرين الظالمين من

اليوم الموعود الذي أقسـم الله به، ووَيل لهم من يوم عظيم ينتظر هؤلاء الظالمين، ذلك اليوم الذي فيه الجزاء والحساب، اليوم الذي يلقى فيه الظالمون جزاء ظلمهم واضطهادهم، ويجد المؤمنون جزاء صبرهم وثباتهم، ويشهد في ذلك اليوم على هؤلاء الظالمين أَلْسِنَتُهُم وجَوارحُهُم بما جَنَتْهُ أيديهم.

أما واللهِ إن الظلمَ شُؤْمٌ

وما زال الظَّلُوم هو المَلُوْم

إلى ديّان يوم الدين نَمْضِي

وعند الله تجتمع الخُصُوْم

ستعلم في المعاد إذا التقينا

غدًا عند المليك مَنِ الظَّلومُ!

4 - تفسير القرآن بالسنة

ذكر الله -عزّوجلّ- قصّة أصحاب الأخدود بإجمال شديد مُرَكّزٍ على المعاني الأساسيّة والعِبر والعظات الحاصلة منها، وقصّها في هذه السورة المباركة فَحَسْبُ، ولم يأت ذكرها في موضع آخر من القرآن.

ولكن جاءت في السنَّة النبويَّة المباركة قصَّة طويلةٌ ينبغي أن تكون خيرَ تفصيلٍ لهذا الإجمال، وأحْسنَ تفسيرٍ لهذا الاختصار، وتلكم القصّة أيضًا مليئة بالدروس، مشحونة بالعِبر، مُحْتَوِيَةٌ على الفوائد الجمّة، ولا غروَ، فإن الكتاب

والسـنَّة كلاهما خَرَجَا من مِشْكَاةٍ وَاحدةٍ، وكِلَاهما وَحْي مِن الله، والسنّة المصطفوية هي المصدر الثاني، والينبوع الصافي لتفسير القرآن الكريم، وبيان معانيه ومراميه، فينبغي أن نُشَنِّفَ آذاننا بسماع هذه القصّة، ثم نستلهم منها بعض العبر والعظات.

فالقصّة موجودة في دواوين السنّة عن الصحابيِّ الجليل صُهيب الرومي -رضي الله عنه- أَنْقُلُها لكم من صحيح الإمام المسلم -رحمه الله- فإليكم نَصَّها:

قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: كانَ مَلِكٌ فِيمَن كانَ قَبْلَكُمْ، وَكانَ له سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ، قالَ لِلْمَلِكِ: إنِّي قدْ كَبِرْتُ، فَابْعَثْ إلَيَّ غُلَامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ، فَبَعَثَ إلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ، فَكانَ في طَرِيقِهِ إذَا سَلَكَ رَاهِبٌ، فَقَعَدَ إلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ، فَأَعْجَبَهُ، فَكانَ إذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إلَيْهِ، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلكَ إلى الرَّاهِبِ، فَقالَ: إذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ، فَقُلْ: حبَسَنِي أَهْلِي، وَإذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حبَسَنِي السَّاحِرُ، فَبيْنَما هُوَ كَذلكَ إذْ أَتَى علَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ، فَقَالَ: اليومَ أَعْلَمُ السَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟ فأَخَذَ حَجَرًا، فَقالَ: اللَّهُمَّ إنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إلَيْكَ مِن أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هذِه الدَّابَّةَ، حتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا، وَ مَضَى النَّاسُ، فأتَى الرَّاهِبَ فأَخْبَرَهُ، فَقالَ له الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ! أَنْتَ اليومَ أَفْضَلُ مِنِّي، قَدْ بَلَغَ مِن أَمْرِكَ ما

أَرَى، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى، فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ، وَكَانَ الغُلَامُ يُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِن سَائِرِ الأَدْوَاءِ، فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ، فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ، فَقَالَ: ما هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ، إنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي، فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّما يَشْفِي اللَّهُ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللَّهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ، فَآمَنَ بِاللَّهِ فَشَفَاهُ اللَّهُ، فَأَتَى المَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ له المَلِكُ: مَن رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ قَالَ: رَبِّي، قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غيرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ، فأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حتَّى دَلَّ علَى الغُلَامِ، فَجِيءَ بالغُلَامِ، فَقَالَ له المَلِكُ: أَيْ بُنَيَّ! قدْ بَلَغَ مِن سِحْرِكَ ما تُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَ الأَبْرَصَ، وَتَفْعَلُ وَ تَفْعَلُ، فَقَالَ: إِنِّي لا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّما يَشْفِي اللَّهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حتَّى دَلَّ علَى الرَّاهِبِ، فَجِيءَ بالرَّاهِبِ، فَقِيلَ له: ارْجِعْ عَن دِينِكَ، فأَبَى، فَدَعَا بالمِنْشَارِ، فَوَضَعَ المِنْشَارَ في مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ حتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بجَلِيسِ المَلِكِ فقِيلَ لَه: ارْجِعْ عَن دِينِكَ، فأَبَى فَوَضَعَ المِنْشَارَ في مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ بِه حتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِالغُلَامِ فقِيلَ له ارْجِعْ عن دِينِكَ، فَأَبَى فَدَفَعَهُ إلى نَفَرٍ مِن أَصْحَابِهِ، فَقالَ: اذْهَبُوا به إلى جَبَلِ كَذَا وَ كَذَا، فَاصْعَدُوا بِه الجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ، فَإِنْ رَجَعَ عَن دِينِهِ، وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ، فَذَهَبُوا به فَصَعِدُوا بِه الجَبَلَ، فَقالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بما شِئْتَ، فَرَجَفَ بِهِمِ الجَبَلُ فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يَمْشِي

إلى المَلِكِ، فَقالَ لَه المَلِكُ: ما فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ، فَدَفَعَهُ إلى نَفرٍ مِن أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا به فَاحْمِلُوهُ في قُرْقُورٍ، فَتَوَسَّطُوا بِه البَحْرَ، فإنْ رَجَعَ عن دِينِهِ وَإِلَّا فَاقْذِفُوهُ، فَذَهَبُوا بِه، فَقالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بما شِئْتَ، فَانْكَفَأَتْ بهِمِ السَّفِيْنَةُ فَغرِقُوا، وَ جاءَ يَمْشِي إلى المَلِكِ، فَقالَ لَه المَلِكُ: ما فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ، فَقالَ لِلْمَلِكِ: إنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حتَّى تَفْعَلَ ما آمُرُكَ بِه، قالَ: وما هُوَ؟ قالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ في صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَ تَصْلُبُنِي على جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِن كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ في كَبِدِ القَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فإنَّكَ إذَا فَعَلْتَ ذَلكَ قَتَلْتَنِي، فَجَمَع النَّاسَ في صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَ صَلَبَهُ على جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِن كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ في كَبِدِ القَوْسِ، ثُمَّ قالَ: بِاسْمِ اللهِ، رَبِّ الغُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ في صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ في صُدْغِهِ في مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا برَبِّ الغُلَامِ، آمَنَّا برَبِّ الغُلَامِ، آمَنَّا برَبِّ الغُلَامِ، فَأُتِيَ المَلِكُ فَقِيْلَ له: أَرَأَيْتَ ما كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ، قدْ آمَنَ النَّاسُ، فأمَرَ بالأُخْدُودِ في أَفْوَاهِ السِّكَكِ، فَخُدَّتْ وَ أَضْرَمَ النِّيرَانَ، وَ قالَ: مَن لَمْ يَرْجِعْ عَن دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا، أَوْ قيلَ لَه: اقْتَحِمْ، فَفَعَلُوا حتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الغُلَامُ: يا أُمَّهْ، اصْبِرِي فَإِنَّكِ على الْحَقِّ.

هذا هو الحديث النبويّ الشريف الذي ينبغي أن يكون أحسن تفسير، وأجمل تفصيل لقصّة أصحاب الأخدود، لأنَّ مَا خرج من مشكاة النبوة، ولسان صاحب الرسالة الأخيرة هو كالقرآن صدقًا وحقًّا، فهذا الحديث أيضًا موفور الفوائد، عظيم النُّكَت والمعاني.

وبَطَلُ القصّة فيه غلام صغير يُبتلَى ويُؤذَى ويُعَرَّضُ لِلقتل مرارًا، غلام داعية إلى الله، غلام يحمل في نفسه هَمّ إصلاح الناس، ويحمل في كَوامِنِ نفسه هَمّ دعوة الناس وهدايتهم إلى دين الحقّ، جاد هذا الغلام بكل ما يملك لإراءة الناس طريق الحقّ، حتَّى جاد بحياته، وجاد بروحه الزكيَّة، وفي القصّة تَتجلَّى مواقفُ أصحاب الدعوة الثلاثة: الراهِب، والغلام، وجليس الملك، والقصّة خيرُ شاهد لكرامات أولياء الله وأصفيائه.

بالقصّة تظهر أن الغلام أعطى جليس الملك الشفائين: شفاء القلب، وشفاء الجسد، ووصف له الدواء الإيمانيّ ثم أعطاه الدواء الجسمانيّ، ويلوح بالقصّة ثبات الذين أمنوا بِربِّ الغلام، كيف وَقَرَ الإيمان في قلوبهم بسرْعةٍ عجيبةٍ، حتَّى صبروا على الموت تحت لهيب النيران، وفي القصّة تثبيت لأفئدة أهل الحق والثبات، وتسلية لقلوبهم، ومُدَاوَاة لجِرَاحِهم.

5 - أُمّاه! امضي فَإنَّكِ على الحق

أجَّجَ أصحاب الأخدود نارًا في الأخاديد، وأتوا بالمؤمنين، وعَرَضُوا عليهم الكفر أو الإلقاء في النار، فاختاروا الإلقاء في النار مع بقاء إيمانهم، فأقحموا من المؤمنين في النار جَمًّا غفيرًا لا يُحْصِيْ عددَهم إلا الله، حتَّى جيئت بامرأة تُرضع صبيًّا لها، فأحْجَمت من إلقاء نفسها مع طفلها في النار، فأنطق الله الصبيّ فقال لها: "أماه! امضي فإنك على الحق، فاقتحمتِ النار، كانت هذه المرأة لا تخاف نفسها من النار، لكن كانت تُشْفِق على ولدِها وثمرة فؤادها، ولأجله تتقاعَس، ولكن الطفل يُنادي وينطق بأمر الله بالصبر والثبات، فألقت المرأة الضعيفة نفسَها وهي تحمل طفلها الرضيع في تلكم النار.

يا له من مشهد مُروِّع! ويالها من جريمة عظيمة! كيف ينظرون هذا المنظر المؤلِم! لقد كانوا قومًا غِلاظَ الأكبَاد، وقُساةَ القلُوب، فقدوا كلَّ معاني الرحمة، وتجرَّدوا عن الإنسانيّة، لأن الكفر والباطل بلغ منهم كل مبلغ، وبالمقابل يا سبحان الله! أيُّ إيمان هذا؟! وأي ثبات واستقامة هذه؟! لقد كان هؤلاء المؤمنون أشدَّ صَلابةً من الجبال الراسيَات في دينهم والإصرار على إيمانهم.

6 - وما نقموا منهم إلّا إيمانهم

ما سـببب هذا التعذيب الفظيع؟! لماذا هذا الإحراق بالنار؟ ما جريمة هؤلاء الذين أُلْقُوا في النار؟ هل ارتبكوا عَظيمًا يا تُرى؟! هَل أَتَوْا بِذنب استحقوا به هَذا العقاب المروّع؟! فالجواب ما ذكره العلِيّ الأعلَى: {وَمَا نَقَمُوْا مِنْهُمْ إِلَّآ أَنْ يُّؤْمِنُوْا بِاللّٰهِ الْعَزِيْزِ الْحَمِيْدِ (8) الَّذِيْ لَهُ مُلْكُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَاللّٰهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيْدٌ}. (سورة البروج:8-9)

ما أنكر هؤلاء الجبابرة عليهم ذنبًا إلا إيمانهم، ولا عابوا عليهم إلا أنهم صدَّقُوْا بالله ذي الصفات العُلَى، كانت جريمتهم أنهم يؤمنون بالله العزيز الذي لا يُضَام ولا يُرام.

هل الإيمان بالله عيبٌ؟! هل التصديق بالصدق والحقّ جريمَة؟! هذا ليس بعيب، وهذه ليستْ بجريمةٍ، الإيمان بالله والتصديق بما جاء به الرسل أصل المحامِد، وأُسُّ المكارم، ولكن المشركين يعُدُّوْنه كلَّ العيب.

لا عيبَ فيهم سِوى أنَّ النزيل بهم
يَسلو عن الأهل والأوطان والحشَمِ

تَطَوَّرَتْ نَظْرَة الإنسان لكلِّ شيء مع مرور الزمن إلا نظْرة الكفار للمسلمين ودمائهم، ليسَت المعركة بين المؤمنين وخصومهم قديمًا وحديثًا إلَّا في الإيمان والعقيدة فَحَسْب، وليست في شيءٍ آخر، إنَّ أعداءنا لا يَنْقِمُون مِنَّا إلا هذه

العقيدة، ولا يسخطون مِنَّا إلَّا هذا الإيمان، ما أُحْرِق المؤمنون في الأخدود إلا نِقْمَة من الكفار لإيمانهم، لأجل هذا الإيمان وهذه العقيدة قُتِل كثير من الأنبياء، وأُوذي في الثبات عليه كثير من الأولياء، وكم أريقت ولا تَزَال تُرَاقُ في طَريقه من الدماء الطاهرة الزكيَّة! فإن كان هذا ذنبًا فلا بُدَّ أن يُكَرَّر مرّة تِلْو أخرى إلى يوم العرض والجزاء!.

7 - العزيز الحميد

ذكر الله -عزَّوجلّ- هنا من أسمائه الحسنى وصفاته العُلَى ما يُناسب هذا المقام، ويدُلُّ على أنّه سوف ينتقم من الظالمين، ولا يُفْلِتُ أحدٌ من عِقابِه وبَطْشِه، لأنه هو العزيز القاهر الغَلَّاب، الشديد في انتقامه ممن انتقم من أعدائه، وهو الحميد المحمود في جميع أقواله وأفعاله، وهو مُتَّصِفٌ بصفات الجلال والجمال والكمال، وهو الشهيد لا يخفي عليه شيء، وإن دقّ وصغُر، ولا يَعْزُبُ عنه مثقال ذرَّة من أفعال العباد وأقوالهم.

ولو شاء الله لَكَفَّ أولئك الجبابرة من تعذيب المؤمنين، ولأطفأ نِيْرَانَهم، ولكنَّه -سبحانه- لا يُعجّل بالعقاب، إنه يُمْهِل ولكنه لا يُهْمِل، وكلُّ ما جرى في العالم ويجري هو وفقَ سننه ونواميسه، ما جرى في هذه القصّة جرى في مُلكه وسلطانه، ما كان بعيدًا عن سَطْوَتِه وقُدْرته، وما جرى لم يَجْرِ في غفلة

وسهو منه -سبحانه وتعالى-، بل جرى ذلك وهو شهيد عليه، مطلع على ذلك، إِذًا فأين جزاء هؤلاء الظالمين؟! أهكذا ينتهي الأمر؟! أهكذا تذهب الفئة المؤمنة مع آلامها واحتراقها بنسائها وأطفالها في حريق الأخدود؟! أتفلِتُ تلك الفئة الباغية الطاغية التي قارفت تلك الجريمة وشَفَتْ غليلَها؟! يأتي الجواب: كلا، لم تُفْلِت أبدًا، إن مجال الجزاء ليست الأرض وحدها، إن الخاتمة الحقيقية لم يَجِئْ بعدُ، وَإن الجزاء الحقيقي لم يأت إلى الآن، القصّة لَمَّا تَنْتَهِ، بل بقِي منها الجزاء الأخير، وهو عندما يَجمع الله الأوّلين والآخرين، ثم يفصل بينهم بالحق، وحينئذ يأتي الحكم النّهائي.

وهؤلاء الذين أحرقوا المؤمنين في الأخدود سيُحرقون، ولكن أين؟! في جهنَّم، الذين أحرقوا المؤمنين في الدنيا سيُحرقون في الآخرة، وما أعظم الفرقَ بين حريق وحريق في شدته ومدته! أين حريق الدنيا من نار يُوقدها العزيز الحميد الشهيد؟! أين حريق الدنيا الذي ينتهي في لحظات من حريق الآخرة الذي يمتدّ إلى أبد الآباد!

فورود هذه الصفات الجليلة في هذا المقام يدل على العدل التام والجزاء الوافي من الله -تعالى-، وفيه وعيد شديد للجبابرة الطغاة بأن كل الملوك وكل العروش إلى زوالٍ وفناء إلا ملك العزيز الحميد، وأكثر الصفات التي يُنازع فيها أهلُ

الباطل اللهَ -عزوجل- صـفتَان: العزة، والحمد، فالملوك تحب دائمًا أن تكون عزيزة لا تَـذِلُّ أَبَـدًا، وأن تُحْمَـد على أفعـالهم وتصرَّفَاتهم، ولكن أبى الله إلا أن تكون العزة والحمد والكبرياء كلها لذاته العَلِيَّة دون سواه.

8 - وَعْدٌ وَوَعِيْدٌ

لما بيّن الله -عزّوجلّ- قصَّـة أصـحاب الأخدود بإيجاز وإجمال ذكر سـنته في التعامل مع الفريقين، لأنه ملك ديَّان، أقام الكون على العدل والقِسْـط، ولا يظلم أحدًا مثقال ذرة، وسنته "الجزاء من جنس العمل" مُطَّرِدَة عامَّة شامِلة، تجدها حاضِرَةً أتمَّ الحُضور في كل قضيَّة صغيرها وكبيرها، فَقال -جَلّ اسـمه- بيانًا لسـنته العادلة: {إِنَّ الَّذِيْنَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُؤْمِنَـاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوْبُوْا فَلَهُمْ عَـذَابُ جَهَنَّمَ ولَهُمْ عَـذَابُ الْحَرِيْقِ}. (سورة البروج: 10)

عـذاب جهنم وعـذاب الحريق جزاءً وِفَـاقًا، وجزاءً من جنس العمل، أحرقُوا عبادَ الله الأبْرِيَـاء في هذه الـدنيا بـدون ذنبِ اقْترفوه، فجازاهم الله في الآخرة بعذاب النـار والحريق، دَانهم الله كما دانُوا، وأوعـد الله كل من عمل عملهم بـأنـه سـيصـيبهم ما أصـابهم، فَافعل ما شـئت كما تدين تُدَان، قد يُمْهِل الله الظالمين المعتـدِين، ولكنـه لا يُهمِلهم، قـد يَفْرَحُون بقتل الأبرياء وسَـفْكِ دِمائهم، ويظنون ظَنًّا خَاطئًا أنّهم أَفْلَتُوْا

من عقاب الله، ولكن الله لهم بِمِرصَـاد، إن نجوا من العقاب الدُّنيَوي فلا ولن ينجوا من العقاب الأخروي.

ومن كرم الله وجُوْدِه أنه عرض التوبة على المجرمين في نفس الآية، ووعدهم بقبوله قبل غَلْقِ باب التوبة، وإن لم يتوبُوا، ويستمروا على دأبهم فَلابد أن ينالهم العذاب الشديد، كما نال أصـحاب الأخدود العذابُ الشـديدُ المُحْرِق، قال الحسـن البصـري -رحمه الله-: أُنْظروا إلى هذا الكرم والجود، هم قتلوا أولياءه، وأهل طاعته، وهو يَدْعُوْهم إلى التوبة!.

9 - ذلك الفوز الكبير

ماذا للمؤمنين الذين أُحرقوا في الأخدود في الله ولله؟

مَاذا أَعدّ الله للذين أوذوا في ذاتِ الإله الواحد الحق أذًى لَو أُنزل على الجبال لَأزالها؟! ماذا لِلَّذين يُضَحُّوْن بأنفسـهم، وَيجودون بأرواحهم لأجل التوحيد والدين الخالص؟! فما جزاؤُهم؟! وما جائزتهم؟! جزاؤهم، وجائزتهم، وإنعامهم يكون حَسبَ مُقْتَضَى هذه الآية: {إِنَّ الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِيْ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيْرُ}.

(سورة البروج:11)

لهم بسـبب الإيمان والعمل الصـالح والتَّضْحِيَات الجِسَـام جنات مُتَّصِـفَة بهذه الصـفة، لهم الحدائق الغنَّاء، والبسـاتين الزَّاهرة تجري فيها أنهار الخَمْر، واللَّبَن، والعَسـل،

والماء العذب المصفَّى، لَهم جنات تحت قصورها وأشجارها أنهار جارية، فيها سُرور دائم، وبَقاء أبَدي، فَالْبلُوغ إلى هذه الجنات فوز كبير لا يَعدله ولا يقاربه ولا يُدانِيه فَوزٌ، هذا هو الفوز الحقيقي، وليس وراءه ما يقال له فوز وظَفَرٌ، فإنَّ كُلَّ فَوز دون الجنة وإن كان بجميع المطالب والمُتَع ليس بشيء، ومن دخل الجنة فقد فاز بِأَسْمَى مَعانيه، ودخول الجنة يشتمل على نعمتين عظميتين: النجاة من النار، ونَعيم الْجنة، فَمن نالها نالَ مبتغَاه، وبلغ من الفوز منتهاه.

اَللهم لا فوز إلا فوز الآخرة، ولا عيش إلا عيشها، ولا نعيم إلا نعيمها، فاغفِر لنا ذنوبنَا، واستر عيوبنَا، وارضَ عنا رِضًا لا تسخط بعده أبدًا، وأنِلنا هذا الفوز الكبير بفَضلك وكرمك. آمين!

قصة فيها بيان المد والجزر، والازدهار و الانهيار، والارتفاع والانخفاض، تبين أسباب الرقي والتقدم و تُشير إلى معاول الدمار والبوار، و فيها من العبر والعظات ما لا يقع تحت حصر.

قصَّة سَبَأ

1 - نُبذة عن سبأ

تَعالو بنا إلى قصَّة أخرى من قصص القرآن الكريم، قصَّة كلها عبرة وعِظَة. قصَّة تدل على سنن الله الثابتة الصارمة التي لا يُنَازِعها أحد ولا يُصَادمها أحد، قصَّة تدل على المدِّ والجَزْر، والازدهار والإنْهيار في تاريخ الأمم، قصَّة عن مدينة ودولة كَانت من أجمل المُدُن، وأرقى الدُّوَل في زمنها، ولكنها باتَتْ قاعا صَفْصَفًا، لا ترى فيها خُضْرَة ولا نَضْرَة، مملكة سادت ثم بادت، وأصبحت رواية تُرْوَى، وحكاية تُحْكَى، قصها الله علينا في القرآن الكريم بأسلوب موجز بديع رائع يشنِّف الآذان، ويقرع الأسماع، ويؤثر في القلوب.

لم تذكر في القرآن الكريم تفاصيل هذه المملكة مُتَرَامِية الأطراف ووَاسعة الأركان، وإنما رُكِّز تَركيزًا خاصًّا على العبر والعظات الحاصلة من هذه القصّة. كما هو معروف من

كريم عادة هذا الكتاب المعجز، وجاء بعض تفاصيلها في الأحاديث، نكتفي منها بما يَصحّ.

واسم سبأ يُطلق على الأمة كما هنا، وعلى بلادهم كما في آية النمل، وسبأ كانت مملكة عظيمة في بلاد يمن، سميّت باسم رجل من العرب، اسمه سَبأ، وكان يسكنها في قديم الزمان، جاء في مسند الإمام أحمد -رحمه الله- عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: سأل رجلٌ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم-، عن سبأ، ما هو؟ رجل أم امرأة أم أرض؟ فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- بل هو رجلٌ ولدَ عَشَرَةً، فسكن اليمن منهم ستةٌ، وبالشام منهم أربعةٌ، فأما اليمانيون: فَمَذْحِجٌ وكِنْدَةُ والأزدُ والأشْعَرِيُّون، وأَنْمار، وحِمْيَر عَرَبًا كُلُّها، وأما الشامية: فَلَخْم وجذام وعاملةُ وغسَّان.

(رواه أحمد وقال شاكر: إسناده صحيح)

هذا يكفينا عن كلمة سبأ، ومسكنها وموطنها.

2 - في مسكنهم آية

تُمَثِّل القصّة القرآنية أمّةً بأمّة، وبلادًا بأخرى للاعتبار والاتِّعاظ، عَرض الله -عزَّوجلَّ- أحوال قوم سبأ ليَتعظ بها الناس الموجودون في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- ومَن جاء بعدهم إلى يوم القيامة، ويُتلى عليهم هذا الكتاب الخالد.

كان في مسكَن سبأ وأحوال بِلادهم أمارة واضحة لهم

لِتَعرُّفِ نعم الله عليهم وأداء شكره عليها، وكان فيها دلالة بيّنة على كمال قدرة الله وبديع صُنْعِه، وكان فيها حجة قاطعة على تغيّر الأحوال وتقلُّب الأزمان، وفيها دروسٌ عظيمة لكل من بَلَغَتْه قصتُهم.

كان لهم بستانَان: أحدهما عن اليمين، والثاني عن الشمال، فكانوا ينتفعون بهما، ويتمتعون بما أودعهما الله من الثمار الطيبة، والأشجار الوارفة الظلال، والماء العذب الزُّلال، وكانت النعم تَحُفُّهُم من كل جانب، وهم في بُحْبُوحَةِ العيش ومُتعة الحياة، كانت بلادهم ذات أودية عديدة عريضة واسعة، وتُربة خصبة، ولكنها كانت قليلة المياه، لأنها لا أنهار فيها، فيعيش أهلها ما ينزل عليهم من الأمطار وهي تهطِل ثم تمضي سريعًا، ولم يمكث ماؤها في قرارة الأودية، فهداهم الله وألجأتهم الحاجة إلى أن يَبتكروا أمرًا يُخزِّنون به المياه الهادرة الضائعة، ففكرُوا طويلًا، وهُدُوْا إلى طريقة بناء السدود والحواجز بين الأودية التي تجمع لهم المياه، فينتفعون بها طوال السنة.

وقد كثرت تلك السُّدود، وتعددت الحواجز، ولكن سدّ مأرب المشهور كان أقواها وأمْتَنَهَا وأنفعها، فقد كان سدًّا عريضًا منيعًا، وجعلوا له عيونًا تُفتَح وتُغْلَق، وهكذا يخزّنون الماء الوفير، وأصبح الوادي المقفر حديقة غنَّاء، واكتسى حُلَّة

خضــراء، ويُبرز منظرًا خلَّابًا يَسْــحَرُ العيون، ويُبهِرُ القلوْب، ويُمَتّع الأفئِدة، حـدائق غنَّاء، وزروع خضــراء، وماء مُتَدفِّق، وعيون تجري، وبلابِل تصــدح، وطيور تُغَرِّد، وقطوف دانية، وثِمار يانعة، وقُطَّانُها يعيشــون في جنة الدنيا، يقول -تعالى-: {لَقَدْ كَانَ لِسَـبَإٍ فِيْ مَسْـكَنِهِمْ آيَةٌ، جَنَّتَانِ عَنْ يَّمِيْنٍ وشِـمَالٍ، كُلُوْا مِنْ رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوْا لَهُ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَّرَبٌّ غَفُوْرٌ}.

(سورة سبأ: 15)

3 - النهج الرشيد

أَغْـدَقَ الله على أهل ســبأ من نعمه وآلائه الشــيءَ الكثير، فبســب هـذه النعم الوافرة أخْصَــبَ لهم العيشُ، وطابت لهم الحياةُ، وكانوا يَتَقَلَّبُوْن في أعطاف النعيم، وهاتان الجنتان اللتان ذكرهما الله هنا منهما غالِبُ أقواتهم وأرزاقهم، وقد علّمهم الله النَّهج الرشيد في التعامل مع نعمه، والتصرف في آلائه، فقال جل في علياته: "كُلُوْا مِنْ رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْـكُرُوْا لَهُ" أمرهم أن يأكلوا من هذه النعم، وأن يستعملوها في قضاء حوائجهم، وأن يختاروا في استعمال النعم نهجًا رشيدًا.

والنهج الرشيد أن تُسْتَعمَل النعمة فيما لأجْله مُنِحَتْ، وأن يُنْتَفع بها انتفاعا تامًّا وَفْقَ إرشـاد المنعم، وليس من النهج الرشــيـد أن يُعرض المرء عن نعم الله، ويختـار الرهْبـانِيـة والتقَشُّــف الزائد، وأن يبتعد عن الاسـتمتاع بما وَهَب الله له

وأعطاه، بل النهج الرشيد ما قال الله لهم: "كُلُوْا مِنْ رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوْا لَهُ" الاستمتاع بالنِّعم، والتحديث بها، وأداء الشكر عليها هو النهج الرشيد، فيجِب على المنعَم عليه أن يعترف بفضل المنعِم -سبحانه-، ويُحِبُّه من سُوَيْدَاء قلبه، وأن يتحدَّث بنعمه ظاهرًا، ويُثنيْ عليه بما هو أهله، وأن يصرف النعم المُسْدَاة إليه في طاعته ومَرْضَاتِه، وأن لا يجعل هذه النعم ذريعة إلى عصيان المنعِم، ووسيلة إلى معاصيه.

هذا، وما قيل لأهل سبأ يقال لَنَا ولكل من بلغته قصتهم، فهل نختار نهجًا رشيدًا في التعامل مع نعم الله؟!

4 - بلدةٌ طيبةٌ

ما من لفظ فى هذا الكتاب الكريم إلا وهو معبِّر عن حقيقة، ومشير إلى غرض وفائدة، وحاشاه أن يكون فيه حرف اعْتِبَاطِي ليس له مرمَى ولا مَغزَى، فكلمة "بلدة طيبة" في خلال هذه القصّة تدل على عِظَمِ نعم الله عليهم، ووَفْرَة آلائه وأُعْطِيَاته لهم، لقد أسكنهم ربهم -تعالى- بلدة طيبة التربة، حسنة الهواء، كثيرة الخيرات، كأن البلدة كلها تَعْبَقُ منها رَوائحُ لذيذةٌ طيبةٌ، كانت هذه البلدة طيبة لكثرة أشجارها، وطِيْب ثمارِها، أينما حلَّ أهلها وارتحلوا وجدوا وفرة النعم، وكثرة الظلال، ومتعة العين والقلب والروح.

كانت البلدة ذات اعتدال هواءها وصحة مُنَاخِها، فكانوا في رَغَد عيش، وطيب حياة، وصحة بدن، وهذه الأشياء كلها تُوْجب الشكر لله -عزّوجلّ-، وتَفْرِض على العبد الحمدَ والثناء عليه -سبحانه وتعالى-.

5 - رب غفور

هنا في الدنيا بلدة طيبة، ورغد عيش وحياة هانئة، وهناك في الآخرة رب غفور، يَغفرلكم ذنوبَكم وزلّاتِكم شريطةَ أن تشكروه على نعمه، وأن تستمروا على التوحيد والطاعة، لأن الشكر قَيْد النعم الموجودة وصَيْد النعم المفقودة.

خصَّكم الله بنعمتين عظيمتين: نعمة البلد الطيب، وفوقها نعمة مغفرة الذنوب والتجاوز عن السيئات، لقد خصَّكم ربكم بخَيْرَيِ الدنيا والآخرة، سَماحة في الأرض بالنعمة والرخاء، وسَمَاحة في السماء بالعفو والغُفران، فماذا يُقْعِدُكم عن الحمد والشكر؟! فاستمتعوا بهذه النعمِ شاكرين، وارجوا هناك تلك النعم التي أفضلها وأجلُّها مغفرة الله ورِضوانه، بلدة طيّبة مِعْطاء، آمنة مطمئنة رَخاء، ورب غفور، جوّاد رحيم، فأيُّ عُذْربقيَ لكم؟! وماذا يحول بينكم وبين حسْن النية وصلاح العمل؟!

6 - كُفران النعمة سبب في زوالها

أما رأيت كيف أحاط الله قوم سبأ بكل عِنَاية؟! وكيف خصَّهم بكل نعمة؟! أطعَمَهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم بلا عَدٍّ ولا حساب! فماذا يَضِيْر قوم سبأ لو أطاعوا ربهم! وماذا عليهم لو عرفوا للخالق الوهّاب حقَّه؟! ولكنهم نسوا فضل الله وعظيم مِنته وتجبَّرُوا وطغَوا "فَأَعْرَضُوْا"، أعرضوا عن توحيد الله وعبادته، وطاعته وشكره على نعمه الجَسِيْمَة.

هُنا، وفي هذا الإعراض مَكْمَن الخطأ، وبداية النهاية، وبَوادِر الكارثة، أعرضوا عن شكر المنعِم وكفروا بالنعمة، وما اغتنموا العافية.

كانوا في نعمة سابغة، فلم يَصُونُوها بالشكر والطاعة، بل ضيَّعوها بكفرهم وإعراضهم، فأراد الله أن يذيقهم وَبَال أمرِهم وأن يُرِيَهم عاقبةَ كُفرانهم، فجاءهم العذاب من حيث لا يحتسبون، حُرِمُوا الجنتين، وسُلِبُوا النعيم، وأصبحوا عبرة للمعتبرين عبر القرون ومَرَّ الزّمان، يقول -جل في عُلاه-:

{فَأَعْرَضُوْا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَّأَثْلٍ وَّشَيْءٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيْلٍ (16) ذَلِكَ جَزَيْناهُمْ بِمَا كَفَرُوْا، وَهَلْ نُجازِيْٓ إِلَّا الْكَفُوْرَ}. (سورة سبأ: 16-17)

7 - سيل العرم

الماء نعمة من الله عظيْمة، لا حياةَ بدون الماء ولا أحياءَ، خَلق الله من الماء كل شيء، وجعل الماء سببًا في حياة كل حيّ، وكان أهل سبأ في جنة الدنيا من أجل هذه النعمة الغالية، لأنهم رَدَمُوْا ردمًا بين جبلين لِحَبْس الماء عليهم، ولكن الله -عزوجل- إذا غَضِب على قوم، وأراد أن ينتقم منهم، انقلبت نعمتهم نقمةً، وعاد سبب البقاء سببًا في الفناء، وهكذا كان، أرسل الله على أهل سبأ السَّيْل الجارف الشديد، وجَعل الماء الذي كان نعمة لهم نِقمة عليهم، فأصبح هذا الماء المخزون في السدِّ عَذَابًا لهم، تَهَدَّم السَّدُّ وانتقض الرَّدْمُ، ودخل الماء جنتهم فأغرقها، ودفن السيلُ بيوتَهم، وخرّب ديارهم، وأصبح هذا الماء عَرِمًا يقتلع أشجارهم، ويُقَوّضُ دُوْرَهُم، ويطمِس زهرةَ حياتهم، لَقَدْ كان سيلًا مَهولًا يُحَطِّم كل شيء في طريقه، حتى عاد الوادي كما كان في صحراء مُقْفِرَة مُجْدِبَة، وكل ذلك تمَّ، وسببه كفرهم وتكذيبهم وإعراضهم عن الحق، وعن نصح الناصحين!

8 - جنتان بجنتين

أهلك الله بسيل العرِم جنتَيْهم اللتين كانتا مشتملتين على الأشجار المثمرة، والفواكه الطيبة، وبدَّلهم بهمَا جنتَيْن لا نَباتَ فيها سِوى أشجار لَا تُثمر إلَّا كُلَّ مُرٍّ بَشِعٍ، كانت الجنتان

مُورِقتين خَضــرَاوَيْن مُعجِبتَين، فإذا في ســاعة من نهار بُدلِتا بجنتين ذَوَاتَي ثمرٍ مرّ الطعم، كريهِ المنظر، لا يَنبُتُ فيهما إلا شجرُ الطَّرْفَاء والأَرَاك والسِّدْرُ كثيرُ الشوك قليلُ النفْع، بُدِّلَت الجنتان من الثمار النَّضِـيجَة والمناظر الحســنة، والظلال الوارفة، والأنهار الجارية إلى أشجار ذات أشواك، وثمار مرَّة.

الجنتـان اللتـان أعجبتـاهم وأوقعتـاهم في الكبر والغطرســة أصــبحتا لَوْعَةً في القلب، وحَســرةً في الصــدر، ودَمْعَةً في العين، هَربَت منهما العَصَافير والبَلابِل، ويبقى البُوْم يَصِيْحُ، والغِربانُ تنعَقُ فوق الأشجار الجافَّة، وفي هذا التبديل وانقلاب الأحوال عِبرة وعِظـة لكـل من ابتُلِيَ بهـذه الأمراض الفتَّـاكة، أمراض الأمم الهالكة، نعوذ بالله من زوال نعمته، وفجاءة نقمته!

9 - باقَة أُخْرَى مِنَ النِّعَم

ذُكرت في ما قبلُ النِّعمُ التي حَصــلت لأهل ســبأ في موطنهم ومسـكنهم، وهنا تُذكر تكملةً للقصـة باقة أخرى من النعم التي يتمتَّعُون بها في الأســفار خارجَ بلادهم، يقول -عزّ اسمه-: {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرى الَّتِيْ بَارَكْنَا فِيْهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَّقَدَّرْنَا فِيْهَا السَّيْرَ، سِيْرُوْا فِيْهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِيْنَ}.

(سورة سبأ: 18)

كانوا يخرجون من بلادهم إلى البلاد الشامية قوافلَ للتّجارة وبيع الطعام، وكانوا يسلكون طريقة تِهَامة، ثم مشارفَ الشام، ثُم بلاد الشام، وكان لهم من سبأ إلى خارجها طُرُق مأمونةُ الاتِّجاهات، محدودةُ المسَافات، وكانوا كلما ساروا مَرحَلة وجدوا قرية أو بلدًا أو دارًا للاستراحة، ويجدون في هذه القُرى كُلَّ مَا يحتاجون إليه من الطعام والشراب متوافرًا، كان الغَادِي منهم يَقِيْلُ في قرية، والرائحُ يبيت في قرية أخرى، إلى أن يبلغ الشام، لا يخاف جوعًا ولا عَدوًا، وكانوا يسيرون في أي وقت شاؤوا من ليل أو نهار آمنين، لا يخشون أحدًا، ولا يوجسون من شيء خِيْفَةً.

وقَدّم الله هنا الليالي على الأيام للاهتمام والامتنان بها، لأن المسافر يخاف في الليل من القُطَّاع والسِّبَاع أكثر، فإذا كان السَّيْر في الليل بهذا الأمن والراحة، فما ظنكم بالسير في النهار؟! وكانوا يجدون أيضًا في البلاد الشامية مُتعة ورَاحة، لأن الله بارك فيها بالمياه والأشجار والخيرات الكثيرة، هكذَا كانت أسفارهم، كأنهم في بيوتهم آمنين مُطْمَئِنِّيْن، وأي متعة بعد هذه المُتَع؟! وماذا يبغون بعد هذه النعم؟! وكانت هذه النعم تنادِيهم وتُذكرهم بأن افهموا وارجعوا إلى الرشد، واتركو البَطَر وكفران النعم، ولكن هيهات هيهات أن يستفيق المُتْرَفُوْن عن سُباتِهم العمِيْق!

10 - دعاء عجيب ومَنْطِق غريب!

كَان يجب عليهم أن يشـكروا هذه النعم الوافرة التي حَصَلَت لَهم، وقَلَّما تَحْصُـل لقوم آخرين، ولكن يا للأسـف! ملوا الراحـة والأمن ورغَـد العيش: {فَقَـالُوْا رَبَّنَـا بَـاعِـدْ بَيْنَ أَسْـفَارِنَا وَظَلَمُوْٓا أَنْفُسَـهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيْث وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ، إِنَّ فِيْ ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُوْرٍ}. (سورة سبأ: 19)

دعاء عجيب! ومَنطِق غريب! رَبنا اجعل بين أسـفارنا مسـافَاتٍ بعيدةً، ومفاوِزَ شَـاسـعة حتى نَشْـعُرَ بعَنَاء السـفر ومشـقَّةِ الطَّريق. يا لَلسَّفَه والجنون! ويا لَلحَمَاقة وقلة الفهم! قوم متَّعهم الله بكل مُتع الـدنيـا ووفَّرَ لهم لَـذَاذَات الحيـاة، وجعل لهم قرًى متَّصـلةً، ومُدنًا مُتَلاصِـقَة، وطُرُقًا آمنة، فإذا هم يطلبون المسافات البعيدة، والقرى النائية!

يا لله! لقد طفح الكَيْلُ، وبلغَ السَّـيل الزُّبَا!. وهكذا يفعل كل من يتمتَّع بنعم الله بدون شـكرها، فإنه لا يشـعر مَدَى إنعـام الله عليـه، ويَمَلُّ من الطَّعَام الشَّـهِي، والمَرْكَب الهَنِيء، والمسـكن البَهِيّ. والملل من خصـال ذميمة وعـادات قبيحـة، قـال عمرو بن العـاص -رضـي الله عنـه-: "المَلَل من كَواذِب الأخْلاق" فَلما انتهوا إلى هـذا الحدّ فُعل بهم ما فُعل، وصار أمرهم إلى ما سمعتم وستسمعون.

11 - تفرَّقوا شَذَر مَذَر

النعمة إذا شُكرت قَرَّت وإذا كُفِرَت فَرَّت، لما سَئِمُوْا النعمة والراحة، ودعوا بدعاء عجيب بَطَرًا وكِبرًا، عجَّل الله إجابتهم، فحلت بهم أسبابٌ سَلبَتْ تِلكُم النّعم، وفرَّقهم الله في شتى البلاد كلَّ التَّفريق، ولم يبقَ منهم إلا شراذمَ قليلة، تفرقت هنا وهناك في البلاد المُخْتَلفة، تفرَّقوا شَذَرَ مَذَرَ، ومُزِّقُوْا كُلَّ تَمزيق، كَمَا يُمَزَّق الثَّوب ويُقطَّع قِطَعًا، وجعل الله أولئك الذين كانوا في جنة الدنيا وبَحْبُوْحة العيش أحاديثَ الأسمار يَتَفَكَّهُ بها السُّمَّار، وصار وجودُهم في الأخبار والقصص، ويتحدَّث الناس عنهم تَعجبًا من فعلهم وحالهم، حتى يضرب بهم المثل، فيقال: "تَفَرَّقُوا أَيْدَيَ سَبَأ".

أين الملوك ذوو التِّيجان من يَمَنٍ

وأين منهم أكالِيلُ وَ تِيْجَان؟!

ما أهون الناسَ على الله! إذا عصوه، وملُّوا النِّعم، وتكبروا وتجبَّروا، ولم يُؤَدُّوْا شكر الله على نعمه وآلائه! نسأل الله السلامة والعافية!

12 - لكل صبَّار شكور

في أحوال أهل سبأ وقصتهم آيات كثيرة، ودلالات واضحة لكل من ينتفع بالمواعظ والآيات، ولا ينتفع بالمواعظ ولا يَتَّعِظُ بالآيات إلا مَن هو كثيرُ الصبر والشكر، لا ينتفع

بهذه الأحوال العجيبة والقصص الغريبة كل أحد، لأن أكثر الناس لا يستمعون لهذه القصص، ومَن يستمع لها لا يتدبر فيها، ولا يفهم أنه هو المَعْنِيُّ بها.

ففي هذه القصّة تذكير بآلاء الله و تذكير بأيامه، وهما من علوم القرآن العظيمة، وفيهما مقام الشكر والصبر، وبهما يحصل التذكير والعظة، ويُبْعَث النفس على الصبر والشكر، والصبر والشكر صفتان عظيمتان تُحَرِّضَان الإنسانَ على الثبات ولزوم جادّة الحَق مَهْمَا تَقَلَّبَت الأحوال، وتغيرت الأزمان، ويَمُر كُلُّ إنْسان في حياته بمراحل مختلفة، فيومًا راحة ويومًا مشقة، ويومًا عافية ويومًا مصيبة، ويوم له ويوم عليه.

هي الأمور كما شَاهَدْتُهَا دُوَل

من سَرّه زمن ساءَتْهُ أزمانُ

وهذه الدَّار لا تُبْقِي عَلَى أحد

ولا يدومُ على حال لها شانُ

فلا بد للعاقل أن يتدرَّع بهَذَيْن السلاحين: سلاح الصبر وسلاح الشكر، إن أتته المكَارِهُ والشدائدُ فليتحمَّلها لوجه الله، ولا يَتَسَخَّطهَا، بل يصبر عليها، وإن أصابته النِّعَم فليعترف بها، وليشكر الله عليها، ولْيُثْنِ عليه وَلْيَصْرِفْها في طاعته.

13 - وَجَدَ ظنَّه صَادقًا

في نهاية هذه القصّة نبَّهَ الله المؤمنين على كيد

الشـــيطان وســـوء عاقبة من اتَبعه لِيَحْذَرُوْه وَ يســـتيقظوا لِكيده، فلا يقعوا في شَرَكِه وإغوائه، فقال تعالى: {وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيْسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوْهُ إِلَّا فَرِيْقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِيْنَ}.

(سورة سبأ: 20)

الشـــيطـان يظن بـالنـاس أنـه إذا أغوَاهم اتبعوه، وكثيرًامَّا صـــدّق ظنه عليهم، وهكذا ظن أبليس بأهل الســـبأ، فأغواهم وسَـــوَّلَ لَهم، وزيَّن لهم أن النعم التي حصَلـت لهم نعم عادِيّة وبسـيطة، وليســت بعظيمة وكبيرة، حتى حقَّروها وتمنَّوا غير تلكم النعم، وألقى إليهم الشيطان وَسَاوِسَه، وكَرَّه إليهم نصـــائحَ الصـــالحين منهم، فوجـدهم يَنْخَـدِعُوْن بـه، وَيتبعونه، ويـأخذون بدَعْوَتِه، وَ لما وجد ظنه صـــادقًا فيهم زادهم إغواءا وإضلالًا، حتى أَحَلَّهُم دار الهلاك والْبَوَار.

وَهَكذا يظُن إبليس بكلّ الناس، ويُلْقِي عليهم شَـــرَكَه، ويحاول إغواءهم مرة تِلو أخرى، حتى يُصَدِّق على كثيرين منهم ظنه، ولم يَنْجُ من وَســـاوســـه وإغوائه إلا فريق من المؤمنين الـذين لم يكفروا بنعم الله، ولم يقبلوا دعوتـه، فـإنهم لم يدخلوا تحت ظَنِّ إبليس، ولم يَجِدْ ظَنَه فيهم صادقًا.

فإن تنجُ منها تنجُ مِن ذي عظيمة
وإلَّا فـــإنِّي لَا إِخَـــالُكَ نَاجِيًا

أعاذنا الله وإياكم من وساوس الشيطان وإغوائه.

14 - ليتميز المؤمن من الشَّاك

الشـيطان أقسم بعزة الله ليُغْوِيَنَّ الناس إلى يوم القيامة، وأنظره الله إلى هذا اليوم العظيم، وجَعَله فِتنةً لِلناس أجمعين، فيُوَسْوِس الشيطان ويُغْوِي النَّاس، ويدعوهم إلى الكفر والضلال، ولكن ليس له تَسَلُّطٌ عَليهم، وليس له أن يقهَرَهم على الكفر وأن يَقْسِرَهم على الضلال قَسْرًا، له الدعاء والوسوسة والتزيين والتسويل، وسوف يقول يوم القيامة عَلَنًا، كما حكى الله تعالى عنه: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ، وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّآ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِيْ، فَلَا تَلُوْمُوْنِي وَلُوْمُوْآ أَنْفُسَكُمْ، مَآ أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ، إِنِّيْ كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُوْنِ مِنْ قَبْلُ}. (سورة إبراهيم: 22)

وهذا كله من حكمة الله تعالى لتقوم سُوْقُ الامْتحان، ويُعلم المؤمن الصادق من الكافر الشاك، ويتميز الخبيث من الطيب، فمن كان إيمانه ثابتًا راسخًا يَثْبُتُ عند الامتحان والاختبار، ولن ينجح إبليسُ في إغوائه وإضلاله، ومن كان إيمانه غيرَ ثابت يتزلزل في أدنى شبهة، ويَميل إليه، ويتبع سبيله بأول بارقة الشهوة، يقول تعالى: {وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِيْ شَكٍّ، وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيْظٌ}. (سورة سبأ: 21)

والله سـبحانه قد علم ذلك عِلمًا أزليًا إلا أنه أراد أن يظهره على الناس، وأن يكون هذا الامتحان والاختبار علانية في ضـوء النهار، كي لا يكون للناس عليه حجة، ولئلا يؤخذوا على حَدِّ زَعْمِهِم بِظلم دون أن يَخْضَعَهُم الله للامتحان والاختبار، فيكون الحساب والجزاء على ما رآه الناس وشاهدُوه من كَسب أيديهم وعمل جَوارحهم.

قارون مضرب مثل في كنز الأموال، واحتكار الثروات، والحرص على الدنيا. وهو أحد أبرز رموز الفساد والطغيان، والبطر والتبختر. ومدار طغيان إنما يعود لهذه الأسباب الثلاثة: السلطان والوظيفة والمال.

قِصَّة قَارون

1 - قدوة سيئة

القرآن الكريم من البقرة إلى الناس تفسير وتفصيل لما أُجْمِل في سورة الفاتحة، ذكرت في سورة الفاتحة فئتان مُتَضَادَّتَان من الناس: فئة ثابتة على الصراط المستقيم، وهي الفئة المنعَم عليها، وهي حزب الله وأوليائه، وفِئة منْحرفة عن الصراط السوي، وهي الفئة المغضوب عليها أَو الضالة، وهي حزب الشيطان وأوليائه، وتجِدون في القرآن كله نماذج كثيرة، وصفات مبينة، وأوصافا موضحة لهاتين الفئتين كليهما، قدَّمَ القرآن الكريم للفئة الأولى قدوات صالحةً وأُسًى حسنة ناجحة، وحثَّ على الاقتداء والإِئْتِسَاء بها، وبيَّن للفئة الثانية أيضًا قُدُوَات أخرى غير صالحة، وَ أُسًى سيئة مفسدة، وحذَّر من الاقتداء بها أيَّما تحذير.

فالقصّة التي نحن في دراستها الآن تَعْرِضُ أمامنا في شخصية قارون قدوة سيئة، وأسوة غير صالحة تمامًا، كي تَقِيَنَا

سبيلَ الضَّلالة والخسران، وتهدينا إلى طريق الهُدَى والرَّشَاد، ذُكِرَت هذه القصّة في سورة القصص بعد قصَّة الطَّاغِيَتَيْن فرعون وهامان، وهذه قصَّة عجيبٌ خبرُها، خطير شأنها، مُتَكَرِّر نظيرُها في كلِّ العصور، وفي كل أجناس البشر، وهي قصَّة تُعْنَى بموضوع معيَّن، وتتَّجة إلى فئة خاصة، هي قصَّة قارون الطاغية الباغية، قصَّة قارون الذي هو أسوأ مَثَلٍ على حب المال والحرص عليه، وبغي الناس وهَضْم حقوقهم، والنفاق والكبر والخُيَلاء، وإظهار الزينة.

كان قارون في بداية الأمر رجلًا عاديًا من بني إسرائيل، يَحْيَا بين قوم موسى -عليه السلام-، وواحد منهم غير معروف، فلما آتاه الله سَعَة وكثرة في الأموال طغى وبغى وتكبَّر، واحْتقر قومه ولحق بأعدائه، وصار مَضْرِبَ مَثَل في كنز الأموال واحْتِكَارهَا، وأصبح قدوة سيئة للأثرياء الذين صَرَعَهُم بريقُ المال، وللأغنياء الذين أَسْكَرَتْهُم نَشْوَة الثَّرْوَة والجاه، فما إن يُسْمَعُ بِاسمه إلَّا ويَتَبَادَرُ الذِّهْن إلى المال والحرص والثَّرَاء الفاحش.

قَرَنَ القرآن الكريم بَين قارون وفرعون وهامان غير مرة، بيد أنه إسرائيلي وهما مصريّان، واعتبر القرآن موسى -عليه السلام- مُرْسَلًا لِلثَّلاثة، فالقاسم المشترك بين هؤلاء الثلاثة: الطغيان ومحاربة الحق، كان قارون مُختلفًا منهما في اللون والجنس واللسان، إلا أنه يتَّحِد ويجتمع معهما في غاية واحدة،

وهي محاربة الحق والبغي على الناس والفساد في الأرض، فقارون واحد من رموز الظلم والطغيان الثلاثة، وقدوة سيئة من قدوات الشـــر والبغي والفســـاد، وكان موقف هؤلاء الرموز الثلاثة من موسى -عليه السلام- ودعوته الاستكبار وعدم القبول، ففي هذه القصّـــة نقرأ ونتدبر ملامح بارزة لقارون والمســلك القاروني في ضوء القرآن الكريم، فَحَيَّهَلًا.

2 - فبغى عليهم

صَـــرَّحَ الله في بداية هذه القصّـــة أن لقارون اتصـــالًا خاصًا بموسى -عليه السلام- وقومه، فهو اتصال القرابة، كان ينتمي إليهم و يمُتُّ إليهم بصلة، يقول الحق -سبحانه وتعالى-:

{إِنَّ قَـارُوْنَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوْسَـى فَبَغَى عَلَيْهِمْ، وَ آتَيْنَـاهُ مِنَ الْكُنُوْزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوْءُ بِالْعُصْـبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ، إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللّٰهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِيْنَ}. (سورة القصص: 76)

إذا كان قارون يُنْمَى إلى بَني إســرائيل فقد كان يجِب عليه في مثل هذا الواقع المَأْسَـاوِيّ الَّذي يعيشــه بنو إســرئيل آنَذَاك أن ينصر قومه على أعدائهم، وأن يُعيْنهم بمال الله الذي آتاه، فيُشـبِعَ جائعهم، ويَكْسُـو عاريهم، ويُكَفْكِف دموع من بُغي عليهم، ولا يَخْذُلَهم، ولا يُسْلِمهم إلى عدوّهم اللَّدُود، ولكن بَطَرَ قـارون نعمـةَ الله عليـه، واجتَرَأَ على ذوي قرابتـه، وحرَمهم حقوقَهم في ذلك المال الوفير، وخرج عن طاعة موســى -عليه

السلام- وكفر بالله، كان بنو إسرائيل في أَمَسِّ الحاجة إلى من يُدافِع عن حُرّيتهم وحقوقهم، وَيُنْجِيهم من بَطْش فرعون الطاغية، وكان موسى -عليه السلام- يسعى جاهدًا لأجْلهم ليلَ نَهَار، فعجيب من قارون كل العجَب! كيف بغى عليهم في مثل هذه الحال؟! كيف بغى على قومه هذا الرجل الذي كان مِن بَني جِلْدَتِهم ويتكلم بلسانهم؟! كيف أعان عدوهم في اضْطِهَادِهِم؟! وكيف رَشَّ المِلْحَ على جِرَاحِهم بَدَلَ أن يضمِّدَها ويضع الدواءَ عليها؟! هل فوق هذا الظلم ظلمٌ؟! هَل هناك بَغيٌ أشدُّ من هذا البغي؟! أبدًا لا، لَقد صدق من قال:

وظلمُ ذوي القربي أشدُّ مَضَاضَةً
عَلى المرء مِن وَقْع الحُسَام المُهَنَّد

3 - كُنوز قارون

إن الله -عزوجل- أعطَى قارون أموالًا طائلة، وكنوزًا كثيرة، فَفاضت خزائنه بالأموال، وَ اكْتَظَّتْ صَنادِيْقه بالكنوز، حتَّى إن مفاتِح خَزائنِه لَيَثقُل حَملُها على الجماعة القوية من الرجال، يقول تعالى: "وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوْزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوْءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ" فتح الله عليه أبواب الثروة من ذهب وفضة ومعادن مختلفة، فجمع هذه الأموال وكَنَزَها، ووفّر الخَدَم والحَشَم لِحماية ماله وحفظ مفاتح كنوزه، واحتكر السوق والتجارة، وهكذا اجتمع لديه من الأموال المدَّخرة شيء

كثير، وفاز من الدنيا بنصيْب لا يَظْفَر بِه إلّا قليل، فكان مالُ قارون يَعْجَزُ عن حمل مفاتِحِه الرجال الأشِـدَّاء، إذا كان هذا حال مفاتِح خزائنه فَما ظنّك بالخزائن؟!

كانت هذه الخزائن بعطاء الله ومِنحَته له، وليس بِمَهَارَة قارون وعلمه، فكان يجب عليه أن يُؤدي في هذا المال حقَّ الله وحقوق النَّاس الآخرين التي أوجبها الله فيها، ولكنه بجَهْله وسَفاهته يَظنُّها نتيجة علمه ومهارته في طُرُقِ جَمْعِ المال، وهكذا كفر بأنعم الله، وبغَى على عباده، وكل ذلك من فتنة المال، ونشَواته وسكراته، فالحَذَرَ الْحَذَرَ مِن سَطْوَة المال وإغراءاته، والمسلك القاورنيّ في التعامُل معه.

4 - لا تفرح

منع قارونَ قومُه وعلى رأسهم موسى -عليه السلام- عن الاغترار بالمال والازدهاء، وحاولوا إرشادَه وإصلاح أمره فقالوا له "لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِيْنَ" لا تفرح هذا الفَرَحَ الْمُفْرِط الذي زادك بَطرًا وكِبرًا، هذا الفرح الزائد بمتاع الدنيا ولذات النفس أوقعَك في الْحَضِيْضِ الأَوْهَد، وصدَّكَ عن الاهتمام بالأعمال الصالحة والآداب الدينيَّة والأخلاق الإنسانية، هذا الفرح المفرط بالمال الذي هو ظل زائل، وغَادٍ ورائحٍ حَرَمَك الكمال الإنساني، فأعرضتَ عن الدين والعمل بالآخرة، وظَننتَ المالَ منتهى الكمال!.

فأخْرِجْ من قلبك هذا الحُب الشديد بالدنيا والبَطَر بالمال والجاه، لأن الله لا يحب البطرين الأشِرِيْن الذين لا يشكرون الله على ما آتاهم، وأن الله لا يحب الباخِلين المُمْسِكِين أموالَهم عن الإنفاق في وُجُوه الخير، لا يُحِبُّ مَن مَلأ قلبَه بحُب الدنيا ومالها وعرضها، وافتخرَبها، ولا يستعِدّ للآخرة، بل يُبغضه بغضًا شديدًا، وسوف يُعاقبه، هكذا نصح موسى -عليه السلام- وصالحو قومه لهذه الطاغية المغرور بالمال والجاه، ولكن أنَّى له أن يُصغِي أذُنه إلى نصح الناصحين!.

5 - اطلب الآخرة بالمال

ما أحسن المال إذا أُنْفِقَ في مرضاة الله ووجوه الخير! وما أجمل عَوائدَه وفوائدَه! وما أقبح المال إذا صُرِف في الشهوات والمَلَذَّات وعِمَارة الدنيا إعراضًا عن الدار الآخرة! لقد بيّن قوم قارون أمامه مَصْرِف المال الصحيح وموضِع إنفاقه، كي يَعُودَ عليه بعوائد جمّة في الدنيا والآخرة، فقالوا له: {وَابْتَغِ فِيمَآ آتَاكَ اللّٰهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَآ أَحْسَنَ اللّٰهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ، إِنَّ اللّٰهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِيْنَ}. (سورة القصص:77)

اطلب بما منحك الله من الأموال والنعيم الدار الآخرة، الدار الأبدية السَّرْمَدِيّة التي من يدخُلُها يعيش أبدًا، ويَنْعَمُ سرمدًا، اطلب نعيمها وثوابها، وقصورها وأنهارها، وفوق ذلك

رضـــوان ربك -تبارك وتعالى- الذي لايَنال إلا أهلُها وسُـــكَّانُها، اســتعْمِـل هـذا المال الجزيـل والنعم الوافرة في طـاعـة ربـك والتقرب إليه بِشَتَّى الطُّرُق، وإن لم تبتَغِ بأموالك وكنوزك الدارَ الآخرة فإنها ضـائعة، لا نفع فيها، أنت في مزرعة الآخرة، فَازْرَعْ فيها ما شِئْتَ تَحصُدْهُ غدًا "ولِحَصْدِ الزَّرْعِ إبَّان".

6 - خُذْ نَصِيْبَك مِنَ الدُّنْيَا

لا نقول لك: أنفق مالك كلَّه في جانب الآخرة، واترك حُظُوْظ الدنيا كلَّها، ولا تســتعمل مالك إلا في القُرُبَات، بل نقول لك "لَا تَنْسَ نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا". تَمَتَّع في الدنيا بالحلال الطيب، وخُذ من نصيبها الذي لا يأتي على نصيب الآخرة، ولا تترك حظك من لـذات الـدنيـا التي أبَـاحَـهـا الله من المآكل والمشـــارب والملابس والمســـاكن والزَّواج والمُتَع الأخرى التي لا إســراف فيها ولا مَخِيْلَـة، فكُلْ، وَاشْـرَبْ، وَالْبَسْ، وَارْكَـبْ، وَاسْكُنْ، لكن ليس على حساب الآخرة، نحن نُحَذِّرك أن تميل إلى الدنيا كلَّ الميل حتَّى تَنْسَـى الآخرة نِســيانًا لا يدور ذكرُها ببَالِك، فاجعل لدنياك وأهلك ونفسك حظه ونصيبه، وَاجعل لأُخْرَاك نصيبَها وأعطِ كلّ ذي حقٍّ حقَّه.

هذه هي وَسَـــطِيَّة الإســلام واعتداله في الحياة، التي تتجلَّى في هذه النصـائح والمواعظ التي أسْـدَاها موسـى -عليه السلام- وصالحو قومه لقارون الطاغية، ففي الإسلامِ الدِّينُ

والدنيا جَنْبًا بِجَنْب، والمسجد والسوق حِذَاءً بِحِذَاء، لا إفراط فيه ولا تفريط، لا وَكْسَ فيه ولا شَـطَط، وليس فيه تَغليبُ أحدٍ على حساب آخر.

7 - أَحْسِن كما أحسن الله إليك

نصح لقارون قومُه نصائحَ غالية، ومنعوه عن الظلم والبغي وهَضْمِ الْحقوق، وقالوا له: "وَ أَحْسِنْ كَمَآ أَحْسَنَ اللّٰهُ إِلَيْكَ ولا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ، إِنَّ اللّٰهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِيْنَ".

أحْسِن إلى عباد الله بالعَطاء والنَّوَال، كما أحسن الله إليك بهذه النعم الوفيرة والأموال الطائلة، لا تنسَ حقَّ الفُقراء والمحتاجين في مالك، أحسن الله إليك بِدُونِ استِحْقَاقك، وأعطاك من المال بلا عدٍّ ولا حساب، وما ذلك إلا لأن الله جعل في هذه الأموال نصيبَ الفقراء والمساكين، ولو شاء الله لأعْطَاهم أَضْعَاف ما أعطاك، ولكن بحكمته البالغة ولابتلائك وابتلائهم أعطاك كثيرًا كي تُؤَدّي إليهم منه حقهم، وهذا الإحسان وهذا الشكر يحفظ عليك النعم، ويزيد في مالك ويُضْفِيْ عليك خيره وبَرَكَته، ولا تَقْصِد الإفسادَ في الأرض بالظلم والبغي وإلاساءة إلى الناس، ولا تستعمل هذا المال الوفير في إيلامِ قومِك والبغي عليهم.

ما منحك الله هذه الأموال لِتَبْغِيَ على قومك وتُطَاوِل عليهم، فَعُدْ إلى رشدِك ولا تكن مجرمًا باغيًا مفسدًا في الأرض،

أَسْـدَى قوم قارون إليه مَحْضَ النُّصْـح، وحاولوا لإصـلاحه وإرشـاده ما اسـتطاعوا، ولكن أنَّى للطَّاغِية أن تَتَفَتَّح آذانُه لِنصـيْحةٍ تُلْقَى إليْه! وكيف السـبيلُ للنصـح إلى أن يمس شِغافَ قلْب مَن أبَى واسْتكبر، وَعلا وَ تجبَّر!.

8 - جملة قارونية خطيرة

إن قارون قد أُشْرِبَ قلبُهُ حُبَّ المال، وزاده الغِنَى عُلُوًا واستِكبارًا، فليس لمثل هذا الكلام وهذه النصـيحة سـبيل إلى نفسه، فما كان جوابه على كلِّ النُّصْح المُسْدَى إليه إلَّا جوابَ مُتكبرٍ عالٍ، وكان في ردِّه على قومه جافيًا وغليظًا للغاية، فقال مُجيبًا لهم كما حكى الله تعالى عنه: "قَالَ إِنَّمَآ أُوْتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِيْ". لسـت بحاجـة إلى نصـيحتكم، فـاحْتَفِظُوا بهذه النصـيحة لأنفسـكم، وقَوِّمُوا بها أمورَكم، أما أنا فأرجَحُكم عقلًا، وأسَـدُّكم رأيًا، وما أُوْتِيْتُ هذا المال إلا لأنِّي أجدَرُ به وأحقّ، أنا أعلم جيِّدًا بوجوه المكاسِـب والتجارات، ولي معرفة وخِبْرة بكيفيَّة جمعِه واستثماره، فَأنا له أهل ومستَحِق.

يا لله! ما هذه الجملة القارونية الخطيرة؟! عَزَا مَالَه وكنوزه إلى علمه وَرَأيه وَذَكَائه! وهكذا يفعل كل غني متكبّر مغرور، يَعْزُوْ كُلّ عملِه إلى جُهدِه وعقله وعلمه وذكائه ومُؤَهِّلَاته وكَدِّه، وَ غرَّت هـذه الجملة القـارونيـة كثيرًا من النـاس، وهم يردِّدونها بلسـان المَقَـال أو بلسـان الحـال،

لايشــكرون الله على أموالهم وثرواتهم، لأنهم لا يُسْــنِدُوْنَهَا إلى فضــل الله ومَنِّه ولُطْفِه ورحمته، بل يَنْسِــبُوْنَها إلى حَولِهم وقوَّتِهم وعلمهم وخِبْرَتِهم وكَسبِهم وجُهدهم.

فقارون نموذَجٌ متكَرِّرٌ للبشَــرية، تجد كثيرًا من عُبَّاد المال والذهب والفضــة يعيشــون بقلب قارون، ويمشــون مشــيته، ويظنونَ ظَنَّه، ويحســبون أن علمهم وكَدَّهم هُما وَحْدَهُمَا سبب غِنائِهم وسعادتهم.

9 - أوَ لَمْ يعلم

لما أضــاف قارون كل ما لديه إلى علمه وخِبرته جاء الجواب من العَلِيِّ الأعلَى لِقارون ولكلِّ مَن سلك مَسلكه وحَذَا حذوَه، ونَطَقَ بِمَنْطِقه {أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللّٰهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُوْنِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَّأَكْثَرُ جَمْعًا، وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوْبِهِمُ الْمُجْرِمُوْنَ}. (سورة القصص: 78)

أَيَحْســب قارون ومَن مشــى مِشْــيته أن كثرة الأموال ووفرة الثروات دليل على فضــل صــاحبها وخيرية مَن أوتيَها؟! أبدًا أبدًا، أولم يعلم أنَّ عَطاء الله في الدنيا وبسْــطَ الرِّزق ليس بدليل على حسن حالةِ الْمُعْطَى وقَبوله عند الله؟! لو كان كثرة المال دليلٌ على حبِّ الله ورضــاه عن أهله ما أهلك عادًا وثمودًا وأقوامًا آخرين بَلغوا الذُّروة في القوة والمال والثروة، وكانوا أشــد قوةً وأكثر مالًا ورجالًا من قارون وأمثاله، فَأُهْلِكُوا

جميعًا، ولَم يبقَ لهم عينٌ ولا أثر، وسيأتي دور قارون وأشياعه من الأغنياء والأثرياء في كل زمان ومكان.

فإذا عاقب الله هؤلاء المجرمين لا يَنْفَعُهم اعْتذارُهم وأقاويِلُهم، ولا يُسْئل المُتْرَفُوْن عن أنواع ذنوبهم ومِقدَار جرائمِهم، فإنه تعالى عالم بكل أحوالهم، مطّلع على نِيَّاتهم وخفيَّاتهم.

نعم، لَقد أتى على قارون وكثيرٍ من الذين سلكوا المسلَكَ القارونِيَّ العقابُ الربَّانيُّ، وهو مُنتظر لكل من سَلك هذه الطريقَ المُعْوَجَّة. فَهل يُدْرِك هذه الحقيقةَ أهلُ زماننا الذين لَم يَبْلُغُوْا مِعْشَار ما بلغ قارون! أَلَم يعلموا خبره وما حلَّ به؟!.

وأين ما حَازَه قَارُونُ مِن ذَهبٍ
وأين عادٌ وشدادٌ وقَحْطَانٌ
أَتَى على الكل أمْرٌ لا مَرَدَّ لَه
حتَّى قَضَوْا فكأنَّ الْقَوم ما كَانُوا
وصار ما كان من مُلْكٍ ومِن مَلِكٍ
كما حكى عن خَيَال الطَّيْف وَسْنَانُ

10 - عند ما تبلغ الفتنة ذُروتها

لم يَقِفْ قارون عند هذا الحدِّ بِأن ردَّ النُّصْحَ وأبى أن يعترف بفضل الله وإحسانه عليه، بل أراد أن يَزيد في إيلام

قومه وبغيه عليهم، فخرج في زينة باهرة: في ملابســـه ومراكبه وخدمِه وحشـــمِه وأُبَّهَتِه، يقول -تبارك وتعالى-: {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِيْ زِيْنَتِهِ، قَالَ الَّذِيْنَ يُرِيْدُوْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوْتِيَ قَارُوْنُ، إِنَّهٗ لَذُوْ حَظٍّ عَظِيْمٍ}. (سورة القصص: 79)

خرج على قومه خَرْجَةً مَليئَة صَــلَفًا وَازْدِهَاءً، خرج في زينـةٍ انْبَهَرَ بها من رَآها، خَرَجَ ليســـتعْرض ثرواتِها أمام المســتضـعفين، وقد اســتعَدَّ قَارون وتجمَّل بأعظم ما يُمكنه لهذا الخروج وهذا الاستعراض، إظهارًا لأُبَّهَتِه ونَخْوَته.

وهكذا يفعل الأثرياء الذين يسلكون المَسْلك القاروني في كل زمان، يَسْــتَعْرِضُــوْن أموالهم وثَرَوَاتِهِم أمامَ الْفقراء والضِّــعاف، يَعبُرُون بمراكبهم الوثيرة ومَلابِســهم الزاهيَة أمام حُفاة الأقدام ومُرَقَّعِي الملابس وخِمَاص البُطُون، لِيتصَــاعَدَ غبارُ مراكِبهم مُنْتَثرًا في وجُوههم.

فَلَمَّا بلغت الفتنَة القارونيَّة ذُرْوَتَها، والكِبر والغَطْرَسَــة منتهاها، وَالنَّشْــوَة والسَّــكْرة غايتها، تَحَرَّكَت الســنة الإلهية لتَنْتَقِم من هذا المتكبِّر الغِطْرِيس حدًّا للفتنة بالدنيا ورحمةً بـالنَّـاسِ الضِّــعَـاف من إغرائها، فَحَطَّمَـت الجبَّارَ المغرور المُتَعَجْرِف تحطيمًا، وجاءت النهاية الحاسِمَة الفاصلة، وهكذا تفعل السَّنَّة الربَّانية مع كُلِّ قَارون.

11 - ضعاف الإيمان أمامَ الفتنة

حينما خرج قارون على قومه مختالًا فخورًا، ورآه الناس في تلك الهيئة المُعْجِبَة افتتن به كثير من الناس، فَبُهِرَت عيونُهم بزينته وطاشَتْ عقولهم عند رؤيتها، كان هؤلاء ضعاف الإيمان، لم يثبتوا أمام الفتنة، وأصبحوا مغترّين بالزَّخَارِف العاجلة، فَسالَ لُعابُهم، وجندلَهم بَرِيقُ زينَةِ قارون، وأصبحوا يتمنَّون أن يكون لهم شيء مما أوتي قارون، ويغْبِطونه بما عليه ولَه، ويقولون: يا ليت لنا من الأموال والثروات والأوضاع ما لقارون، نتمتع بها مثله، فإنه ذو نصيب وافر من الدنيا.

غرَّ هؤلاء مظاهرُ الزينَة الزائلة، وعَظُمَ في عيونهم ما عليه قارون من البَذْخ، وحَسِبُوا أن قارون لذو بَخْت وسعادة، وتزلْزَلَ إيمانُهم أمام هذه الفتنة المادِّيَّة، فكادوا أن يُفتنُوا بها.

وَهكذا يكون ضعاف الإيمان واليقين في كل عصر ومصر، تلهِيْهم زخارف الدنيا وتُغريهم زينة الحياة، ويَفْتِنهم أمثالُ قارون الذين لا يخلو منهم أي زمان ومكان، إلا من رحم الله وقليلًا مَّا هم.

12 - دَوْرُ الْعُلماء في مُوَاجَهَة الْفِتْنَة

في مثل هذا الموقِف الحَرِج، وأمام هذه الفتنةِ العَميَاء يتجلَّى دور العلماء الربانيين الذين خصهم الله بعناية منه، وَرزقهم من العلم ما يَصْقُلُ نفُوسَهم ويُزَكِّي قلوبهم، وهم

الـذين عرَفـوا حقـائق الأشـــيـاء، ونظروا إلى بَـواطِنِ الأمور، لا يَخْدَعهم الظَّواهر الْبَرَّاقَة، ولا تُلْهِيْهِم زينةُ قارون، ولا يَجْرِفُهم مثل هذا الطوفان المُغرِق.

فقد تَجَلَّى هنا دورُهم، وَانْبَرَى هذه الطائفة المباركة لإرشـــاد المفتونين الذين تمنوا أن يكون لهم مثلُ مالِ قارون، فقالوا لهم: وَيلكم اِنْزَجِرُوْا هذه التمنِّيَات والأقوال، لا تُسِيْلوا اللعَابَ على هذه المظاهر الخدَّاعَة، لا تَتمنوا هذه الأعراض الدنيوية الزائلة التي لا تدوم، قُومُوا بصبر وثبات في وجه هذه الفتنة، وارغبوا في الدار الآخرة، وَارْضَـوْا بِقضـاء الله في كل ما قَسَـمَ لَكم، إن الذخيرة الباقية هي الإيمان والعمل الصـالح، ولا يُلَقَّى هـذه المثوبـةَ ولا ينـال هـذه الثـوابَ الجزيـلَ إلا الصــابرون، والصـــبر وســيلة لِنَوَال الأمور العظيمة، وَالرُّتَب الرفيعة، أمَّا الذي تروْنَه وتنخدِعون به من مال قارون وأُبَّهَتِه فهي كالظِّل أو كالحُلْم وطَيْف الْخَيَال، يقول -جَلَّ في عَلْيَائه- حكاية عنهم: {وَقَالَ الَّذِيْنَ أُوْتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللّٰهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا، وَلَا يُلَقَّاهَآ إِلَّا الصّابِرُوْنَ}.
(سورة القصص: 80)

هكذا ثبت هَؤلاء العلماء الصفوَة المختارة، ثَبَتُوا وثَبَّتُوْا كَثِيْرًا، وَصَبروا وَصَابَروا، وَ يُوجَد أمثالهم في الأمة -بِفَضْلِ الله- في كل زمان ومكان، هم أَشِـــداء بإيمانهم، أقوياء بيقينهم، لن تســتطيع الدنيا بكل ما فيها أن تُغْرِيَهُم، وقد تُغْري كثيرين من

المصلِّين وَالصائمين، ولكن هيهات هيهاتَ أن تُغْرِيَهُم! فَهنيئًا لِهَؤلاء الصادقين! وطُوبى لأولِئك الربَّانيين! وكثَّرالله أمثالهم فينا في زمن الفتن الهَوْجَاء.

13 - نهاية قارون

أتَتْ نهاية قارون، كَما تأتي نهايةُ كُلِّ ظالم مغرور متكبر، ونزل سخطُ الله فَصَمَتَ ضَجِيْجُ الطُّغْيَان، وخَمَدَتْ أنفاسُه، انشقت الأرض فابْتَلَعَتْه وكنوزَه وَدَارَه وخزائنَه ومفاتَحه، في جملة قصيرة، وفي لمحة خاطفة، "فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ"، ابتلعته وابتلعت داره، وهَوَى في بطن الأرض التي عَلَا فيها، وَاستطال فوقَها، جَزَاءً وِفَاقًا، بمَرْأى من الناس ومَسْمَعٍ انقلب ظَاهرُ الأرض إلى باطنها، وباطنُها إلى ظاهرها، فإذا قارون وداره مَخْسُوْفَان مع الأرض التي هو عليها.

الأرض لله، والحكم لله، أمر الله الأرض فَفَتَحَت فَاهَا، وابتلعت قارون ومن معه وكل ما لهم، فَهَبَطُوْا أحياء إلى الهاوية، وعلِموا جميعًا عاقبةَ مَنِ ازْدَرَى بالرَّبِ -تبارك وَتعالى- واسْتهزأ برسوله الكريم، وطغى وبغَى على عباده في أرضه، يقول الله -سبحانه وتعالى-: {فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ، فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَّنْصُرُوْنَهُ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِيْنَ}. (سورة القصص: 81)

جاء "الجزاء من جنس عمله" فكَمَا رَفَعَ قارون نفسه على عباد الله، أنزله الله أَسفلَ سَافلين، خسَف الله به وبكنوزه الأرضَ ويُجَرْجِرُه فيها؛ لأنه طغى وبغى، وكاد أن يفتن الناس ويُزَلزِلَ إيمانَهم بربهم.

فَأين اليوم عُصبته وخدمه وجنوده؟! لماذا لم يأتِ لإنقاذه من هذه النهايةِ المؤلمةِ المُدْهِشةِ قَريناه وجليساه فرعون وهامان؟! ما أغنى عنه مالُه وحاشيته! ولا دفعوا عنه نِقْمةَ الله ونَكالَه.

وهكذا طُوِيَت صَفْحَةُ هذه الطاغية، وذهبَت مَعالِمُه من غير نصيرٍ ولا ظهير، وصار مصيرُه بئس المصير.

نعوذ بالله من الطغيان والبَغي والمعصية.

14 - نَدَامَةُ مَنْ تَمَنَّى أَنْ يَكُوْنَ مِثْلَهُ

لَمَّا حَلَّ بقارون ما حَلَّ من الخسف والدَّمَار والهلاك، ندِم كل من تمنى يوم أمس أن يكون مِثلَه، ولم يَدَعِ الْقُرآنُ أن يذكر حالة الذين سال لعابهم على أموال قارون وزينته بالأمس، كيف كان حالهم حين رأوا خسفًا بقارون بأمِّ أعينهم! لما رأو هذه العاقبة المُفْجِعَة ارتعدت فرائصُهُم، واقْشَعَرَّت جُلُودُهم، وبانَتْ لهم حقيقة الأمر، وانْقَشَعَ السَّحَاب وانكشف الغُبار، وأصبحوا يعَضُّون على أيديهم نَدَمًا.

تندَّم كل واحد منهم على ما تمنَّى في الماضـي القريب، وَاعترفوا بمنةِ الله ولُطفه أن نجَّاهم من الهلاك والخَسْـف، وَتيقّنُوا بـأن بسـط الرزق ليس بـدالٍّ على رِضَـى الله عن صـاحبه، كما أن تقتير الرزق ليس علامة على سـخط الله، وَالله يعطي ويمنَع، ويضـيِّق ويوَسِّـع، ويخفِض ويرفع، ولـه الحكمة التامَّة والحجة البالغة.

وقَالوا لولا لطف الله بنا وإحسـانه إلينا لخسـف بنا الأرض كما خسـف بقارون، وحمِدوا الله على ما منَّ عليهم وَرَحِمهم وَنجَّـاهم من خِزْي وهَلاك، وصـار خَسْـفُ قَـارون عقُوبَةً ونكالًا، وعبرةً وموعظَةً لكلِّ مَنْ كَان له أذنٌ تَعِي وَقلبٌ يَفقه، ولُبٌّ يَتَفَكر.

أرعِ سَمعك، واستمع قولَه تعالى وتدبَّر: {وأَصْبَحَ الَّذِيْنَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُوْلُوْنَ وَيْكَأَنَّ اللّٰهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَّشَآءُ مِنْ عِبَادِهٖ وَيَقْدِرُ، لَوْلَآ أَنْ مَّنَّ اللّٰهُ عَلَيْنَا لَخَسَـفَ بِنَا، وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُوْنَ}. (سورة القصص: 82)

15 - وَيْكَأَنَّ

ما أبدع أسلوب القرآن في القصص! وما أدَقَّ تعبيره في الألفاظ! وما أبلغ وَقْعَه وتأثيره في القلوب! في نِهَاية القصّـة حكى القرآن الكريم مضـمون مقالات مَن فُتِنَ بـالأمس بمال قـارون وزينته ومظاهره البرَّاقة! كيف ندِم اليوم! وكيف تغيَّر

فكرهم الأول! وكيف اعترفوا بمنةِ الله عليهم وإحسانه!

جاء القرآن في خِلال مقالاتهم كلمة "وَيْكَأَنَّ"، وما جاءت هذه الكلمة في القرآن الكريم إلا في هذا المقام مرَّتين، وعُلماء النحو واللغة أطالوا النَّفَس في تحقيقها وبيان مَعانيها، يمكن الرجوع إليها في مَظَانِّهَا، وهي كلمَة مُعبِّرة تُعَبِّر عن كل ما يجيش من الخواطر، ويدور من المشاعر، ويتردَّد من الأحاسيس عند مُشاهدة مثل هذه الحوادِث الفاصلَة، المُمَيِّزَة بين الحقيقة والظن، والوَهْم واليقين، والحق والباطل.

كأنك بهم يمتلك العَجَبُ كلَّ أحد، وبلغ الندم منهم كلَّ مَبلغ، وكلٌّ في حَيْرَة ودَهْشَة، حدَث حادِث لم يكن بحُسبان أحَد! يتحدَّث كلُّ أحد إلى صاحبه، ويُعْرِب عن خواطره وَأحاسيسه، ألا تعجب من شأن هذا الرجل؟! بَلى، كيف لا أتَعَجَّب، إنَّه حَرِيٌّ بأن يُتَعَجَّب مِنه، يا صاحِ! أما ترى صنع الله وتدبيره مع هذا الرجل! كنا نحسبه ذا حَظٍّ وبَخْت عظيم، فإذا هوَ خُسف به الأرض! أتعجب من نهاية قارون وعاقبة كِبْرِيَائه وغُروره؟! نعم، أمره كلُّه عجب عجاب، لقد انكشف الغبار، وعرفت الحقيقة وعلمت يقينًا أن بسط الرزق وتقتيره لحكمة الله وقضائه ابتلاءً للعباد، لا لكرامة أحد عليه ولا لِهَوَانه، قد ظننَّا سعة الرزق وكثرة المال حظًّا عظيمًا، فذلك كان خطأنا وسوء فهمِنا، الآن علمنا يقينًا أن هذه المسئلة

تتعلق بمشـيئـة الله وحكمتـه، وعرفنـا قطعيًّـا أن الكافرين البَطِرِين الفَرِحِيْن لا يَنْجُوْن من عـذاب الله وعقـابـه، ولا يفوزون بالسـعادة لا في الدنيا ولا في الآخرة، لقد اتَّضَـح جليًّا أن السـعادة كل السـعادة مَنوطةٌ بالإيمان واتباع الرسـل وامتثال أوامر الرب -تبارك و تعالى-.

اللهم وَفِّقْنَا لأن نفقَهَ وَصَايا الوحي، وأن نعتبر بدروس الحياة، ورصيد التاريخ وعِبَر الزمان، اللهم آمين!

ابنا أبي البشر وأول الأنبياء، ولكن أصبحا رمزين مختلفين : أحدهما رمز الصلاح والتقى وحب الخير والنصح، وثانيهما عكس الأول تمامًا، أحدهما قدوة صالحة وثانيهما قدوة سيئة، أحدهما سن سنة حسنة وثانيهما سن سنة سيئة.

إذا كانَ الطِّباعُ طباعَ سوءٍ   فلا أدبٌ يُفيدُ ولا أديبُ

قِصَّة ابْنَي آدَم

1 - من أغراض القصص القرآنية

أكثر الله -عزوجل- من ذكر القصص في القرآن الكريم لأغراض شتى، ومقاصد عظيمة مختلفة، فمن أغراض القصَص: تقرير النبوّة المحمدية -على صاحبها الصلاة والسلام- لأنه لم يكن قارئًا ولا كاتبًا، فورود هاته القِصص بهذا الأسلوب المعجز على لسانه دليل واضح على وحي يُوْحَى إليه.

ومن أغراضها: تثبيت فؤاده -عليه السلام- ومن اتبعه بِبَيَان أن الله ينصر أنبيائه وأوليائه، والعاقبة لهم بلا مِرْية، ويُهلك عدوّهم في النّهاية.

ومن أغراضها: تنبيه بني آدم إلى غِواية الشيطان، وإبرازُ العداوة الدائمة بينه وبينهم منذ أبيهم آدم. وإبراز هذه العداوة عن طريق القصّة أَرْوَع وأقْوى في النفوس. ومن

أغراضـها: بيانُ أنَّ الصِّـراع بين الحق وَالباطل، والخير والشـر قَديم قِدَمَ البشريَّة.

والقرآن الكريم يقُصُّ قَصَـصًـا تـارةً بإجمال، وتارة بإسْـهَاب، ويأتي بقدوة صـالحة حينًا، ويأتي بسـيئة حينًا، وَيُرغِّب بالقصّـة وقتًا، ويُرهِّب بها وَقتًا، ويقدم نموذجًا صالحًا طورًا، ويقدم طالحًا طورًا، ويتحدث تارة عَمَّن مَضَـى، وتارة عَمَّنْ حَضَر، وهكذا يتلُو القرآن الكريم علينا قصَّة تِلْوَ أخرى من أقاصِـيصَ ماضـيَة لأغراض شـريفة عالية، ويتحدث عن شُؤون كثيرة عظيمة.

ولكل قصَّـة من قصـصـه لونها الناصـع، ومَذَاقها العذْب، وأسـلوبها الجَذْل، وهذه القصّـة التي نُطِل عليها الآن أي قصَّة ابني آدم تُسَلِّط ضَوءً ساطعًا على الصراع بين الحقّ والباطل، والْخير والشر.

كان أحد ابنيه نموذج الخير، وقُدوة الصـلاح، وثانيهما نموذج الشـر وقدوة البغي والفسـاد، جاء بها القرآن في سـورة المائدة بعد بيان رَذائلِ وقبائحِ أهل الكتاب بعامّة، واليهود بخاصّـة؛ لأن دَيْدَن اليهود وشِـنْشِـنَتهم إيذاء الأنبياء وقتلهم، ونقضهم المَواثيقَ والعُهُوْدَ.

وَالحسـد داء قديم وشـرٌّ مُسـتَطِيْر فيهم، وما آمنوا بنبوة محمـد -صـلى الله عليـه وسـلـم- إلَّا حسـدًا منهم وجحودًا

واســتكبارا، وأنهم كانوا يعرفونه بصــفاته وعلاماته المذكورة في كتبهم كما يعرفون أبناءهم، فالدَّاء العُضال المشترك بينهم وبين ابن آدم القاتل الظالم، الحسد؛ فَلِذَا أمرالله نبيه -عليه السلام- أن يتلوَ على هؤلاء الجاحدين الحاسدين ناقضي العهود والمواثيق قصَّة ابني آدم، ليكون عبرة وعظة لمن يَتَّعِظ بها، ومن لم يَرْفَع إليها رأسًا فله العاقبة الوخيمة كَشَرِّ ابني آدم.

2 - من ابنا آدم هذان؟

ما أحسنَ قصص القرآن! وما أعظم بيانها! يُركِّز على المقصود المفيد، ويذر الحشوَ وعديمَ الجَدْوى، يَجْتني من الأحداث والوقائع أهمَّها وأنفعَها، وتضرب عن الزائد وغير المفيد صَفْحًا، وتضرب بالتُّرَّهات والتخبُّطات عُرْضَ الحَائط، وهكذا تجد هناك في هذه القصّة، أمر الله النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يتلوَ هذا النبأ، وهذه القصّة الصادقة على الناس بالحق والصدق، وبالغرض الصحيح، لا لمُجرَّد التَّفَكُّه واللهو، فقال -جل جلاله-: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ، إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ، قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ، قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِيْنَ}. (سورة المائدة:27)

لم يذكر الله اسمَيْهما، ولو شاء لَذَكر، لأنه علام الغيوب، سواء في علمه ما كان وما يكون، فعدَمُ ذِكر اسمَيْهمَا يعني ليس في ذكر اسميهما كبيرُ فائدة، أما الظاهر مِن نصِّ

القرآن فهو أن ابني آدم هـذين هما وَلَدَاه لِصُـلْبِه، وجاء في السـنة النبوية ذكر هذين مرارًا، ولم يذكر -عليه السـلام- اسميهما ولو بمرة، فقد جاء في حديث "لا تُقْتَلُ نفسٌ ظُلْمًا إلَّا كان على ابن آدمَ الأوَّلِ كِفْلٌ من دمِها". (صحيح مسلم)

وجاء في أحاديث الفِتن "فَلْيَكُنْ كَخَير ابني آدم".

(ابن ماجه)

فأبْهم القرآن والسـنَّة اسـمَيْهما، وماذا علينا لو نُبْهِمُ ما أبَهَمَه الله؟! ونسـكت عما سـكت القرآن والسـنة عنه؟! فماذا يَضرُّنا لو لم نُسَمِّهمَا بــ"قابيل" و "هابيل"؟! وماذا يَضيرنَا لَو نكتفي بما اكتفى القرآن الكريم به؟! وهل من الضُّـرِّ أن نُغْنَى باللُّبَاب ونرمِي بالقُشُوْر؟! إذًا لَهَذا طريق قَوِيم، ومسلك رشيد، ونهْجٌ سَدِيد.

3 - إذ قرَّبَا قُربانًا

تقـدَّم كل واحـد من ابني آدم بِقُربَـانٍ في جنـابِ الله، وأخرج كل منهما شـيئًا من ماله بقصـد التقرُّب إلى الله، قرَّب كلاهما ولكن بين قربان هذا وذاك بَوْن شَـاسِـع، كان أحدهما رجلًا صـالحًا فقرّب بصـدق وإخلاص، واختار له من أَنْفَسِ ماله وأطيَبِ كَسـبِه، أما الثانِي فلم يكن صـالحًا، بل كان عكس ذلـك، فقرَّب من أَرْدَأِ مـالِـه وبِخُبْـث طَوِيتِـه، فـالله -عزوجل- طيّبٌ لا يقبَل إلا طيبًا، والقَبُوْل فعله لا فعل غيره،

وهو -سبحانه- يتقبل من المؤمن المتقي، لا من غيره، فتقبّل من الأول، ولم يتقبل من الآخر، ولم يُسَمِّ اللهُ –تعالى- هنا أيضًا المتقبَّل منه، ولا الذي لم يُتقبَّل منه، إذ لا جَدْوَى لذلك، لأن العبرة بالعمل والقبول لا بالأسماء والأشخاص.

وقد يكون من علامات القبول في شرائع من قبلنا أن تأتي نار من السماء، وتأكل القرابِين كما جاء في سورة "آل عمران".

فَتقبّل الله من أحد هذين الابنين ولم يتقبَّل من أخيه، فَامتلأت نفسُ الَّذي لم يُتقبّل منه غَيْظًا وَحَسَدًا، حسده على مَزِيَّة القُبول وهدَّدَه، وقال له "لأقتلنَّك"، وهذا أمر عجيب! إذ لم يجد له ذنبًا جعل كلَّ الذَّنب ما ليس بِذنب.

4 - معيار القبول

لما هدَّد الذي لم يتقبل منه أخاه بالقتل، قال له أخوه الصالح مترَفِّقًا به، ومُبَيِّنًا له معيارَ القَبول وميزانَ الكرامة عند الله -عزوجل- "إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّٰهُ مِنَ الْمُتَّقِيْنَ".

لماذا تقتلني يا أخي؟! أيّ جِنايَةٍ لي تُوْجِب لَك أن تقتلني؟! إن لم يتقبَّل منك فعاوِد الكرَّة، وأخلِص النيَّة، وتَقَدَّمْ بقربان طيّب، وهذه علامات القبول، لعل الله يتقبل منك، إن عدم قبول قربانك بسبب عدم تقواك، لم يتقبل منك قربانك وأنت تواعدني بالقتل! إن هذا لشيء عجيب! تفكَّر في أمرِك، وعُدْ إلى

رشـــدِك، واعلم أن القبول والرد من الله تعالى، وليس من أحد من البشـر، ولا ذنب لي في عدم قبولِ قربانِك، وإن سـبب القبول هو صلاح القلب بالتقوى والخوف من الله.

ما أبدع الْقول! وما أحســن الكلام! كلام جامع مانِع، لقـد جَمعـت هـذه الجملـة كثيرًا من المعـاني بكلام مختصـر، واشــتملت على فَحْوَى القصّـــة ومَغْزَاهَا من أوّلها إلى آخرها، وخلَّدها القرآن في صــفحاته كي يَعلم النـاس ميزانَ الكرَامة والفضيلة إلى آخر الدهر، ويعلم أن الله -تعالى- لا يقبل طاعة إلا من مؤمن مُتَّقٍ، فـالإيمان والتقوى شـــرط لقبول الأعمال لَدَى الرَّب الكرِيم -سبحانه-.

فلنحْرص كـلَّ الْحرص على التخلّق بهـذه الصـــفـة الجليلة، لعل الله يتقبل منا حسناتنا ويعفو عن زَلَّاتِنَا.

5 - الصّراع بين الخير والشر

"كُلُّ إِنَـاءٍ يَتَرَشَّــحُ بِمَـا فِيْـهِ". لما توعَّـده أخوه بـالقتـل، وأظهَر له الشـــرَّ الكَامِنَ في نفســـه، قال له هذا الأخ الصـــالح كلمـة تحوي موعظـة لـه، ورَدْعًـا عَن هـذا الإقـدام الشـــنيع، وتعريضًا لعدم قبول قربانه، ونصحًا له، ولكن لم يردعَه هذا النصـــح المَحْضُ، وهـذه الموعظـة البليغـة عن هـذا الجُرْم العظيم الذي صَـــمَّم عليه، فحاول الأخ الصـــالح مرّة أخْرى ليمنعه من هذا الشـــر الذي عَزم عليه، فقال له بكل وُضُـــوح

وجَلاء: {لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ}. (سورة المائدة: 28)

لَئِن قَصَدت أن تقتلَني وأن تُقدِم على ما هو شَر كبير، ما أنا بفاعل ذاك! لئن مددتَ إليَّ يد الظلم والبغي لا تجدني فاعلًا مثل فعلك، لن أُفكِّر أبدًا فيما عزمت عليه، ولن أُحَاول قَطْعًا أن أُرِيق دَمًا زَكيًّا بظلم وَعُدْوان.

لقد حاول هذا الأخ الصالح الذي يحمل بين جَوانِحه خيرًا ونُصْحًا لأخيه كلّ المحَاولَة أن يمنع أخاه عن ارتكاب هذه الجريمة الشَّنْعَاء، وقال له كلمات رَادِعَاتٍ كان حريًّا بها أن تردع أخاه، وتحول بينه وبين عزمه الجائر.

ولكن كان أخوه الحاسد من الذين قست قلوبهم، وصارت كالحجارة أو أشَدَّ قَسوة، فلم تؤثِّر فيه العظات، ولم تردعه المواعظ، ولم يزل مُصِرًا على قتله وإزهاق روحه، وهكذا استمَرّ الصراع بين الخير والشر، وبين حاملَي كل منهما، ولا يزال يَستمرّ، فصاحب الخير يريد الخير والنصح لكل أحد وصاحب الشر يحِبّ أن يرى كلَّ من سِواه في المصيبة وأن يُلْحِق بِهِ الضَّرر.

6 - أكبر الأسباب الرادعة عن المعاصي

قال الأخ الصالح لأخيه الحاسد الظالم واعِظًا له: "إِنِّيَ أَخَافُ اللّٰهَ رَبَّ الْعالَمِيْنَ" لا تَظُنَّنَّ أني لا أستطيع دِفاعي، وليس

بِوُسْــعِي الإقدام على قتلك، الأمر ليس كذلك، يمكنني ذلك كُلّـه، إلا أني لن أُقْـدِم على قتلـك، ولســت مجـازيك بمثـل صنيعك؛ لأنني أخاف الله، وعدم الإقدام مني على قتلك ليس جُبْنًا ولا عَجزًا، بل الحائل والحاجز بيني وبينه مخافةُ الله ربِّ البريَّات، ولم يمنعني عن قتلـك إلَّا خشــيةُ الله -عزوجـل-، وخوف عقـابـه الـذي أعـدَّ لِلَّـذي اعتـدَى على الأرواح، وأتى بجريمة القتل النكرَاء.

يا لَـه من رجلٍ عظيم! ويـاله من إنســان مُتَّقٍ! ألجَم نفسَـه بِلجام التقوى والخوف من الله، وصبر واحتسـب، ولم يصـنع كما صـنع أخوه الظالم، وفي هذا عِظة بليغة وموعظة مؤثرة لمن أراد أن يجتنب المعاصـي، فمخافـة الله -عزوجل- أعظمُ رَادِعٍ وأكبر زاجِرٍ من الذنُوب والآثام، لا يُجَنِّبُ الإنسان من ذنوب الخلوَات إلا خشــيةُ الله وخوف علَّام الغيوب، مَن خاف مقام ربّه لايَجْرُؤُ على مثل هذه الكَبائر.

لا يردع الإنسان عن الجرائم خوفُ الشُّرْطَة، ولا يزجره القانُونُ الـدُّوَلِي مِثل ما يردعـه خوف الله، فخوف الله يكفي الإنســان عن صَـدِّه عن الإفســاد في الأرض، وإهلاك الحرث والنسل.

لِـذا مخافـة الله وخوف لِقَـاءه والإيمـان الجازم بيوم يكون فيه مواجهة الله يُصَحِّح مِشـوَارَ الحياة، ويصـنع إنسـانًا

جديدًا لا يظلم أحدًا، ولا ينتقم من أحد، ولا يَشْفِي غَلِيلَه بالاعتداء على أحد، بل يُفَوِّض أمره إلى المَلِك الدَّيَّان ليوم آتٍ ولا بُدَّ، ويَعيش مُرْتَاحَ الْبال، مُطْمَئِنَّ الْقَلب بيقين أن مع الحياة لَمَوْتَا، وأن مع الدنيا لآخرة، وأن لِكلِّ أجل كتابًا، ولكل شيء حسيبًا، وعلى كل شيء رقيبًا، وأن لكل حسنة ثوابًا، وأن لكل سيئة عقابًا.

7 - جزاء الظالمين

لا نزال في قصَّة ابني آدم المَحْكِيَّة في الكتاب الصادق، الهادي الهادف، نقتبس من سَنَاه ونَنْهَل بمَنْهَله.

كان الأخ الحاسد الظالم مُصِرًّا على عَزمه، ينتظر فرصة لقتل أخيه، وأخوه الصالح يحذِّره ويمنعه عن هذه الجريمة القبيحة، فلما رأى أن عزمه الجائر لايَنْثَنِي، ونَار حسده لا تَخْمُد، فَقَال لَه نائيًا بنفسه عن هذه الْفَعْلَة المُرْدِيَة: {إِنِّيْ أُرِيْدُ أَنْ تَبُوْأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُوْنَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ، وَذَلِكَ جَزَآءُ الظَّالِمِيْنَ}. (سورة المائدة: 29)

إن أبيت إلا أن تقتلني فأنا عزمت أن لا أبسط يدي لأقتلك، أنَا أُمْسِك يدي عن المعارَضة والمُقاوَمة، وَسَأكون قائمًا أبدًا على العزيمة، وَلَا أَحمل عليَّ ولو حرفًا واحدًا من هذه القضية الخطيرة، قضية إزهاق الروح البريئة وإراقة الدم الطاهر.

الأمر دائرٌ بين أن أكون قاتلًا أو أن تقتلني، فإني أُوْثِر أن تقتلني فتبوء بالوِزْرَين، وأنَا أختار أن أكون مظلومًا ينتصر الله لي، ولا أختار أبدًا أن أكون ظَالمًا ينتقم الله مني، لأن جزاء الظلم ومصير الظالمين نار جهنم، ويكون الظالمون سُكّانها وملازموها، فبئس الجزاء، وبئس المصير.

أراد هذا الأخ الصالح بهذه المقولة أيضًا التبرّئ عن هذا الفعل الشنيع رأسًا، والتذكير لأخيه، عَسى أن يَكُفّه عَن الاعتداء والْقتل، ولكن:

عَجِبْت لِلنَّاس يُدعَى كلّهُم بَشَرًا
هَذَا مَلَاكٌ وَ ذَا في ثَوْب شَيْطَان
هَذَا يَرِقّ لذي بُؤْس فَيُطْعِمُه
وَذَاك يَسْلُبُ خُبْزَ الْجَائِع الْعَانِي

8 - فَطَوَّعَت لَه نَفْسُه

الأخ الحاسد قائم على عزمه بِقَتل أخيه ولكن المُضِي على هذا العزم الجائر ما كان هَيِّنًا، فكان في تردُّد ومُغَالَبَة بين دافع الحسد ودَافع الخَشْيَة، وبين دافع الخير ودافع الشر، فكان يُقَدِّم إليه رِجلًا ويُؤَخِّر عنْه أُخْرَى، فتردد مَلِيًا بين الإقدام والإحجام، ويَتَصَارَع في نفسِه داعي الخير وداعي الشر، وأخيرًا استجاب إلى داعي الشر والنفس الأمارة بالسوء، فطوَّعت له نفسُه وسوَّلت وزيَّنت، وصوَّرت له أن قتل أخيه

طوْعُ يدِه وسَــهْلٌ عَليه، فبَقِيَ زَمَانًا يتربّص بأخيه ويَتَرَصَّــد فُرَصًــا، حتَّى فعل فعلًا ما كان ينبغي له أن يفعل أبدًا، قَتل أخاه ومَن هو من أقرب الناس إليه، وأرحم به وأنصح له، قتل أخـاه الـذي يَشُــدُّ أَزْره، ويُوَازِرُه ويكون لَـه رِدْءً وعِمَـادًا في المُلِمَّات، وَاســتحق بِسـبب هذا القتل لِخسـارة فادحة، خَسِـر نفسَـه في الدنيا والآخرة، وحرَم نفسـه سـعادةَ وحظوظَ الدُّنيا والأخرى، وجمع بين قساوة القلب وقطع الرَّحِم وَإزهاق النفس المعصومة وَإراقة الدم الطاهر.

وأيُّ خَسارة أعظم من جريمة القتل هذه؟! وَأيُّ جريمة أكبر من إهراق دم الأخ الشــقيق؟! يقول تعالى: {فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيْهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِيْنَ}. (سورة المائدة:30)

قِفوا بُرهة نتدبَّر هذه الآية الكريمة، يا له من عَظَمَة الْكلام! ويـا لـه من متكلم عظيم -ســبحـانـه-! جـاءت كلمة "طَوَّعَـتْ" في أقصـى غـايـة الإعجـاز في التعبير، وفيهـا أبلغ التصــوير للتردُّد والمراجعة التي كانت بين القاتل ونفســه، لم يُقْدِم على قتله على التَّوِّ، بل بعد ممانعة ومنازعة مع دواعي الخير ودواعي الشر.

وهكذا يكون مع كل قاتل سفَّاك، لم يقدِم على ارتكاب الســوء وســفك الدم على الفور، بل يتردَّد ويحجم في بداية الأمر، ومن اجترأ على القتل أوّل مرة ســهل عليه بعد ذلك،

حتَّى يألَفه ثم تُطَوِّعِ له نفسُه وتُشَجِّعُه على الجرائم النكراء التي يَنْدَى لها الجبينُ.

سَلك القرآن الكريم هنا مَسْلَك الإطناب، لم يَقل: "طوَّعَت له نفسه فقتله" بل قال: "فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتل". لقد أراد القرآن أن يُبرز فَظَاعَة حَالَة هذا القتل، وأن يُصَوِّر خَواطرَ القاتلِ الشَّرِيْرةَ، وأن يبيِّن مَدَى قساوة قلبه، إذ قتل أخاه الذي من شأنه الرحمة والرِّفق والحُنُوّ به، وعدم بسط اليد إليه بالسوء، كل ذلك عبّر عنه القرآن بكلمة واحدة "فطوَّعَت". فسبحانَ مَن أنزل هذا الكتاب العظيم! وجعله في قِمة الرَّوْعَة والإعجاز والحقّ والصدق!.

9 - من سَنَّ سُنة سيئة

ما قتل هذا الأخ الحاسد أخاه المظلوم البريء فقط، بل قتل الناس جميعًا، ما أزْهَقَ رُوحه الطَّاهرة فَحَسْبُ، بل أزهق أرواحَ البشريَّةِ جَمْعَاءَ، ما قتل واحدًا بل ذَلَّلَ طريقًا مسلُوكةً للقَتَلَة الحَسَدَة إلى قيام الساعة، وسَن سنة سيئة، وأصبح قدوة غير صالحة، وَرَمْزًا للظلم والحسد لكل من أتى بعده، فكان يَجِبُ أن يحمل كِفلًا ووِزرًا ونَصيبًا غيرَ منقوص من ذنوب القاتلين الظالمين الذين يُرِيقُون دِمَاءً زَكِيةً منذ ذاك الوقت إلى قيام الساعة، ويَبنُون قُصورهم على جَمَاجِمِ

الأبرياء، وأَشْلَائِهِم الممزَّقة، ويَبقُرُونَ البطونَ، ويَثْلَغُوْن الرؤُوْس ويُقَطِّعُوْن الأوصال والأطراف.

وما أَبْشَعَ جَرائمَ السفَّاكِين اليومَ الذين يُسيلُون أنهار الدماء في كثير من بلاد العالَم وفي العالم الإسلامي بخاصَّة، وَرُبَّما يَدُكُّون المدائن كاملة بالقنابل النوَويَّة والأسلحة الدَّمَّارة، وقد صدق المصطفى -عليه أفضل الصلوات وأزكى التحيَّات- حيث قال: "لا تُقتل نفس ظُلْمًا إلَّا كان على ابن آدم الأول كِفْلُ من دمها، لأنه أوّل من سَنَّ القَتل".

(مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه)

فكُلُّ قَتلٍ يَحدُثُ إلى قيام الساعة يَحمل وِزره هذا القاتل الأول الذي قصَّ الله -سبحانه- علينا قصته في سورة المائدة التي نقرأها الآن.

والتاريخ يسجِّل كيف أَوْدَتْ بِه سَكَرَاتُه إلى قتل أخيه والمُسَاهَمَة في قتل الملايِيْن من الضَّحايا.

وهذا لا يعني أن القتلة لَيُفْلِتُوْن مِن عِقَاب الله وعَذابه، بل هم يَحْمِلون أيضًا أوزارهم كاملةً.

10 - ماذَا يفعل بجُثَّة أخِيْه

حار القاتل بعد قتله، وضَاقت به الدنيا، ولم يَدْرِ كيف يفعل بجثة أخيه، قتله مغلوبًا بدافع الشرِّ وطَائعًا للنفس الأمَّارَة بالسُّوْء، وما فكَّر في عواقبه، والآن يَتِيْهُ حَيْرَانًا

كيف يُوَارِي سَــوْءَة أخِيه المقتول؟! ولعلَّه أوّلُ مَيْتٍ مَاتَ من بني آدم.

لقد كان هذا القاتل مُتكَبرًا مُتجبِّرًا مَزْهُوًّا بِنفســه، فأراد الله أن يُذِلَّه في الدُّنيا قبل الآخرة، وأن يُذِيْقه في الدُّنيا ذُلَّ المعصِية وهَوَانها قبل يوم الْقيامة، فَعاد ذَليلًا مُهانًا، قتله بجَســارة ثمَّ أصـبَح عاجزًا ولم يَعلم كيف يُخفي فَعْلَتَهُ عن أعين الناس، وكيف يَسْتُر جُثَّةَ أخِيه.

يا لَعَظَمَة القرآن! حين يحكي جبروت ابن آدم وطُغيانَه في سفْك دَم أخيْه، يَحْكِي إذلالَه بِالعجز عن مُوَارَاة جُثمَان أخيه.

الْقاتل يدبِّر في الْقتل ويخطِّط خُطَّة خَفِية في الْفَتْك وَالاغْتِيَال، تدُل على إعماله عقله وجســارته على الإقدام وإخفاء فَعْلَتِه عن الأنظار، ولكن يكون في نفس خُطَّتِه مَا يَدل على عجزه وذُله وكَونِه مبَاشرًا لهذا الفعل الشنيع، وهو يكون حجة عليه وَشهادة على كونه قاتلًا سَفَّاكًا، أما ترى كيف قتَل ابن آدمَ أخاه بكلِّ اجتراءٍ وتخطيط مَدْرُوسٍ! ولكن عَقِبَ قَتلِه لأخيه وقف حائرًا عَاجزًا، لا يدري ما يصنع بجُثَّتِه وهكذا ظهر سرُّه وبَدَتْ مَكِيْدَتُه وخرج ضِغْنُه وحِقْده.

11 - فَبعث الله غُرابًا

لما تمَّ ما أراد اللهُ مِن إذْلالِه وعَجزه ومَهانِه، ألهم الله غرابًا أن يأتي وينزل المكانَ الذي فيه ذلك القاتل الخائب

العاجز، فجاء الغراب هناك وحفَر بمِنْقَارِه ورِجلَيْهِ حُفْرَةً في الأرض، وأطالَ البَحث فيها.

رَأى القاتل هذا الغرابَ يبحث في الأرض، فاستفاد مِن تَجْرِبَتِه، وحفَر لأخيه حُفرة ودفنه، وحَثَى عَليه التراب، وقال في لَهْفَة وحَسْرة: وَافَضِيْحَتي! يا لَهْفَتَاه! هل بلغ عجزي وَضَعفي وقِلَّة مَعْرفتي أن كنت دون الغراب علمًا وتصرُّفًا. يا ويلتي! أصرْت أعجز من طائر لا يَعْقِل.

علَّم الغرابُ الابنَ الحاسد القاتل طريقةَ الدفن، فدَفن أخاه ووارى جُثمانه، وأصبح نادمًا على ما فعل، ولكن كانت هذه الندامة ندامة عاجزٍ متحسِّر، ليست ندامة تائبٍ، فندم ولاتَ حِيْنَ مَنْدَم، نَدِم ولكن لم تنفعه الندامة. وَهَكذا تكون عاقبة المعاصي النَّدامةَ والخسارةَ والتحسُّرَ والتوجُّعَ، ومن شؤم المعاصي أن يُّسْلَب الإنسانُ فهمه وَذكاءَه وقوة تفكيره. فاضطُرَّ هذا الإنسان القاتل الذي منحه الله العقل والذكاء إلى أن يهتدي بطائر لا يعقِل، وكان درسٌ قاسٍ جدًّا تَلَقَّاه هذا الغِرُّ المأفُونُ الذي ما هو بأهل لوحي الله ولا لإلهامه أن أصبح تلميذًا للغراب، ولله في شؤونه حِكَمٌ بَالغات، فاهتدى هذا القاتل بالذي يقال عنه :

ومَن يَكُنِ الغُراب له دليلًا

يَمرُّ به على جُثَثِ الكِلَاب

وكانت في هَذه الطريقة التي علَّمَها الله إيَّاه بإرسال الغُراب رحمة ورعاية لتلك الجُثَّة الطاهرة، وسَنٌّ لدُسْتُوْر الخليقة في دفن أمواتهم ومُوَاراة جُثمانهم إلى قيام الساعة، يقول -تبارك وتعالى-: {فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيْهِ، قَالَ يَاوَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُوْنَ مِثْلَ هذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِيْ، فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِيْنَ}.

(سورة المائدة: 31)

فسبحان مَن لا يَخْلُوْ أمر مِن أُمُوره، ولا شأن مِن شؤونه، من تدبير وحكمة! وحاشاه أن يكون شيء في أفعاله سُدًى وعبثًا!

12 - الحَسد أخطر الأمراض

إن نُمْعِن النَّظَر في قصَّة ابني آدم نَجِدْ دَاءَ الحسد ظاهرًا جليًا فَاشِيًا، فَالحسد ذَنب عظيم وجُرم كبير، وهو من أشَدِّ وأخطر الأمراض القلبية، هو داء عُضال ومرض فتَّاك، إن الحسد قاتل بلا سِكِّيْن، وحارِقٌ بلا وَقود، ومُغرِق بلا ماء، الحسد مرض خبيث يُوْرِث الحِقْدَ والضَّغِيْنَة في القلب، وهو أول ذنب عُصي الله به في السماء وفي الأرض، ما منع إبليسَ عن السجود لآدم إلا الحسَدُ، فهو سبب رئيس في إبعاد إبليس عن رحمة الله وطَرْدِه عن قربه، وكان الحسد سببًا لعداوة إخوة يوسف ليوسف -عليه السلام-، وما آمن أهل الكتاب بالنبي

الأمي الخاتم -صلى الله عليه وسلم- إلا حَسدًا من عند أنفسهم.

فالحسد هو داء قديم مُتَجَدِّد، وهو حَمَلَ ابن آدم على قتل أخيه وإزهاق رَوحه الطاهرة، وأصبح ابن آدم الحاسد القاتل أسوة سيئة في الحسد وغَوَائِلِه وعواقبه الوخيمة، وليس الحسد عن العُجْب والكِبْر بمَعْزِل، وقد صدق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذ قال: "دبَّ إليكم داء الأمم: الحسد والبغضاء". (رواه الترمذي)

والحسد عَدُوُّ الرِّضَا، والحاسد لا يسعد أبدًا؛ لأنه يسخط بقدر الله، ولو يملك الحاسد مَنْعَ الْهَوَاء عن المحسود لمنعه، ويكفيه من العذاب والذلة أنه يَغْتَمُّ وقتَ سُرورِ الآخرين، وصدق مَن قال:

كُلُّ الْعَدَاوَات قَدْ تُرْجَى مَوَدّتهَا
إلا عداوةَ مَن عَادَاكَ مِنْ حَسَد

ويكفيه شناعة وعيبًا أن الله تعالى أمر بالاستعاذة منه كما أمر بالاستعاذة من الشيطان الرجيم، فاقرؤوا إن شئتم المُعَوِّذَتَين.

وما من حاسِد إلا سَيَجْنِي خمسَ عُقُوبَاتٍ قبل وُصول حسدِه إلى المحسُود، وهي: سَخَط ربه، وغَمٌّ يَكْوِي قَلبه، ومصيبة لا يُؤْجَر عليها، ومَذَلَّة يُعَيَّر بها، وانغِلاقُ باب السعادة في وجهه. نسأل الله السلامة والعافية!

تَمَّ -بفضل الله ورِفْدِه وكرمه- هذا العمَل المبَارك اليومَ العشريْن من شهر جُمَادَى الأوْلَى سنة 1443 للهجرة.

فإن أصبت فلا عُجْبٌ ولا غَـــرَرٌ
وإن نقصت فإن الناس ما كَمُلُوْا
والكاملُ اللهُ في ذاتٍ وفي صفـــةٍ
وناقص الذات لم يَكْمُل له عَمَلُ

وأرجو من الإخوان القارئين أن يذكروني ووالدَيَّ وأساتذتي ومشايِخي - خاصةً من كلّفني بهذا العمل- بدعوات صالحة، وأن يُغْضوا أنظارَهم عن هفوات واردة، وأن يُكرموني إذا بدا لهم في هذا الكتاب سَهْوٌ أو خطأ بكلمات ناصحة. والله يوفِّقنا جميعًا لما يحبّ و يرضى. والحمد لله رب العالمين.

معجم الألفاظ الغريبة

قصة لقمان -رحمه الله-

1 - رجل حكيم

أصلًا	بالکل نہیں، قط کے معنی میں ہے، منصوب بوجہ ظرف
أثنى على (إفعال)	تعریف کرنا

4 - ظلم عظيم

عبد (ج) عبيد أعبد	بندہ، غلام
الضريح (ج) أضرحة	قبر، مزار
نهنه عن كذا	منع کرنا، روکنا
دان (ض) بدين	دین کو اپنانا، اختیار کرنا

5 - بر الوالدين

ثنى بكذا (تفعيل)	ثانیاً بیان کرنا، دوسرے نمبر پر لانا
قرن (ض) الشيء وبكذا	مربوط کرنا، ملانا
برّه وبه	اطاعت کرنا، حسن سلوک کرنا
الجنين (ج) أجنّة	شکم مادر میں موجود بچہ
الأذى	تکلیف، گندگی
روى(س) ريًا	سیراب ہونا
العقاب الوبيل	سخت سزا
تعب في إثر تعب	مشقت پر مشقت
شُرب نمير	خالص مشروب، صاف وشفاف پانی
صاحبه	ساتھ رہنا، بسر کرنا
وصّى وأوصى	وصیت کرنا، تاکید کرنا

6 - مراقبة الله

مراقبة الله	اللہ کا دھیان رکھنا، دل میں خوف خدا رکھنا
رهّب	ڈرانا، ہیبت پیدا کرنا
الأبوة	رتبۂ پدری، والدیت
خردل	رائی
نفح العبير	عطر آگیں، عطرافشاں
عبق الأريج	نکہت خیز
عزب (ن) الشيء عنه عزوبًا	پوشیدہ ہونا، دور ہونا
القفار	ویران زمین، بے آب و گیاہ صحرا

7 - من عزم الأمور

عزم الأمور	بڑی ہمت کے کام
تحمل أعباء كذا	ذمہ داری اٹھانا
مكابدة	جھیلنا، تکلیف برداشت کرنا
الحاني	مشفق، مہربان

شعيرة كذا	فريضه، شريعت کا مفوضه حکم
المشاق (م) مشقة	دشواری، کلفت
المعاداة	دشمنی، مخالفت
من جرّاء كذا	اس وجہ سے، اس کے نتیجے میں
رخص (م) رخصة	عزیمت کی ضد، تخفیف، تسہیل

8 - شناعة التكبر

تفوح شذاه	خوشبو مہکتی ہے
مرح (س) مرحا	اکڑنا، اترانا
المباهاة بكذا	ناز کرنا، شیخی مارنا
خُيلاء	تکبر، عجب

9 - القصد في المشي والتكلم

أنكر الأصوات	سب سے بری آواز
التوسط في المشي	چلنے میں میانہ روی اختیار کرنا
دبّ دبيب المتماوت	سست روی سے مریل کی طرح چلنا
زفير	چیخنا، چلانا
شهيق	دہاڑنا، بھیانک آواز نکالنا
هاب (ف) هيبة	ڈرنا، خوف کھانا
الإسرار	آہستہ، دھیمی
التأسي بفلان	اتباع کرنا، نقش قدم پر چلنا
ينال منه	بدنام کرنا، برا بھلا کہنا
قدوة	پیشوا، آئیڈیل، ماڈل

قصة أصحاب الكهف

1 - فتية آمنوا

السحيق	بعید، بہت دور
متقاربو السنّ	ہم عمر
حاد(ض) عنه حيدًا	ہٹنا، کنارہ کش ہونا
قيد أنملة	انگشت برابر
عجّ (ن) عجًا	گونجنا، آواز بلند ہونا
التعويل	اعتماد کرنا، مدد لینا

2 - للّه في خلقه عجائب

سرعان ما ينقضي	بہت جلد ختم ہو جاتا ہے
الملكوت	بادشاہت، حکمرانی
تعاجيب	عجائب، انوکھی چیزیں
إنامة	سلانا (نام سے اِفعال)
خارقة للعادة	فوق الفطرت، کرامتی

3 - إلى الكهف

اعتزل	الگ ہونا، کنارہ کر لینا
العيش الرغيد	خوشگوار زندگی
طيلة الحياة	مدت العمر، زندگی بھر
السداد	درستگی، راست روی
الدرب (ج) دروب	راستہ، شاہراہ
التكدير	خلل ڈالنا، مکدر وبے لطف بنا دینا

4 - ميزتان للقصص القرآنية

ميزة	امتیازی صفت، خصوصیت
سموُّ الهدف	بلندئ مقصد، بڑا نصب العین
سرد (ن) سردًا	تسلسل اور ترتیب سے لگاتار بیان کرنا
مرية	شک و شبہ
التخرص	اٹکل دوڑانا، اندازہ لگانا
أبطال	ہیرو، سورما، میر افسانہ
الشجعان	بہادر
أيما	أي کمالیہ،
	ما برائے تاکید، کیا ہی!

الإنجاز تکمیل، کامیابی

5 - التفصيل بعد الإجمال

المطّرد کثیر الاستعمال، عام

تحدى (تفعل) چیلنج کرنا

ركز على (تفعيل) زور دینا، مرکوز کرنا

طموح بلند خیالی، امنگ، ولولہ

النهضة ترقی، بیداری

أذكى زود فہم، انتہائی زیرک

6 - إعلان التوحيد

المزعجة پریشان کن، بھیانک

هرب (ن) هربا بھاگنا

دبّر تدبیر کرنا، انتظام کرنا

الرواسي مضبوط پہاڑ

جائر ٹیڑھا، ظالمانہ

7 - البراءة من الشرك

النقيض مخالف، متضاد

التنديد به مذمت کرنا، عیوب بیان کرنا

الالتفات متوجہ ہونا

المزعومة خیالی، نام نہاد

أكذوبة بڑا جھوٹ

اختلق گھڑنا، افترا کرنا

نبذ انکار، تردید

نبراس (ج) نباريس مشعل راہ، آئیڈیل

استضاء روشنی حاصل کرنا

8 - كرامة الله لهم

التنحي (تفعل) کنارہ کش ہونا، الگ ہونا

آوى پناہ لینا

الطبيعة فطرت، عادت، معمول

جاع (ن) جوعًا بھوکا ہونا

عطش (س) عطشًا پیاسا ہونا

الكلأ (ف) نگہداشت، حفاظت

9- باسط ذراعيه

العتبة دہلیز، چوکھٹ

أمسك عليه الباب دروازے کو تھامے رہنا

المجاورة پڑوس، ساتھ

ابتاع خریدنا

الكير (ج) أكيار بھٹی

المنتنة بدبو دار

10 - كم لبثتم

أدلى برأيه رائے پیش کرنا

همّ (ن) همًا اہم ہونا، قابل فکر توجہ ہونا

ديدن عادت

دأب معمول

المراء جھگڑا

11 - أيهما أزكى طعامًا

جلب (ن) جلبًا لانا، حاصل کرنا

إياب (ن) واپسی، لوٹنا

تنكر (تفعل) بدل جانا، نامانوس ہوجانا

تحير (تفعل) حیران و ششدر رہ جانا

نقد (ن) الدرهم ونحوه جانچنا، پرکھنا

12۔ البعث حقّ

جحد (ف) جحودًا — ہٹ دھرمی کے سبب انکار کرنا
تناقل — نقل کرنا، روایت کرنا
عثر (ض) علی کذا — مطلع ہونا
صمیم — بنیادی، اساسی
عاین عیانًا — آنکھوں سے دیکھنا، مشاہدہ کرنا

13۔ ربي أعلم بعدتهم

نبأ ساعة — وقت کی سب سے اہم بات
الفذلكة — خلاصہ، لب لباب
المغزی — ما حصل، مراد

14۔ إلا أن يشاء الله

احتبس — رکنا، بند ہونا
أرجف — افواہ پھیلانا
الرمزي — اشاراتی، کنائے میں
خطة — لائحہ عمل، اسکیم، پلان
أمنيات — تمنائیں، ارمان، خواہش

15۔ أحسن بهذه الجملة

شجّع — ہمت دلانا، حوصلہ افزائی کرنا
أطُر (و) إطار — دائرہ
علّق بكذا — معلق کرنا، وابستہ کرنا

16۔ و إذا نسيت

المحذور — قابل احتراز و احتیاط
المسدَّد — راست رو، درست
حريّ بكذا — لائق ، سزاوار
على هامش الحياة — حاشیۂ زندگی پر، بلند مقاصد سے برطرف

بطّالًا — بے کار، نکما، بے روزگار

17 - ثلاثمأة سنة

التفاوت — فرق، کمی، بیشی
التقويم — کلینڈر، جنتری
كفاية — جو کافی ہو
غنية — جو احتیاج باقی نہ چھوڑے

18 - كمال علم الله تعالى

شأن — کام، معاملہ
خفية — پوشیدہ
جلية — ظاہر
الكثيف — دبیز، کثافت والا
دبيب — رینگنا، آہستہ آہستہ چلنا
الصماء — سخت، جس میں منفذ نہ ہو
وكل (ض) وكالة — حوالے کرنا، کسی کو سونپنا

قصة صاحب الجنتين

1 - واضرب لهم مثلًا

صراع — کشمکش، رسہ کشی
المادية — مادیت، اشیا کا ظاہری پہلو
مآل — انجام، نتیجہ
عرّج على — گذرنا، متوجہ ہونا
استرعى الانتباه — توجہ مبذول کرانا
لفت (ض) النظر — متوجہ کرنا
الزجر — جھڑکی، ڈانٹ، سرزنش
الإقناع — مطمئن کرنا
بصدده — جس کے سلسلے میں، جس کے بارے میں

تعزز بكذا	فخر کرنا، ناز کرنا
استنكف	عار محسوس کرنا، ناک چڑھانا

٢ـ صاحب الجنتين

كرم	انگور
مطيفة	احاطہ کرنے والا، گھیرنے والا
الأنيق	خوشنما، مرتب و باسلیقہ
أجناء (و) جنا	پھل
الزهو	تکبر، گھمنڈ
روعة المشهد	شان دار منظر

٣ ـ إظهار الكبر والغطرسة

الغطرسة	تکبر، خود پسندی
الترشح	ظاہر ہونا، ٹپکنا
ينضح	ظاہر کرنا، چھلکانا ، ٹپکانا
حشم(ج) أحشام	خدام، متعلقین
الغطريس	متکبر، خود پسند
تمرّد	سر کشی، نافرمانی
وقاحة (ك)	ڈھٹائی ، بے شرمی
الاستئهال	مستحق سمجھنا، لائق و اہل سمجھنا
استدراجًا	ڈھیل دینا، آہستہ آہستہ قریب کرنا
إمهال	مہلت دینا

4 - حوار المؤمن المتواضع

المنطق	گفتگو
الهذيان (ض)	بہکی بہکی اور نا معقول باتیں کرنا
البِلى (س)	بوسیدہ ہونا، بہت پرانا ہونا
الربوبية	صفت خداوندی، پرور دگاری
ندّدبه	مذمت کرنا، تشہیر کرنا
الوخيمة	نقصان دہ، خطرناک انجام

5 - لاقوة إلا بالله

يزعزع	جھنجوڑنا، متاثر کرنا
التوبيخ	ملامت کرنا، سرزنش کرنا
ردّ الأمر إلى نصابه	معاملہ اصل حالت کی طرف لوٹانا، طرز عمل درست کرنا
أسدى إليه	بھلائی کرنا، عطیہ کرنا
النفر	جماعت، مجمع، عزیز و اقارب
دُول	آتی جاتی چیز، ادلتی بدلتی
صبّ (ن)	برسانا
سوط (ج) سياط	کوڑا
نفاد (س)	ختم ہونا، فنا ہونا
أملس	سپاٹ، صاف، ہموار، جس پر کوئی چیز نہ ہو
الملاسة	سپاٹ پن ،چکنا
غائر	خشک، زمین میں اترا ہوا
المعاول	کدال، زمین کھودنے کا آلہ

6 - إذا فات الأوان

ألقى بالا	توجہ دینا
نشوة	نشہ، مدہوشی
دعائم	ستون، سہارے کی لکڑی
المعروشة	ٹٹیوں پر چڑھائی ہوئی
عروش	ٹٹی، وہ لکڑی جس پر انگور کی بیل چڑھائی جاتی ہے
باد (ض)	برباد ہونا

7 - المخذول من خذله الله

حُسبانًا — آفت، ناگہانی مصیبت

8 - هنالك الولاية لله الحق

التوهمات — وہم، بے بنیاد خیال

قصة موسى مع خضر -عليهما السلام-

1 - موسى في القرآن

قربه نجيا — اپنا راز دار بنا لیا

وجيه — باآبرو، معزز، رتبے والا

كفاح — جد و جہد، مقابلہ

قدر لايستهان به — ایک معتدبہ حصہ، وافر مقدار

2 - سبب هذا القرار

القرار — فیصلہ، تجویز

أسمى — بڑا، عظیم

أصاب — پانا، حاصل کرنا

قبس — حصہ، ٹکڑا، فائدہ

مجمع البحرين — دودریاؤں کے ملنے کی جگہ

مكتل — ٹوکری، تھیلا

العلم — علامت ، نشان

عدّة — تیاری، تیار کردہ چیز

اصطحب — ساتھ لینا، ساتھی بنانا

3 - رحلة شاقة في طلب العلم

النفيس — مال کثیر، قیمتی چیز

النفس — جان

اغتبط — خواہش ہونا، غبطہ ہونا، قابل رشک ہونا

السيادة — سرداری، عظمت و شرافت

النصب — تکلیف، مشقت

أبدى — ظاہر کرنا

كفّ (ن) عنه — رکنا، باز آنا

الحقب — مدت دراز، لمبا زمانہ

مشيًا على القدم — پیدل چلتے ہوئے

وعيٌ — صحیح سمجھ، احساس و شعور

4 - بلوغ المكان وطروء النسيان

زنبيل — ٹوکری، تھیلا، برتن

انسراب — پانی میں داخل ہوجانا

بثّ (ن) — پھیلانا، نشر واشاعت کرنا

التبديد (تفعيل) — بکھیرنا، منتشر کرنا، ختم کرنا

اضطرب — تڑپنا، ہلنا، حرکت کرنا

انجاب — پھٹنا، کٹنا، چرنا

النفق — سرنگ

الشارة — علامت، نشان

لاح (ن) — ظاہر ہونا، دکھائی دینا، نظر آنا

نشد (ن) — تلاش کرنا

5 - لقاء موسى مع الخضر

استلقى — چت لیٹنا

المسجى — کپڑے میں لپٹاہوا

ضالة — گم شدہ چیز

الخلّص — مخلص ، خالص ، باوفا

البواطن — اندرون، اسرار

رام (ن) رومًا — چاہنا، قصد کرنا

6 - من أدب الطلب

الجمّ — کثیر، بہت، بڑا

تأتى (تفعل) — حاصل ہونا، آسان ہونا

7 - ردّ الخضرعلى سؤال موسى

البون الشاسع — بُعد بعید، بڑا گیپ

لايسوغ — لایجوز کے معنی میں، ناجائز ہونا

أبى إلا أن يفعل كذا — کسی کام پر مصر ہونا

أثار — اٹھانا، پیش کرنا

التسجيل — قابل توجہ، لائق التفات، نوٹ کرنے کے لائق

النقاش — مباحثہ، مذاکرہ، سوال و جواب

8 - خرق السفينة

الشطّ — کنارہ

نول — کرایہ

توغلت السفينة في البحر — دور اندر چلے جانا

بادر بكذا — جلدی سے کوئی کام کرنا

فظيع — بھیانک، ہولناک، قبیح

داهية — بڑی مصیبت، عظیم منکر

الزلة — لغزش، غلطی

عادية الظلم — ظلم و جور، مصائب وآلام

9 - قتل الغلام

المغيّا — با مقصد، جس کی حد مقرر کی گئی ہو

مذاق — ذوق، سلیقہ، پرکھنے کی صلاحیت

اقترف — گناہ کا مرتکب ہونا

تحلل — بری الذمہ ہونا، معاہدہ ختم کردینا

أثقل على فلان — کسی پر زبردست بوجھ ڈالنا

خليق بكذا — لائق، اہل، سزاوار

التدرع — صبر و ہمت سے کام لینا

10 - إقامة الجدار

ردّ (ن) ردًّا — جواب دینا

ساخط — ناراض، غضبناک

تداعى الجدار — پھٹ جانا، گرا چاہنا

على وشك كذا — قریب ہونا

الانهيار — منہدم ہونا، ڈھے جانا

لئيم (ج) اللؤماء — کمینہ، کم ذات، دون فطرت

11 - تأويل الأحداث

مصالح — منفعت، بہتری، صلاح و بہبود

ارتزق (افتعال) — روزی کمانا

كدح (ف) كدحًا — محنت کرنا، تکلیف اٹھانا

إكراء — کرایہ پر دینا

أطاق — کرسکنا، طاقت رکھنا

12 – وكان أبوهما صالحًا

لهج (ف) لهجًا به — دلدادہ ہونا اور اس پر پابندی اور مداومت کرنا

استصلاح — اصلاح چاہنا، خیریت کا خواستگار ہونا

13 - الأدب مع الله

استتبع — تابع بنانا، تبعاً کر کرنا

حضرة الجلالة — بارگاہ خداوندی

14 - وما فعلته عن أمري

أتى فعلًا — کام کرنا، کسی کام کو پورا کرنا

الحائد — منحرف، کج رو

مشعوذ	شعبدہ باز، مداری
منجّم	نجومی، جوتشی

قصة ذي القرنين

١۔ يسئلونك

هيّا بنا	اسم فعل امر، آؤ چلیں
طوّف الآفاق	جہاں گردی کرنا، دنیا چھان مارنا
القسط	عدل وانصاف
رصين و متين	پختہ و پائیدار، مضبوط و مستحکم
التحديد	تعیین، حد بندی
المتلقي	حاصل کرنے والا، طالب
تهيّأ	تیار ہونا، مستعد ہونا
شريطة أن	بشرطیکہ
متعنت	عیب جو، ضدی، ڈھیٹ
التوظيف	استعمال کرنا، کام لینا
مستوى	سطح، معیار
الحاذق	باکمال، ماہر
الخُطا	قدم، ڈگر، روش
غرير	نا تجربہ کار نوجوان
الترسيخ	ذہن نشین کرنا، راسخ فی العلم بنانا
الغث	ردی اور خراب چیز
السمين	الغث کی ضد، عمدہ اور اچھی چیز
كلام سمين	سنجیدہ اور حکیمانہ کلام

٢۔ ذو القرنين

المعهود	معلوم، معروف، مقرر
المركّز	ٹھوس، جچاتلا
المجدي	مفید، نافع
مهذّبة	منقح، صاف و شفاف، شائستہ
مذهبة	سنہری، حسین، قیمتی
مكنة	طاقت و قوت، اقتدار، زور
السدّ	دیوار، اوٹ، پہاڑ
المنيع	محفوظ، مضبوط، مستحکم
الهيبة	رعب ، دبدبہ، دھاک
عنى (ض) الأمر فلانًا	اہم ہونا، متعلق ہونا

٣۔ التمكين في الأرض

تمكين	اقتدار عطاکرنا ، موقع فراہم کرنا
بادي ذي بدء	شروع میں
مهام	مہم، مشن، کار منصبی
هيأ	تیارکرنا، مہیاکرنا ، تشکیل دینا
المدعّمة	مؤید، مضبوط ، لیس
بسط النفوذ	اقتدار جمانا، رسوخ پھیلانا
دان له (ض)	فرماں بردار ہونا، تابع ہونا
قهر البلد	ملک پر غلبہ حاصل کرنا، ملک فتح کرنا
أقاصي (م) أقصى	بہت دور
العمران	آبادی
استعمله على وجهه	صحیح طور پر استعمال کرنا

حضارية	تہذیبی، تمدنی
التفريط	کوتاہی کرنا
المتاحة	حاصل شدہ، میسر

4 - إلى المغرب

التوطيد	مضبوط کرنا، مستحکم بنانا
حثيثًا	تیزی کے ساتھ
الحزن	سخت زمین، نا ہموار علاقہ
قصّ الجناح	پر کاٹنا، دبدبہ ختم کرنا
الحرّ	گرمی
القرّ	ٹھنڈی
السهل	ہموار زمین
الوعر	دشوار گذار زمین، ناقابل عبور

5 - أين تغرب الشمس

الحمأة	دلدل، کیچڑ
عين حمئة	دلدل جیسا سیاہ چشمہ
مطمح	پیش نظر، نگاہ اٹھنے کی جگہ
يخيل إليه	خیال میں آنا

6 - الدستور العادل

البطش	پکڑ، گرفت
لامندوحة عنه	اس سے مفر نہیں، یہ لابدی ہے
الإثخان	خون ریزی، کثرت سے خون بہانا
ساس (ن) سياسة	معاملات چلانا، تدبیر و انتظام کرنا، حکومت کرنا
اللواء	جھنڈا، علم، پرچم

٧- إتباع السبب السببَ

طموحات	عزائم، امنگیں
ثنى (ض)	موڑنا، پھیرنا، طے کرنا
عنان (ج) أعنة	لگام، باگ ڈور
القاصية	دور،بعید
فوضوية	بد نظمی، انارکی، لاقانونیت

9 - إلى السدّين

فتر (ن) فتورًا	پست ہو نا، ماند پڑنا
كبت (ض) كبتًا	ذلیل ورسوا کرنا،شکست دینا
المرمى	مقصد، مراد
وعورة (ك)	سختی،دشوار گذاری، کٹھنائی
انغلق	بند ہونا، محدود ہونا
ضريبة	ٹیکس،لگان، خراج
الحصافة (ك)	دانش مندی،دور اندیشی

10 - يأجوج ومأجوج

ردع (ف)	روکنا، بازرکھنا
نهب (ف)	لوٹنا،زبردستی لینا،دھمکانا
نقب (ن)	نقب لگانا،دیوار میں شگاف ڈالنا
خراب	خراب،تباہی، بربادی
تعمية	چھپانا، مخفی رکھنا
الأقمار الصناعية	سیٹلائٹ
أجهزة التصوير	فوٹو گرافی کے آلات
التقنيات المتطوره	ایڈوانس ٹیکنالوجی

11 - بناء الردم والتخطيط الهندسي المعماري

الردم	مضبوط آڑ
التخطيط الهندسي المعماري	فن تعمیر کی بہترین منصوبہ بندی

خرج	کچھ مال
شهامة	خودداری، بزرگی، بڑائی
نزاهة	پاکیزگی، پارسائی،
	احتیاط اور دوری
التبرع (تفعل)	بغیر کسی مفاد کے کام کرنا، اپنے
	طور پر وہ کام کرنا جو لازم نہ ہو
التناسق	مرتب و منظم سلیقے اور قاعدے سے
حاذى (مفاعلة)	برابر ہونا، مقابل ہونا
المتراكم	تہہ بہ تہہ
الإحماء (إفعال)	شدت حرارت،انتہائی گرم
النحاس	تانبا
الصلد	بہت سخت، بہت ٹھوس
صفيحة	لوہے یا دھات وغیرہ کی چادر
المشروع	منصوبہ، پلان

12- هذا رحمة ربي

الهائل	زبردست، عظیم

13 - تذكرة البعث والجزاء

دكاء	ہموار، زمین کے برابر

15 - من أهوال يوم القيامة

في غضون كذا	دوران، اثنا
ماج (ن) موجًا	ریلا مارنا،
	ایک دوسرے میں گھسنا
التلاشي (تفاعل)	لاشئ ہوجانا، ختم اور نابود ہوجانا
المهول	خوفناک، ہولناک ، ڈراؤنا
ذاب (ن) ذوبانا الفرق	فرق مٹ جانا،تفاوت ختم ہوجانا
مسار	راستہ، روش، رخ

16 - قدوة صالحة للساسة والحكام

جوانح	سینے کی پسلیاں، مراد سینہ ہے
الثمالة	تلچھٹ، گاد
أين هذا من فلان	اس کا اس سے کیا مقابلہ!
رقي (س)	ترقی، پیش رفت
الساحقة	بھاری، بڑی، اکثریت
عائق	رکاوٹ
هضم الحقوق	حق تلفی کرنا ، نا انصافی کرنا
النظام الجنكيزي	چنگیزی نظام ،جنگل کا قانون

قصة أصحاب الجنة

١ ـ الابتلاء سنة جارية

السنة	عادت، آئین، قانون
المحاباة	طرف داری کرنا

٢ ـ ما قيل لهم يقال لنا

قرع السمع	چوکنا کرنا، آگاہ کرنا
بطر النعمة	نعمت پر اترانا، ناز کرنا

٣ ـ إذ أقسموا

طعن في السنّ	بوڑھا ہونا، عمر دراز ہونا
الصرام	کاٹنا، پھل کی تڑائی کرنا
المنجل	درانتی، کھیتی کاٹنے کا آلہ
أخطأ	چھوٹ جانا، چوک جانا
تناثر	بکھر جانا،متفرق طور پر گرنا
لفظ آخر أنفاسه	آخری دم توڑدینا،
	دم واپسیں میں ہونا
ائتمر	مشورہ کرنا، تبادلہ خیال کرنا
رفع شعار كذا	نعرہ بلند کرنا، آواز اٹھانا

التبييت	رات کو پلاننگ کرنا
تردّد	پس و پیش کرنا
المشُورة	باہمی تجویز،
	منصوبہ بندی کا عمل
کارها	نہ چاہتے ہوئے، بادِلِ ناخواستہ
الجائر	ظالمانہ، غیر منصفانہ

4 - ولا يستثنون

سيطر على	حاوی ہونا، غالب ہونا
هيمن	قابض ہونا، چھا جانا
الأنانية	خودی، خود بینی، خود ستائی
تمكن من عمل	عمل پر قادر ہونا
ازدهاء	تکبر، افتخار، گھمنڈ

5 - أثر النية

جُوزوا	بدلہ ملا، سزا دی گئی
الشحيح	انتہائی بخل
الطوية	خو، عادت، ضمیر، دل
النتاج	پیداوار، محصول
الربح	سود مندی، فائدہ

6 - نزول العقوبة

كاد (ض) كيدًا	چال چلنا تدبیر اختیار کرنا
سدفة	تاریکی، ظلمت شب
طائف	آفت، مصیبت، عذاب
المُلمّ	نازل، پیش آمدہ
قرّر	طے کیا، پاس گیا
الجائحة	آفت سماوی، ناگہانی مصیبت
انشق النور	صبح صادق ہونا

انفلق الفجر	پو پھٹنا، تڑکا نکلنا
صريم	جڑ کٹا، کٹی ہوئی کھیتی
الإعصار	بگولہ، چکر کھاتی ہوئی ہوا

۷۔ التعاون على الإثم

الجذاذ	پھل توڑنا، توڑا ہوا
على عجل	جلدی سے، بعجلت
تهامس (تفاعل)	چپکے چپکے باتیں کرنا،
	سرگوشی کرنا
جشع	انتہاکی حرص، لالچ

8 - فلمّا رأوها

يانعة الثمار	پکے ہوئے پھل
تاه (ض)	بھٹکنا، راستہ بھولنا
المعالم	علامات، نشانات

۹۔ قال أوسطهم

تدخّل	دخل اندازی کرنا،
	مداخلت کرنا
حريّ بكذا	مناسب ہونا، لائق ہونا

۱۰۔ التلاوم لايجدي

التلاوم	باہم ملامت کرنا
إجداء	مفید ہونا، فائدہ پہنچانا
خاب	ناکام و نامراد ہونا
شرود	پراگندگی، ذہنی انتشار
ذهول	بدحواسی، حواس باختگی
صمّم	پختہ ارادہ کرنا
جذوة	چنگاری، شعلہ
إشراق	چمک، نور معرفت، ہوش

بعد حلول الدبرة — شکست خوردگی کے بعد

بعد خراب البصرة — تباہی و بربادی کے بعد

11- كذلك العذاب

عقّب على — تبصرہ کرنا، اخیر میں دروس وعبر بیان کرنا

في طيّاته — اپنے پہلو میں، اپنے اندر

تلف (س) — ضائع ہونا، برباد ہونا

التندم — پشیمان ہونا،پچھتانا

التحسر — کف افسوس ملنا

حذا حذوه — روش اختیار کرنا، نقش قدم پر چلنا

ارعوى عن — باز آنا،رک جانا

الغيّ — گمراہی، ضلالت

أقلع عن كذا — ترک کرنا، رک جانا

انزجر — رکنا،ڈانٹ کا اثر لینا

أصحاب القرية

١- الصراع بين الحقّ والباطل

كالزبد جفاءً — جھاگ کی طرح رائگاں، سوکھ کر زائل ہوجانا

معارك ضارية — خونی جنگیں،انتہائی خطرناک معرکے

رفع عقيرته — آواز بلند کرنا،پرچار کرنا

شدّ عضده — تقویت دینا،بازو مضبوط کرنا

سنا — چمک، روشنی

٢- أصحاب القرية

اللباب — مغز،جوہر،خالص حصہ

القشر — چھلکا

أديم السماء — زیر آسمان

دور بارز — نمایاں کردار

تترى — لگاتار، پے در پے

٣- تعدد الرسل في قرية

اُحتيجَ إلى — ضرورت پڑنا،حاجت پیش آنا

أرجى (إفعال) — مؤخر کرنا

التعزيز — تقویت دینا، قوت فراہم کرنا

4 - أصحاب القرية والرسل وجهًا لوجهٍ

وجهًا لوجهٍ — آمنے سامنے

مزية — امتیاز، خصوصیت

بيد أن — جبکہ، مگر یہ کہ (اسم بمعنی غیر)

البتة — بالکل،قطعاً، اصلاً

شطط — زیادتی، حد تجاوزی

سرمديّ — دائمی،ابدی

5 - سلاح المكذّبين

نصب عداءً — دشمنی کرنا،لڑائی چھیڑنا

شتى (م) شتيت — مختلف،متعدد

تشهير — بدنام کرنا، تشہیر کرنا

متّ إليه بصلة — تعلق ہونا، واسطہ ہونا

انتمى إلى — منسوب ہونا

6 - إنا تطيّرنا بكم

أعيى (إفعال) — تھکا دینا،عاجز کردینا

التشاؤم — بدشگونی لینا،منحوس سمجھنا

7 - الشؤم في المعاصي

طيرة — نحوست، بدشگونی

8 - الداعية النموذجي

لجأ إلى كذا — پناہ لینا، سہارا لینا
برُمّته — پورا، تمام (کلہ کے معنی میں)
الغثاء — خس وخاشاک، کوڑا کرکٹ
هوينى — دھیرے، آہستگی سے
وقف بجانب فلان — ساتھ دینا، حمایت کرنا
مطامع — لالچ، طمع
يا سبحان الله! — برائے تعجب
نموذجي — مثالی، معیاری

9 - أسلوب الدعوة المقنع

المقنع — اطمینان بخش
وهلة — پہلے پہل، بالکل ابتدا
استفهام إنكاري — انکار بصورت سوال جس سے نفی مقصود ہو
معرض — پیرایہ، انداز، ڈھنگ
المدارأة (مفاعلة) — دل داری کرنا، نرمی اور محبت کا برتاؤ کرنا
ورطة — پوشیدہ گڑھا، کھڈھا، ہلاکت
المردي (اسم فاعل) — تباہ کرنے والا
التفاني (تفاعل) — جاں نچھاور کرنا، جانفشانی سے کام کرنا

10 - التصريح بعد التعريض

التعريض — اشارۃ کہنا، مبہم کہنا
طالما — بکثرت، بہت مرتبہ
ألوهية — معبودیت، خدائی
ربوبية — پرور دگاری، شان و صفت خدا

تجاه — مقابل
نبراسًا — مشعل، مثال، آئیڈیل
انتهز الفرصة — موقع غنیمت سمجھنا

11 - قتل الداعية و إكرام الله له

بغية — خواہش، مطلوب
كنانة — ترکش، تیروں کا تھیلا
فتّر — پست کرنا، ہمت توڑنا
فار(ن) — کھولنا، جوش مارنا

12 - أمنية عجيبة

الشماتة (س) — خندہ زنی، دشمن کے نقصان پر خوش ہونا
الغاش (اسم فاعل) — دھوکے باز
الحظّ الدنيء — گھٹیا منفعت، معمولی مفاد
سفساف الأمور — حقیر معاملات، گھٹیا کام

13 - جزاء الطغيان

مهم للغاية — انتہائی اہم
مزبلة — کوڑا گھر، غلاظت کا ڈھیر
كيان — وجود، جسم
نواميس — سنن الہیہ، عادات خداوندی
الخسف — زمین میں دھنسانا
التدمير — تباہ و برباد کرنا
أدون — کم ترین، بالکل ہیچ (دون کا افعل التفضیل)
صرعى (م) صريع — گرے ہوئے، مرے ہوئے

14 - يا حسرة على العباد

هامد — بجھاہوا، خاموش

رِكز	آہٹ، مدھم آواز
مرارة	تلخی، کرواہٹ
البئيس	برا، سخت
تلهف (تفعل)	حسرت، رنج، افسوس
ليس كسائر الأيام	عام دنوں کی طرح نہیں
أفلت (إفعال)	چھوٹ جانا، بچ جانا

قصة أصحاب السبت

١ـ واسئلهم عن القرية

الدوحة الباسقة	عظیم بلند و بالا درخت
شبيبةالنهار	نصف النہار، نیم روز
وقع	اثر
قوارع	تازیانے
التحايل	حیلہ گری، مقصد برآری کے لیے چال چلنا
المساوئ	رذائل، برائیاں
وصمة عار	بدنما داغ، کلنک کا ٹیکا
شِنشِنة	عادت، خصلت

٢ـ كانت حاضرة البحر

كانت حاضرة البحر	لب سمندر واقع تھی
زاول (مفاعلة)	پیشہ اختیار کرنا
الوجيه	معزز، باآبرو
ضرب مثلاً	مثال بیان کرنا

٣ـ حرمة يوم السبت

بحُجة كذا	اس دلیل سے کہ
انقطع عن العمل	کام سے رکنا، کام بند کرنا
الأقوات (م) قوت	خوراکیں، سامان، غذائیں، معیشت
التؤدة	بردباری، عدم عجلت، آہستگی
انتهک الحرمة	حرمت پامال کرنا
سطّر	رقم کرنا، قائم کرنا، لکھنا

4 - نحن الآخرون السابقون

تبع	تابع، ماتحت، لاحق
اللبنة	اینٹ، خشت
زاوية	کونہ، گوشہ

5 - بسط لما أجمل

الإجمال	اختصار، تفصیل طلب
الناجع	مفید، نفع مند
تقرّر	ثابت وقائم ہونا، جم جانا
التناسق	یک جہتی، یکسانیت، آراستگی
هاتيك	یہ (ہذہ میں ایک لغت)

6 - الابتلاء في أمر الحيتان

امتثال	حکم کی بجاآوری، اطاعت
شرّعًا	اچھل اچھل کرسامنے آتیں، کھلم کھلا سامنے آتیں
مصطفةً	صف باندھ کر، ایک ساتھ
مقبلة	سامنےآتیں، باہرآتیں
غابت بجملتها	سب کی سب غائب ہوجاتیں
تحيّل	حیلہ اختیار کرنا، چال چلنا
تطرّق	راہ ملنا، درآنا
زمام الرأي	رائے کی باگ
التزاحم	بھیڑ لگنا، ایک دوسرے سے ٹکرانا
توغّل	اندر گھسے چلے جانا، دور نکل جانا

٧- الحيل الموصلة إلى ما حرّم الله

اقشعرّ الجلد — رونگٹے کھڑے ہوجانا، کانپ جانا
البتة — یقیناً، قطعاً
التخلّص منه — گلو خلاصی پانا، چھٹکارا پانا
أتون — بھٹی، تنور
حقيق بكذا — وہ اس کا حقدار ہے
نكال — عبرت آمیز سزا
الأوصال — اعضا، جوڑ
تبلى السرائر — بھید جانچے جائیں گے، ظاہر ہوں گے

8 - بين عكرمة وابن عباس

جلس على ناصية الشمس — ترقی کے بام عروج تک پہنچنا
الحبر (ج) أحبار — بڑا عالم، علامہ
الصنعة — ہنر، کاریگری، مخصوص طریقہ کار
لم يأل جهدًا — کوئی کسر نہ چھوڑی
كان يقسو عليه — ان پر سختی کرتے تھے

9 - نجاة الناهين

اقتحم — گھسنا، پامال کرنا
المارقون — مرتد، بے دین، گمراہ
طال الأمد — مدت لمبی ہوگئی، زمانہ دراز ہوگیا

10 - السكوت عن السالكين

مغبّة — انجام، نتیجہ، خاتمہ
التصرف المشين — بری کارکردگی، بہت برا اقدام

11 - عقاب الظالمين

قطّان — باشندے، سکان
أتاح الفرصة له — موقع دینا، چانس دینا
أوبة — توبہ، رجوع
مسخ (ف) مسخًا — حلیہ مسخ کردینا، شکل بگاڑ دینا
وجيع — تکلیف دہ، المناک
الإطناب — کلام کو طول دینا
منبوذ — مردود، ذلیل

12 - كونوا قردة

ما أهونه — کس قدر ذلیل ہے
حسان القامة — خوبصورت ڈیل ڈول والے
ممشوق القد — خوش قامت، نازک اور لمبا قد
عظيم الهامة — بڑے سر والا
تعاوى (تفاعل) — بندر کا چیخنا، چلانا
نزوة — خواہش، جوانی کا جوش
عقب — نسل، اولاد

13 - الجزاء من جنس العمل

جزاءً وفاقًا — پورا پورا بدلہ
التلاعب بالشيء — کھلواڑ کرنا، کھیل تماشا بنا لینا
تملك الزمام — باگ ڈور سنبھال لینا
غيّب العقل — عقل کو معطل کرلینا
قال بملء فيه — بآواز بلند کہنا، پکار کر کہنا
مغزى — ماحصل، خلاصہ، مراد
ثنايا الشيء — دوران، اثنا میں
غيض من فيض — بہت میں سے تھوڑا سا، مشتے نمونہ از خروارے

شعبة في وادٍ	قلیل مقدار
خلّد الشيء	دوام بخشنا، پائیدار بنادینا

قصة أصحاب الأخدود

١ـ أسلوب القسم في القرآن

استلهم العبر	عبرت حاصل کرنا
قمّة	چوٹی، بلندی
نصاعة	صفائی، نکھار
مفخّم	شاندار، پر شکوہ، عظیم
حشو	بھرتی، زائد ، فضول
طمأن (فعللة)	مطمئن کرنا
خصم ألدّ	سخت جھگڑالو
بلا هوادة	بلا توقف، بلارو رعایت
مستهلّ	ابتداء، آغاز
أفانين	اسالیب، اجناس کلام

٢ـ والسماء ذات البروج

الجرم العلوي	جسم سماوی
خط الاستواء	ایک جغرافیائی عظیم فرضی دائرہ
نيط بها	اس سے وابستہ ہیں، اس سے متعلق ہیں
سبح في الفضاء	فضا میں تیرنا، خلا میں چلنا
زاغ (ض) زيغًا	ہٹنا، مائل ہونا
اصطدم	باہم ٹکرانا
الجليد	شبنم جو زمین پر گر کر جم جاتی ہے، کہرا
الصقيع	برف، پالا
الضرع	تھن، جانور
هتف بالشيء	نعرہ بلند کرنا

٣ـ قتل أصحاب الأخدود

لامندوحة عنه	اس سے مفر نہیں
قوالب	سانچہ، نمونہ
البيان الساحر	شیریں مقال، سحر انگیز کلام
لهب	شعلہ، آگ کا انگارہ
حافّة	کنارہ
المسعرة	تیز بھڑکائی ہوئی
تفرّج على	تماشائی بن کر دیکھنا
شفير	گوشہ، جانب، کنارہ
الأفعال الإجرامية	مجرمانہ افعال
تضوع جوعًا (تفعل)	بھوک سے بلکنا
اضطهاد	ظلم وجور

4 - تفسير القرآن بالسنة

المشحونة	بھری ہوئی، پر
أي بُنيّ!	اے بیٹے، (حرف ندا)
رجف به	لے کر ہلنا، زلزلہ آنا
قرقور	بڑی اور لمبی کشتی
انكفأ	پلٹنا، الٹ جانا
كبد القوس	کمان کا بیچ
الصدغ	کن پٹی
أفواه السكك	گلیوں کے سروں میں
خدّ (ن)	کھودنا، گھڑے بنانا
أضرم	آگ بھڑکانا
أحمى	آگ میں ڈالنا
تقاعس	ہمت نہ کرنا، پس و پیش کرنا

موفورة الفوائد بکثرت فوائد پر مشتمل
کوامن النفس دل کے نہاں خانے
وقر في قلبه دل میں بیٹھ جانا، جگہ بنا لینا

5 - أُمّاه! امضي فإنك على الحقّ

التأجيج آگ سلگانا
أحجم پیچھے ہٹنا، رک جانا
أشفق على رحم کھانا، مہربان ہونا
غلاظ الأكباد بے رحم، کینہ ور لوگ
قساة القلوب سنگ دل لوگ
الصلابة پختگی، مضبوطی

6 - وما نقموا منهم إلا إيمانهم

المروّع ڈراؤنا، دل خراش
الذي لايضام لازوال عزت والا
ولايرام بے پروا، شہنشاہ مطلق
أسّ بنیاد
تطور النظرة رائے بدلنا، زاویہ نگاہ میں تبدیلی آنا

٧ـ العزيز الحميد

دقّ (ض) دقةً باریک ہونا، چھوٹا ہونا
عزب مخفی ہونا
شفى غليله غصے کی آگ بجھالینا، انتقام لے لینا

٨ـ وعد وعيد

ديّان بڑا عادل، محاسب، بدلہ دینے والا
دان (ض) بدلہ دینا، معاملہ کرنا

بمرصاد گھات میں، تاک میں
التضحيات الجسام بڑی بڑی قربانیاں

٩ـ ذلك الفوز الكبير

المبتغى مطلوب، اصل چاہت
النعيم نعمت

قصة سبأ

1 – نبذة عن سبأ

المدّ والجزر اتار چڑھاؤ، نشیب و فراز
الازدهار ترقی، پھلنا پھولنا
الانهيار انحطاط، گراوٹ و زوال
قاع (ج) قيعان میدان
صفصف ہموار، چٹیل
شنف الآذان بكلامه اپنے کلام سے کانوں کو محظوظ کرنا

2ـ في مسكنهم آية

الوارفة وسیع وکشادہ سایہ
الزلال صاف وشفاف شیریں پانی، ہر خالص و صاف چیز
بحبوحة العيش عمدہ اور بہترین زندگی
تربة خصبة زر خیز مٹی
هطل (ض) اترنا، برسنا
سدُّ مأرب سد مآرب، یمن کا مشہور ڈیم، بند
الوادی المقفر خالی اور ویران وادی
المتدفق اچھلتا، کودتا
صدح (ف) صدحًا پرندہ کا چہچہانا، پرکیف نغمہ سرائی کرنا

3۔ النهج الراشد

أغدق	بلا حساب دینا، بھرپور دینا
تقشف (تفعل)	دنیا ترک کر دینا، درویشانہ زندگی گزارنا، موٹا جھوٹا کھانا
سویداء القلب	دل کی گہرائی
النعم المسداة	حاصل شدہ نعمتیں، عطاکردہ نوازشیں

4۔ بلدة طيبة

حرف اعتباطي	بے فائدہ حرف
المناخ	ماحول، آب وہوا
سماحة	فیاضی، آسانی ونرمی
أقعده عن كذا	پیچھے رکھنا، محروم رہنا
معطاء	فیاض، سخی، دیالو
ضار (س) ضيرًا	نقصان پہنچانا،تکلیف دہ ہونا
مكمن	چھپا ہوا، پوشیدہ، چھپنے کی جگہ
بوادر	آثار، ابتدائی علامات
الكارثة	زبردست حادثہ، ہولناک واقعہ

7 ۔ سيل العرم

ردم	بند، ڈیم
جارف	صفایا کردینے والا ، ہمہ گیر تباہی
قوّض	منہدم کرنا، ڈھادینا
طمس زهرة الحياة	نام ونشان مٹادینا، شمع زندگی گل کردینا
المجدبة	بنجر اور خشک زمین

8 - جنتان بجنتين

المُرّ	کڑوا
البشع	بدنما، بدمزہ
كريه المنظر	بد شکل
طرفاء	جھاؤ، خارداراور کڑوا درخت
الأراك	پیلو کا درخت
السدر	بیری کادرخت
لوعة	سوزش دروں، جلن، خلش
نعق (ف) الغراب	کوے کا کائیں کائیں کرنا
جافّة	خشک
الفتاكة	مہلک، ضرررساں

9 - باقة أخرى من النعم

تهامة	عرب میں بحر احمر کے ساحلی علاقے
مشارف الشام	ملک شام میں حوران کے قریب پہاڑی علاقہ
مأمونة الاتجاهات	پر امن راستوں والی
محدودة المسافات	محدود مسافتوں والی
الغادي	شام کوچلنے والا
الرائح	صبح کوچلنے والا
أوجس	محسوس کرنا، تاڑ لینا
الخيفة	ڈر، خوف
الامتنان	احسان مندکرنا، نعمتوں کو شمار کرنا
الخيرات	منافع، بھلائیاں
الاستفاقة	ہوش میں آنا
المترف	عیش پرست ،مغرور ،نازپروردہ
سبات	نیند

10 - دعاء عجيب ومنطق غريب

قلّما — بہت کم،بسا اوقات
ملّ (س) ملل — اکتانا،زچ ہونا
المفاوز — جنگل، لق و دق صحرا
المدن المتلاصقة — متصل شہر
القرى النائية — دوردراز کے گاؤں
طفح الكيل — پیمانہ لبریز ہونا
بلغ السيل الزبا — پانی سر سے گزرنا
كواذب — بری، قبیح

11 - تفرّقوا شذر مذر

شراذم (م) شرذمة — چھوٹی چھوٹی جماعتیں
الأسمار — کہانیاں،قصہ گوؤں کی مجلس
السمار — قصہ گو
شذر ومذر — تتر بتر ، پراگندہ
أكاليل — تاج ، پھولوں کا سہرایا ہار

12 - لكل صبّار شكور

جادة — بڑا راستہ ، شاہراہ
التدرع — لیس اور مسلح ہونا

13 - وجد ظنه صادقًا

شرك (ج) أشراك — جال، پھندا
الإغواء — گمراہ کرنا، ورغلانا
التسويل — آراستہ کر دکھانا، مزین بناکر پیش کرنا
كرّه — ناپسند کر دکھانا، بیزار کردینا
البوار — ہلاکت ، تباہی
إخالك — میں تجھے خیال کرتا ہوں

14 - ليتميز المؤمن من الشاك

قسر على (ض) — کسی کام پر مجبور کرنا
بارقة الشهوة — شہوت کی کرن، امید

قصة قارون

١۔ قدوة سيّئة

الائتساء — نقش قدم پر چلنا
عني بكذا — اہمیت دینا،دل چسپی لینا
الاحتكار — ذخیرہ اندوزی کرنا، اختصاصی تجارت
تبادر إلى — جلدی سے ذہن میں آنا
الثراء الفاحش — قابل مذمت ثروت، مال کی حد سے بڑھی ہوئی لالچ
بريق المال — مال کی چمک، روپے کی کھنکھناہٹ
القاسم المشترك — مشترک وصف ،قدرِمشترک
الملامح (م) لمحة — خد وخال
حيّهلا — آیئے،آگے بڑھئے ، جلدی کیجئے

٢۔ فبغى عليهم

الواقع المأساوي — المناک صورت حال،ٹریجڈی
آنذاك — اس وقت
مت إليه بصلة (ن) — تعلق رکھنا
ينمى إليه — منسوب ہونا
كفكف الدمع — آنسو پوچھنا
اللدود (ج) ألدة — خطرناک دشمن، زبردست مخالف

اجترأ جرأت کرنا، جری ہونا

كان من بني جلدتهم انہیں میں سے تھا، اسی قوم کا ایک فرد تھا

رشّ الملح على الجراح زخموں پر نمک پاشی کرنا

ضمّد الجراح زخموں پر مرہم لگانا

المضاضة پر تکلیف، دردناک، المناک

الحسام تلوار

٣- كنوز قارون

الأموال الطائلة بہت زیادہ مال

اكتظّ بشيء کھچاکھچ بھرا ہونا

ظفر بالشيء پالینا، مل جانا، حاصل کرنا

جنبا بجنب پہلو بہ پہلو، دوش بدوش

حذاء بحذاء برابر سرابر

4 - لاتفرح

الحضيض الأوهد انتہائی پستی، گہرا گڑھا

الأشر مست، مگن، مغرور

5 - اطلب الآخرة بالمال

العائدة (عوائد) فوائد، منافع

إبّان مقررہ وقت، سیزن، موسم

6 - خذ نصيبك من الدنيا

المخيلة کبر، بڑائی

الوسطية اعتدال، میانہ روی، وسطیت، توازن

أسدى إسداء پیش کرنا، نوازنا، عطا کرنا

٧- أحسن كما أحسن الله إليك

هضم الحق حق مارنا، ناانصافی کرنا

النوال عطیہ، بخشش

أضفى على نچھاور کرنا، ڈھانپ لینا

تطاول على ظلم و زیادتی کرنا، دست درازی کرنا

أنى له أن يفعل وہ یہ کام کیوں کر کرے گا !

٨- جملة قارونية

احتفظ به اپنے لیے محفوظ رکھنا

قوّم الأمر معاملہ درست کرنا، کام بنانا

أسدُّ رأيًا زیادہ درست رائے والا

عزا (ن) عزوًا منسوب کرنا

المؤهلات قابلیت، لیاقت، کوالیفکیشن

ردد بلسان المقال زبان قال سے دہرانا

بلسان الحال زبان حال سے کہنا

٩- أولم يعلم

معشار دسواں حصہ

١٠- عند ما تبلغ الفتنة ذروتها

الزينة الباهرة خیرہ کرنے والی چمک دمک، چکا چوند کرنے والی آرائش

الأبهة شان وشوکت، کروفر

الصلف (س) شیخی بگاڑنا، ڈینگ مارنا

النخوة بڑائی، غرور، خودبینی، بددماغی

الوثيرة نرم، گداز، آرام دہ

مرقّعوا اللباس پیوند لگاہوا لباس پہنے ہوئے

خماص البطون خالی پیٹ

الإغراء دھوکہ دہی، بگاڑ، فساد

المتعجرف متکبر، گھمنڈی، ظالم

الحاسمة	قطعی، فیصلہ کن، آخری

١١ـ ضعاف الإيمان أمام الفتنة

طاش عقله	ہوش اڑجانا، عقل زائل ہوجانا
سال اللعاب	رال ٹپکنا،
	منہ سے پانی جاری ہونا
جندل	پچھاڑ دینا، مدہوش کردینا
البذخ (س)	شان وشوکت، افتخار
البخت	مقدر، نصیب

١٢ـ دور العلماء في مواجهة الفتنة

صقل النفس (ن)	چمکانا، سنوارنا، جلا بخشنا
الانبراء	سامنے آنا، مقابلہ پر اترنا
طيف الخيال	خیالی تصور، خیالی شکل
الهوجاء	تیز آندھی، زبردست طوفان

١٣ـ نهاية قارون

ازدری	استخفاف کرنا، توہین کرنا
جرجر	دھنسانا، گھسیٹنا
المعالم	نشانات، آثار، علامات

14 - ندامة من تمنى أن يكون مثله

ارتعدت الفرائص	رونگٹے کھڑے ہونا
المظاهر البراقة	ظاہری چمک دمک، طمطراق
تقتير	کمی کرنا

15 - ويكأنّ

ويكأن	او ہو
أطال النفس	بحث کو طول دینا،
	تفصیل سے ذکر کرنا
المظان	مواقع، مصادر، مراجع
يجيش (ض) جيشًا	جی میں آنا، جوش مارنا
الأحاسيس	احساسات
المنوط	معلق، وابستہ
الرصيد	اسٹاک، ذخیرہ ، محفوظ سرمایہ

قصة ابني آدم

١ـ من أغراض القصص القرآنية

تثبيت الفؤاد	دل کو مضبوط رکھنا
الإسهاب	تفصیل، توسع
طورًا	کبھی
الناصع	نکھرا ہوا، خالص، روشن
المذاق	لذت، ذائقہ، مزہ
الجذل	عمدہ، لطیف
المستطير	پھیلا ہوا، شائع، عام
الداء العضال	لاعلاج بیماری
لم يرفع إليه رأسًا	توجہ نہ دینا

٢ـ من ابنا آدم هذان

عديم الجدوى	بے فائدہ
الترهات	لغویات، بکواسات
التخبطات	اٹکل پچو باتیں، اوٹ پٹانگ
ضربه عرض الحائط	دیوار پر دے مارنا

4 ـ معيار القبول

فحوى	مصداق، معنی، مطلب
تخلق بصفة	کوئی صفت اپنانا، اختیار کرنا

6 ـ أكبر الأسباب الرادعة عن المعاصي

الجبن	بزدلی
ألجم	لگام دینا، روکنا

اللِجام — لگام

المِشوار — میدان، راستہ، سفر

مرتاح البال — مطمئن، خوش و خرم

7 - جزاء الظالمين

نہل (س) نہلًا — پانی پینا، سیراب ہونا

المنہل — گھاٹ، سرچشمہ

نأی (ف) بنفسه عنه — دور کرلینا، الگ تھلگ ہوجانا

باء بالوزر — گناہ کا مستحق ہونا

8 - فطوّعت له نفسه

مليّا — کافی دیر تک، عرصہ دراز تک

طوع يده — اس کے ہاتھ میں ہے، اس کے لیے آسان ہے

يتربّص — انتظار کرنا

يترصد — تاک میں رہنا، گھات میں لگنا

الفادحة — زبردست، بڑا

على التوّ — فوراً، بلا توقف

يندى له الجبين — شرم سے پانی پانی ہونا

9 - من سنّ سنة سيئة

جماجم(م) جمجمة — کھوپڑی

الأشلاء — اعضا، جسم کے جوڑ، ٹکڑے

ثلغ (ف) — کچلنا، توڑنا، ریزہ ریزہ کرنا

بقر (ن) — چاک کرنا

دکّ (ن) — مسمار کرنا، زمیں بوس کرنا

القنابل النووية — ایٹم بم

الأسلحة الدمارة — مہلک ہتھیار، تباہ کن اسلحہ

الإيداء به — پہنچانا، لے جانا، تباہ کرنا

10 ـ ماذا يفعل بجثة أخيه

الجثة — مردہ جسم، لاش

مواراة — چھپانا، دفن کرنا

الفتك — قتل کردینا، مارڈالنا

المدروس — سوچا سمجھا

11 - فبعث الله غرابا

المنقار — چونچ

أطال البحث — دیر تک کُریدا

بحث (ف) — کریدنا، کھودنا، تلاش کرنا

حثى عليه التراب — مٹی ڈالنا

جثمان — لاش، بے روح جسم

التوجع: — تکلیف محسوس کرنا

الغِرّ — فریب خوردہ ،نادان

المأفون — کم عقل، بے وقوف

سنّ (ن) سنًّا — قانون وضع کرنا ،دستور بنانا

12 - الحسد أخطر الأمراض

فاشيا (اسم فاعل) — پھیلاہوا، عام

حمله على — آمادہ کرنا، ابھارنا

ليس هذا عنه بمعزل — یہ اس سے الگ نہیں

الغوائل — آفتیں، فتنے

اغتمّ — غمگیں ہونا، مبتلائے غم ہونا

كوى (ض) كيًّا — جلانا، داغنا

الفهرس